

القلقشندي

في كتابه صبح الأعشى

عرض وتحويل

بقلم

الدكتور عبد اللطيف حمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

في ذمة كل جيل من الناس أو في عنقه أمانة عظيمة بالنسبة للأجيال التي سبقتة . وهذه الأمانة هي أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراث أدبي وعلمي عن تلك العصور . وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد وفهم جديد للظروف المحيطة بالأمة . وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ماضيها بحاضرها وتجعل من جهود أسلافها في شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطى صورة دقيقة من حضارتها التي تميزت بها عن سائر الحضارات .

والمعروف ان ثقافتنا العربية ثقافة قديمة عميقة الجذور ؛ وذلك في كل اقليم من الأقاليم التي ازدهرت فيها تلك الثقافة . وهي من هذه الناحية خليفة بأن يعنى بها على هذا النحو ؛ بحيث نعتبر أنفسنا آثمين في حق عروبتنا اذا نحن تركنا تراثنا العربي القديم مكتوبا بخطوط أصحابه وأعلامه ، معروضا بطريقتهم التي كانت ملائمة للعصر الذي عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعي العروبة من آن لآن الى

أن نعود الى هذا التراث ، فنقوم بنشره اولا عن طريق المطبعة . والمطبعة من الأدوات أو الأسباب التي من أجلها سميت العصور الحديثة بهذا الاسم . ثم لا يكفينا نشر هذا التراث القديم عن طريق المطبعة حتى نأخذ في عرضه كذلك بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذي نحن منه . وللأجيال التي تأتي بعدنا أن تفعل فعلنا . وهكذا دواليك .

لعل ذلك ما دعا وزارة الثقافة الى أن تقدم للجيل الحاضر هذه الموسوعة المشهورة في تاريخ الأدب العربي باسم :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

وقد عهدت الى هذا العمل الجليل فرحبت به ترحيبا شديدا لهذا السبب الذي شرحته الآن ، ولأسباب أخرى كثيرة ؛ من أهمها عنايتي منذ سنوات بفن التحرير الصحفي حتى لقد أدرخت في كتب أخرى لهذا الفن الجديد لمدة تزيد عن قرن . وما زلت ماضيا في عملي هذا الى اليوم .

ونحن نعرف ان الكتابة العربية انما تأثرت منذ نشأتها الى الآن بعاملين كبيرين هما : ديوان الإنشاء في العصر الوسيط ، وظهور الصحافة في العصر الحديث . ومعنى ذلك أذن أن للكتابة العربية طورين كبيرين : أولهما — الطور الذي تأثرت فيه الكتابة بديوان الإنشاء . وثانيهما — الطور الذي تأثرت فيه بظهور الصحافة .

وقد أرخ القلقشندى وغيره للأول وتورخ نحن وغيرنا
للثانى .

على اننا نستدرك هنا فنقول اننا لا نتناول الى بلوغ
المنزلة التى بلغها القدماء فيما أرخوا لصناعة الانشاء : فهذا
أبو العباس القلقشندى صاحب صبح الأعشى كتب فى
موضوع (الكتابة الديوانية) أربع عشرة مجلدة لا تقل
الواحدة منها عن أربعمئة صفحة ، وقد تصل الى ستمائة .
على حين ان مجموع ما كتبناه نحن فى موضوع (المقالة
الصحفية) الى الآن لم يبلغ بعد ألفى صفحة . وذلك بالرغم
من أن لنا من الامكانيات ما لم يكن للسابقين الأولين من
العلماء والباحثين . وأجل هذه الامكانيات تلك الأداة
الحديثة التى أشرنا اليها وهى المطبعة !!

* * *

كان من أيسر الفوائد التى عادت على القارئ العربى
القديم من مثل هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن — وهو
كتاب صبح الأعشى — ان حصل هذا القارئ على ما نسميه
فى لغة العصر الحاضر (بالوعى العربى) — وهو الوعى
الذى انتشر بسرعة البرق ، وعمل عمله فى العقل العربى ،
والنفس العربية والذوق العربى فى وقت معا .

وقد رأينا أبا العباس القلقشندى يتتبع كل فن من فنون
المكاتبات التى تصدر عن ديوان الانشاء فى كل بلد من بلاد
الاسلام ؛ كالعراق والشام ومصر والحجاز . ثم لا يكتفى

بذلك حتى يصف ما كان من أمر هذه الفنون الكتابية كلها
في بلاد المغرب والأندلس .

حيا الله أسلافنا من العلماء . فقد كان الواحد منهم
يستطيع بمفرده أن يقوم بتأليف موسوعة كبيرة تبلغ
العشرات من المجلدات ، وليس الى جانبه مطبعة تسعف
ولا أجهزة تعين على هذا العمل الضخم . على حين اننا في
الوقت الحاضر قلما نستطيع القيام بمثل هذا العمل الا عن
طريق الجهود المشتركة والتعاون الجماعي على أوسع
نطاق !!

والكتاب الذي نقدمه اليوم للقراء يعطينا فكرة صحيحة
عن الثقافة التي كان لابد منها لكاتب الديوان ، وذلك فضلا
عن الفنون الكتابية العديدة التي لابد له من أن يحذفها
جيذا ، ويقف على أصول كل فن من فنونها على حدة .
وسيجري القارئ الحديث من كل ذلك برأى صحيح عن
تقدير أسلافنا للثقافة من جهة ، ومدى اعتمادهم عليها في
ترقية المواطن العربي الذي هو عنوان الدولة الاسلامية في
جميع عصورها من جهة ثانية .

(والخلاصة) اننا نجد في الكتاب الذي بين أيدينا الآن
- خلا فنون الانشاء التي أشرنا إليها بيانا لأبواب عدة : -
نجد فيه بيانا لحال اللغة العربية في عصورها المختلفة ،

واتتشار هذه اللغة فى بلاد كثيرة ، منها فارس وما وراء
النهر وبلاد الروم ومصر وبلاد افريقية والمغرب الأقصى
والأندلس وبلاد الهند والصين وبعض بلاد أوربا نفسها .
نجد فيه بياناً للسبب الذى من أجله نجحت هذه اللغة
فى أن تصبح فى وقت قصير لغة الأدب والعلم ، ولغة الحكم
والسياسة ، فضلاً عن كونها لغة الدين ولغة القرآن الكريم .
نجد فيه شرحاً للنظم الادارية التى سارت عليها الدول
الاسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض ظهر فيها الدين
الاسلامى .

نجد فيه اهتماماً خاصاً (بوصف مصر) من جميع
نواحيها ، وعناية بالليل وزيادته ونقصه وخلجانه وزرعه .
وبياناً بخطط الديار المصرية على نحو يذكر بما فعله
المقريزى فى خطته المعروفة .

هذا كله فضلاً عن كون الكتاب الذى ألفه القلقشندى
يعتبر معرضاً جميلاً لآثار الكتابة الديوانية منذ عرف
المسلمون ديوان الانشاء الى زمان المؤلف كما سبق أن
ذكرنا . ولو لم يكن لهذا الكتاب من حسنة الا هذه الأخيرة
لكفاه شرفاً وفخراً واستحقاقاً للجهـد الذى بذل فى نشره
وتحقيقه عن طريق القسم الأدبى بدار الكتب المصرية فى
سنة ١٩١٣ . ثم استحقاقاً للجهـد الذى بذله نحن الآن فى
عرضه وتحليله وتقديمه للقراء فى جيلنا هذا .

* * *

أريد أن أختتم هذا التقديم بشكر وزارة الثقافة
بالجمهورية العربية المتحدة على أن عهدت الىّ بهذا الكتاب
الذي أقدمه اليوم للقراء وأنا مغتبط به أشد الاغبط
للأميرين اللذين شرحتهما قبل الآن .

أولهما — أنى أقدم للقراء رجلا من أعظم بناءة الثقافة
العربية في العصور الوسطى ، عاش في عصر المماليك ، وهو
العصر الذى تبلورت فيه الشخصية المصرية واتخذت شكلا
نهائيا .

وثانيهما — أن كتاب (صبح الأعشى) عرض (للرسائل
الديوانية) بصورها المختلفة في عصورها المختلفة .

أجل — تعرض القلقشندى في موسوعة صبح الأعشى
لقنون شتى من التحرير الرسمى أو الديوانى :

• كفن تحرير (الولايات) ، وتحرير (العهود والمبايعات)
وتحرير (الأيمان) جمع يمين ، وتحرير (كتب الأمان) ،
وتحرير (عقود الصلح) ، وتحرير (كتب الهدنة) ، وتحرير
(الوصايا الدينية) التى تلقى باسم الخليفة من أعلى المنابر
العامة ، وتحرير (المسامحات) وتحرير (الاطلاقات) ،
وتحرير (الاقطاعات) وهكذا الى ما يقرب من عشرين فنا !!
وتعرضنا نحن فى كتب أخرى لفن تحرير (المقال)
بأنواعه المختلفة ، وتحرير (العمود) بصوره المتعددة ،
وتحرير (القصة الاخبارية) داخلية كانت أم خارجية ،
وتحرير (التعليق) ، وتحرير (الطرائف) ، وتحرير (الحديث

(الصحفى) ، و تحرير (التحقيق الصحفى) ، و تحرير
(الما جريات الصحفية) ، ثم تحرير (الصورة) ، و تحرير
(الاعلان) ، و تحرير (الراديو) و تحرير (التلفزيون) ،
و تحرير (السينما) .

- فهاتان اذن صورتان متقابلتان للنشر العربى قديما
وحديثا . يلذ للباحث المتخصص أن يتأمل فيهما ، ويبدى
اعجابه بالجيد منهما !!

والله نسأل أن تقبل الشيبية العربية في وقتنا هذا على
مثل هذا الكتاب الذى تقدمه للقراء ، وأن يحبهم جميعا
في الثقافة العربية ، ويحقق لهم بها كل الفائدة المرجوة . انه
سميع مجيب .

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة في أول ديسمبر ١٩٦٢ .



القلقشندی فی عَصْرِهِ

الفصل الأول

القلقشندى فى عصره

١ - حركة الأحياء

« سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ فى أيدي التتار . ودفع هؤلاء الطغاة بتلك المدينة الاسلامية الزاهرة الى الدمار الحقيقى : عاثوا فيها فسادا واقلابا ، وانها لوالى علمائها تشريدا وازهاقا . ثم لم يكفهم أن يفعلوا ذلك بالأنفس والأرواح حتى راحوا يفعلونه بالكتب والمؤلفات — والكتب يومئذ تراث أجيال مضت ، وأزمة قضت — فألقوا بهذه الكتب فى نهر دجلة . وقضوا بهذا العمل على بغداد قضاء سياسيا وأديبا فى وقت معا .

« ثم أتى تيمورلنك فى أواخر ذلك القرن — ونعنى به القرن السابع الهجرى — فذهب بالبقية الباقية من هذه المدينة البائسة . وتركها الناس تحتضر فى يد الطاغية وفر الكثيرون منهم اذ ذاك الى مصر . وحكامها يومئذ هم أولئك الأبطال الذين وقفوا وقفهم المشهورة ضد التتار ،

فصدوهم وهزموهم ، وأثبتوا للعالم الاسلامى ان رد الطغاة الجابرة ميسور ، وان انقاذ الحضارة الاسلامية من مخالبهم أمر غير عسير » (١) .

« وفتحت مصر أبوابها للاجئين اليها من العلماء والأدباء والفضلاء فكثرت رحلة هؤلاء جميعا الى هذا البلد المضيف . وهناك فى مصر أمن أولئك العلماء والأدباء على أنفسهم ، وأحدثوا حركة علمية كبيرة أثرت فى العلماء المصريين تأثيرا كبيرا فدعتهم الى التفكير فى انقاذ الثقافة الاسلامية التى جنى عليها الجهل والظلم والتوحش . ورأى العلماء المصريون يومئذ ان خير طريقة ينقذون بها الثقافة الاسلامية الضائعة هى جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كبيرة على شكل « موسوعات » أو دوائر معارف عظيمة لا تدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المواد الا أحصتها » .

« وكان هناك باعث آخر على تأليف هذه الموسوعات وهذا الباعث هو ديوان الانشاء . والاهتمام به فى الواقع هو الذى شجع العلماء والأدباء وكتاب الموسوعات على هذا الاتجاه » (٢) .

(١ و ٢) عبد اللطيف حمزه : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى الأول ص ٣١٥ .

معنى ذلك أن مصر بحكم انها هزمت التتار في العصر المملوكي ، وهزمت الصليبيين قبل ذلك في العصر الأيوبي ، أصبحت زعيمة العالم الاسلامي في تلك العصور . وأصبح عليها بحكم هذه الزعامة أن تقوم بواجبات كثيرة . من أهمها المحافظة على التراث الثقافي وصيانه بالمعنى الحقيقي .

والحق ان مصر وفقت الى ذلك توفيقا عظيما . وبعد أن خيل الى الناس في العراق ان الثقافة الاسلامية محيت من الأذهان محوا وزالت من الوجود فعلا رأوا هذه الثقافة نبعت من جديد على يد نفر من علماء المصريين كتبوها كتابة جديدة وسلكوا في كتابتها طرقا جديدة ، وتوزعوا عليها توزعا جميلا : فهذا يجمع الثقافة الاسلامية في اطار أدبي — كما في (نهاية الأرب) وذلك يجمع هذه الثقافة في اطار جغرافي — كما في (المسالك والممالك) ثم ذلك يجمعها في اطار (ديواني) ان صح هذا التعبير — كما في (صبح الأعشى) . وأخيرا نجد من يجمعها في اطار لغوي — كما في (لسان العرب) وهكذا .

ان الذي لا شك فيه ان فكرة الموسوعات كان لا يمكن أن تصدر الا عن مثل هذا الوازع الذي أشرنا اليه ، وبمثل هذا النظام أو المنهج الذي نصفه . وهذا وذاك لا يمكن صدورهما الا عن أمة تشعر بواجبها شعورا تاما بعد حادث التتار . وهذا الواجب هو اقاذ التراث الاسلامي من الموت أو الدمار .

ذلك اذن هو المقصود (بحركة الاحياء) — وهي الحركة التى قام بها المصريون نتيجة للزعامتين الدينية والسياسية اللتين سلمتا لمصر المملوكية فى وقت كانت فيه بغداد عاجزة تمام العجز عن القيام بشئ من ذلك .

٢ — مفهوم الثقافة الاسلامية

وأثره فى الكتب المؤلفة

كانت الثقافة فى العصر المملوكى موسوعية الطابع للأسباب التى ذكرنا بعضها فى الفقرة السابقة . ولكن من الحق أن يقال ان عصر الموسوعات كان مسبقا بعصر آخر شهد حركة أخرى من حركات التأليف الشبيهة بالموسوعات — ونعنى به العصر العباسى .

فى ذلك العصر امتزجت ثقافات كثيرة بعضها ببعض . كانت كل واحدة منها تمثل عنصرا هاما من عناصر « الثقافة الاسلامية » المعروفة . وهذه الثقافات التى امتزجت على هذا النحو هى :

(الثقافة الفارسية) : وقد انتشرت فى الدولة العباسية بسبب الوزراء الذين كان معظمهم أو كلهم من الفرس . ثم بسبب انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد ، وبغير ذلك من الأسباب .

(والثقافة اليونانية) وقد انتشرت هى الأخرى فى العالم

الاسلامى بسبب الترجمة والمترجمين من ناحية ، وبسبب انتشار المدارس التى كانت تبشر بهذه الثقافة من ناحية ثانية .
ومن هذه المدارس على سبيل المثال : مدرسة حرّان ،
ومدرسة الاسكندرية ، ومدرسة جنديسابور .

(والثقافة الهندية) وهى ثقافة من المحقق انها تركت
آثارها كذلك فى كل من الأدب والدين واللغة .

(والثقافة العربية) وقوامها الشعر والقرآن الكريم
والحديث النبوى الشريف والخطب ونحو ذلك مما سيأتى
شرحه فى بعض الفصول القادمة .

(والثقافة الدينية) بوجه عام — ونعنى بها اليهودية
والنصرانية والذى لا شك فيه ان ثقافة المسلمين تأثرت بهما
تأثرا قويا .

أجل — امتزجت هذه الثقافات بعضها ببعض . وكانت
كل واحدة منها رافدا كبيرا يصبّ فى نهر الثقافة الاسلامية
ويزيدها حياة ونماء وقوة . وكان يمثل هذا الامتزاج بين
الثقافات رجال منهم :

الجاحظ : فى كتبه البيان والتبيين والحيوان وغيرها .
وابن قتيبة : فى عيون الأخبار وأدب الكاتب وغيرها .
وأبو الفرج الأصفهاني : فى كتابه الأغاني .
وابن سعيد : فى كتابيه : المغرب فى حلى المغرب .
والمشرق فى حلى المشرق .

« وفى ظل هذه الثقافات المختلفة أصبح للأدب تعريف

خاص جعلوا به هذا الأدب مشتملا على أشياء كانت غريبة
عنه كل الغرابة . منها الصيد وألعاب الفروسية ولعب
الشطرنج وضرب العود وغير ذلك . ومن ثم قال أحد وزراء
العصر العباسي — وهو هنا الحسن بن سهل — الآداب
عشرة : ثلاثة شهرجانية ^(١) ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة
عربية ، وواحدة أربت عليهن .

فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ،
ولعب الصوالج .

وأما الأنوشروانية : فالطب والهندسة والفروسية .

وأما العربية : فالشعر والنسب وأيام الناس .

وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث
والسمر وما يتلقاه الناس في المجالس » ^(٢) .

« بل يظهر لى أيضا ان هذا كان أحد الأسباب في فوزى
الكتب الأدبية المؤلفة في ذلك العصر : كالبیان والتبيين
للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة .
فقد قصدوا فيها الى جمع ما يفيد ، وتكويمه بعضه فوق
بعض فاهمين الأدب بمعناه الذى هو الأخذ من كل شيء
بطرف . فحكمة بجانبها بيتان من الغزل . ونادرة لطيفة

(١) ربما كان المقصود بكلمة شهرجانية (مذنية) نسبة
الى مدينة ملاحظات للدكتور حمزة على هذه الكلمة .

(٢) أحمد أمين : (ضحى الاسلام) . الجزء الأول
ص ١٦٩ - ١٧٠ .

بجانبها خطبة بليغة ، وقصص فى البخل بجانبها أخبار عن الخوارج وهكذا .. ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها وتفرق مجتمعا ، وتجمع متفرقا ، وتزيد ما استحدث من الطرف الأدبية (١) .

ذلك ما كان عليه الأمر فى عهد ازدهار الأدب العربى والثقافة الإسلامية . وقد استمر الحال على هذا حتى منتصف القرن السابع الهجرى . حين حدثت حادثة التتار فاجتاحت أمامها كل الكنوز الأدبية الضخمة ، وأتت على جميع الثروات العلمية التى لا تقدر بثمن .

اذ ذاك جاء دور مصر المملوكية لتقوم بما يجب عليها نحو هذه الكنوز الأدبية والعلمية ، فنهضت بهذا الواجب خير نهضة ، وأصبح لها فى عنق الثقافة الإسلامية دين كبير . وهذا ما يدعوننا الى أن نقف لحظة أمام بعض الموسوعات التى نسبت الى عصر المماليك والتى منها موسوعة أبى العباس المعروفة (بصبح الأعشى) .

ولكن قبل الخوض فى هذه الموسوعات أحب أن أنه الى الفرق بينها وبين كتب الجاحظ وابن قتيبة وأبى الفرج الأصفهاني من حيث طريقة التأليف . فالأولى بنيت على الفوضى وجمع المعلومات من هنا وهناك والاستطراد فى ذكر هذه المعلومات أو الانتقال من بعضها الى بعض لأدنى مناسبة . والثانية وهى الموسوعات ولم يكن أساسها الفوضى

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ص ١٧٠ - ١٧١ .

والاستطراد لأتفه الأسباب ولكنها بنيت على التنظيم الدقيق والتقسيم الأدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . كما بنيت على التقيد بموضوع الموسوعة قدر المستطاع . فالموسوعة الجغرافية تحاول ما استطاعت أن تحصر نفسها في المعلومات الجغرافية . والموسوعة اللغوية تحاول أن تفعل مثل ذلك . وموسوعة صبح الأعشى الخاصة بصناعة الانشاء حاولت أن تسلك هذا الطريق . وهذا كله على النحو الذي ستشرحه الفقرة التالية . والمهم ان أعظم ما تمتاز به الطريقة المصرية من الطريقة العراقية في التأليف هو العناية التامة بتقسيم الموضوع الواحد الى أبواب ، والأبواب الى فصول ، والفصول الى أطراف ، والأطراف الى مذاهب ، والمذاهب الى وجوه وهكذا الى ما لا نهاية له تقريبا .

٣ - أشهر الموسوعات

« الموسوعات المملوكية مشهورة يتداولها الباحثون الى الآن . ويكفى أن نتحدث عن ثلاث منها على سبيل المثال وهي :

نهاية الأرب للنويري .

مسالك الابصار لابن فضل الله العمري .

لسان العرب لابن منظور .

وهذا كله فضلا عن كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي

وهو موضوع كتابنا هذا من أوله الى آخره .

نهاية الأرب :

يظهر أن هذه الموسوعة هي أولى الموسوعات التي اقترنت بالعصر المملوكي . وصاحبها هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم المعروف بشهاب الدين النويري . ولد حوالي عام ٦٧٧ هـ بقرية من قرى بنى سويف اسمها (نويرة) وقضى طفولته بها . ثم سافر الى قوص — وهي يومئذ من أعظم البيئات العلمية بالديار المصرية . فتربى بهذه المدينة تربية علمية قوية .

وترجم لحياة النويري كثيرون منهم : « الزركلى » فى كتابه قاموسى الأعلام ، وعلى باشا مبارك فى كتاب الخطط التوفيقية ، وابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة فى أعلام المائة الثامنة ، والسيوطى فى كتابه حسن المحاضرة غير أن هؤلاء جميعا قد استغنوا بالاشارة الخفيفة عن البحوث المستفيضة فى حياة هذا العالم الكبير الذى كان خليقا منهم بعناية أكثر من التى بذلوها . وهذا هو صاحب الدرر الكامنة يكتفى بأن يقول عن صاحب نهاية الأرب^(١) : « .. وسمع من الشريف موسى بن على بن أبى طالب ، ويعقوب الهذبانى وغيرهما . ونسخ من البخارى ثمانى نسخ . وكان يكتب النسخة ويبيعها بألف درهم . وجمع

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة : الجزء الأول :

تاريخاً خافلاً بخظه وباعه بألفى درهم وهو فى ثلاثين مجلدة .
وحصل له عند الملك الناصر حظوة ، ووكله فى بعض أموره .
وباشر نظر الجيش بطرابلس ، وكان حسن الشكل ظريفاً
متودداً حتى مات فى رمضان سنة ٧٣٣ هـ .

وأما كتابه (نهاية الأرب) . فقد ألفه فى زمن صاحبه
الملك الناصر محمد بن قلاوون — الذى تقدم ذكره ، وذلك
فى ثلاثين جزءاً — وذكر فى مقدمته انه اشتغل بصناعة
الكتابة ثم اشتغل بأعمال الحكومة ، ثم انصرف بعدها الى
الأدب ، وتبرأ من الأعمال التى كان يمارسها قائلاً : فنبذتها
وراء ظهري وعزمت على تركها فى سرى دون جهري ،
وسألت الله تعالى الغنى عنها ، وتضرعت اليه فيما هو خير
منها . ورغبت فى صناعة الآداب ، ورأيت غرضي لا يتم
بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاهاً ، فامتطيت جواد المطالعة ،
وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل لى مركبها ،
وصفا لى مشربها ؛ آثرت أن أجرد منها كتاباً أستأنس به
وأرجع اليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى أن أثبت منها
خمساً فنون حسنة الترتيب ، كل فن منها يحتوى على
خمس أقسام :

الفن الأول — فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالِم
السفلية .

الفن الثانى — فى الإنسان وما يتعلق به .

الفن الثالث — فى الحيوان الصامت .

الفن الرابع — فى النبات .

الفن الخامس — فى التاريخ .

تلك رءوس الموضوعات التى تعرض لها النويرى فى كتابه نهاية الأرب . وقد صرح لنا — كما رأيت الآن — أنه استعان عليها بالاطلاعات التى وصل إليها . ومن ذلك نعلم أنه إنما أراد أن يلم بأكبر المعارف الانسانية فى عصره ، وأنه رتبها فى فنون خمسة .

والقارئ لكتابه هذا يعجب كيف مزج المؤلف فيه بين العلوم والآداب مزجا قويا جدا ، فهو اذا تحدث مثلا عن السماء فانه لا يقف عندما وصل اليه المنجمون والفلكيون فى زمانه وما حصلوه من علمى الفلك والتنجيم — ولكن يتجاوز هذا الى ذكر ما ورد فى القرآن عن السماء ، وما ورد فى الحديث عنها ، ثم يذكر الأمثال العامة التى وردت فيها كلمة السماء ، ثم ينتهى من ذلك الى ايراد طائفة ضخمة من الشعر الذى وصفت فيه السماء ، أو الذى فيه تشبيه بالسماء كقول ابن المعتز :

كأن سماءنا لما تجلت خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج فضل نداه تفتح بينه نور الأقاحي
ثم ينتقل المؤلف من الأبيات التى ورد فيها لفظ السماء الى الأبيات التى ورد فيها لفظ (الفلك) ومنها قول
أبى العلاء :

يا ليت شعري وهل ليت بنافعة
ماذا وراءك أو ما أنت يا فلك ؟
شمس تغيب ويقفوا اثوها قمر
ونور صبح يوافي بعدها حلك
طحنت طحن الرحي من قبلنا أمما
شتى ولم يدر خلق أية سلكا

ثم ينتقل المؤلف من السماء والفلك الى الكواكب
فيتحدث عن الكواكب السبعة ثم عن الشمس والقمر .
وهكذا تجد الصنف الأدبية هي الغالبة على هذا الكتاب
الذي أريد به جمع أكبر عدد ممكن من النصوص الأدبية
التي يحتاج اليها الناس في مواطن شتى . فاذا احتاجوا الى
شيء منها فما عليهم الا أن يعمدوا الى هذه الموسوعة الأدبية
الضخمة فيستخرجوا منها ما يريدون بنفس الطريقة التي
يستخرجون بها لفظا من ألفاظ اللغة في معجم من معاجم هذه
اللغة .

وبهذه الطريقة تحدث النويرى عن أمور كثيرة منها :
الشعر ، والحكم ، والأمثال ، والمجون ، والغناء ،
والموسيقى ، ومجالس الخمر ، وأسماء الشراب ، والزهد في
الدنيا ، والأدعية الدينية ، ونظام الحكومة ، ونظام
الوزارة ، وما يشترط في الوزير ، وعن الجيش وأنواع
السلاح ، وعن الغزو بطريق البحر ، والغزو بطريق البر ،

وعن القضاء وشروط القاضي ، وعن ولاية المظالم ، ونظام
الحسبة ، وعن التجارة والتموين والزندقة ومن اشتهر بها
— فانظر الى هذا الخليط العجيب من المعلومات التي قال
عنها المؤلف « وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان
النفوس تميل اليه وان الخواطر تشتمل عليه ، ولقد تتبعته
فيه آثار الفضلاء قبلي وسلكت منهم فوصلت بحبالهم
حبلتي » الخ .

مسالك الأبصار :

أما مسالك الأبصار فموسوعة جغرافية في أكثرها ، أتت
فيها المؤلف بوصف الممالك الشرقية . وقال انه اذا مد الله
في عمره فسيؤلف كتابا آخر في موضوع (الممالك الغربية)
غير انه مات في التاسعة والأربعين من عمره قبل أن يخرج
هذا الكتاب .

ومؤلف مسالك الأبصار هو شهاب الدين أبو العباس
أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري . ذكره صاحب الدرر
الكامنة وذكر نسبه كاملا وقال انه ولد في الثالث من شهر
شوال سنة سبع مائة للهجرة ، وقرأ العربية على كمال الدين
قاضي شهبة ، وقرأ الفقه على شهاب الدين بن المجد ، وقرأ
الأحكام الصغرى على ابن تيمية ، وتخرج في الأدب على
الشهاب محمود ، وشمس الدين بن الصائغ الكبير ،
وأبى حيان وغيرهم .

وكان يتوقد ذكاء مع حافظة قوية ، وصورة جميلة ،
واقترار على النظم والنثر ، مع سعة صدر وحسن خلق
وبشر محيا .

وتجهم الزمان لشهاب الدين أكثر من مرة اذ غضب
عليه السلطان الناصر في مناسبات كثيرة ، وقطع يده في
واحدة منها ، وزج به في السجن ونسيه مدة حتى رفع
اليه الشهاب قصته فأفرج عنه ، وكان ذلك في شعبان
سنة ٧٤١ هـ . وعاد الى خدمة السلطان . ولما وقع الطاعون
في دمشق وكان يومئذ بها ، عزم على الحج ، ثم توجه بزوجه
الى القدس فماتت عنه فدفنها وعاد هو الى دمشق فمات
بحمى أصابته ، وكان ذلك سنة ٧٤٩ للهجرة .

قال صاحب الدرر الكامنة : وأما أصل نسبه
(العمري) — فأتى من انه صنف كتابا بعنوان : فواصل
السحر في فضائل آل عمر — يريد عمر بن الخطاب —
وذلك في أربع مجلدات فنسب اليه رضى الله عنه .

ولشهاب الدين كتب كثيرة ومعروفة ، غير أن أشهرها
على الاطلاق كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار »
في أربعة عشر جزءا ، وموضوع الكتاب كما صرح مؤلفه
« ووصف الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، وهو
قسمان : أولهما : في الأرض . وثانيهما — في سكان
الأرض . والقسم الأول منهما على نوعين : أولهما : المسالك
وثانيهما الممالك .

أما المسالك ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئها ، وذكر
للأقاليم السبعة والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق وذكر
للقبلة ، وكيف يستدل عليها الخ .
وأما الممالك ففيها وصف لممالك الاسلام وحدها
لم يتجاوز حدها .

وأما القسم الثاني من الكتاب فأشتمل على أبواب . منها :
باب في المقارنة بين الشرق والمغرب ، وباب في الديانات ،
وباب في طوائف المتدينين ، وباب في التاريخ — أرخ فيه
للدول التي جاءت قبل الاسلام ثم الدول الموجودة بالفعل .
والحق أنك مع مؤلف مسالك الأبصار أمام عالم من
علماء ذلك العصر قال عن نفسه « ولم أذكر عجيبة حتى
فحصت عنها ، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل عنه لتكون
عهدتها عليه ، ولم أنقل الا عن الأعيان الثقات من ذوي
التدقيق في النظر والتحقيق في الرواية » .

على ان صاحب مسالك الأبصار قد مزج على عادة
الكتاب في عصره — العلم بالأدب — وهو من هذه الناحية
صورة دقيقة من النويري ، وان كانت موسوعة هذا
الأخير أشمل وأكمل وأكثر المأما بالمعارف الانسانية المعروفة
في زمانه .

وان القارئ الحديث ليعجب كل العجب من كتاب
موضوعه الجغرافيا يتعرض فيه المؤرخ لكل هذه الموضوعات
الكثيرة والمعلومات العديدة من أدب ودين وتاريخ وآثار .

وهذا كله فضلا عما اشتملت عليه هذه الموسوعة من المواد الجغرافية الكثيرة التي هي الموضوع الأصلي لهذه الموسوعة الجليلة . ولكن هكذا كانت طريقة التأليف في مصر في ذلك العصر . والى القارىء قطعة صغيرة جدا من هذا الكتاب على سبيل المثال :

(ورد في الباب السادس من القسم الأول حديثا طويلا عنوانه « في أحوال الأرض » — تكلم فيه عن التّجبال وعن الأنهار ، وخص منها نهر النيل ببحث طويل وجميل أشار فيه الى أصوله ومنابعه ، واكتشاف المسلمين لهذه المنابع قبل الفرنجة ، ومحاولة الملوك من بنى أيوب أنفسهم — كالملك الصالح نجم الدين — معرفة ذلك ، ثم انتقل من الكلام على الأنهار الى الكلام عن البحيرات ، ثم تكلم عن الآثار المنبثة في أقطار الأرض ومنها الكعبة ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى ، ومسجد عمرو بن العاص بالقسطنطين ، ومسجد قرطبة ، وهياكل اليونان والصقالبة والصابئة والصين ، وبيوت النيران بفارس ، والأهرام وأبى الهول وسجن يوسف وعمود السوارى بالاسكندرية . وأخيرا وصل الى الكلام في موضوع الآثار عن الأديرة المشهورة والحانات . فتكلم عن ديارات العراق والحيرة والشام وفلسطين واليمن ومصر ، وذكر أنه كان بمصر الى زمانه عدد كبير من الأديرة وصف منها ستة عشر ذيرا قال انها من خير متنزهات الدنيا .

لسان العرب :

ومؤلف هذه الموسوعة اللغوية الكبيرة هو : أبو الفضل محمد بن علي الافريقي المصري جمال الدين المعروف بابن منظور . ولد سنة ٦٦٣ هجرية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١١ هـ . وكان صدرا رئيسا فاضلا في الأدب مليح الانشاء عارفا بالنحو والكتابة ، خدم بديوان الانشاء بمصر مدة طويلة . وولى قضاء طرابلس مدة كذلك ثم عاد الى مصر ، وظل مقيما بها حتى مات .

ويقال انه ترك بخطه نحو من خمسمائة مجلد . وقد عمى في آخر عمره .

ومن أشهر تأليفه هذا الكتاب الذي خلد ذكره الى الأبد وهو كتاب (لسان العرب) وهو معجم واسع المادة عظيم الفائدة . جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهي : كتاب التهذيب للأزهري ، والصحيح للجوهري ، وحواشي ابن بري على الصحيح ، والمحكم لابن سيده ، والمخصص له كذلك ، والنهاية لابن الأثير .

وبلغت مواد اللغة في هذا المعجم ثمانين ألف مادة وبذلك أصبح معجمه من أكبر المعاجم التي وصلت إلينا . كما أصبحت المادة التي تملأ صفحة واحدة من (القاموس المحيط) للفيروزبادي تملأ على الأقل أربع صفحات من (لسان العرب) .

وقد أشار ابن منظور في مقدمة معجمه الى انه اطلع
على أكثر المعاجم التي ألفت في عصره ، ولكنه مع شدة
اعجابه بها كان يجد في كل واحد منها قصصا . اما من ناحية
الجمع واما من ناحية النظام أو الوضع ونحو ذلك .

(وبعد) فهذه الثقافة الاسلامية التي أعيدت كتابتها
بأقلام مصرية وطريقة مصرية هي التي اشترك فيها — كما
قلنا — مصريون غيورون من أهمهم :

سيرة أبي العباس القلقشندی

٧٥٦ هـ - ٨٢١ هـ

الفصل الثاني-

سيرة أبي العباس القلقشندي

كثيرون من المثقفين الى اليوم يتردد على ألسنتهم اسم أبي العباس القلقشندي ، وكثيرون منهم كذلك يشيرون الى موسوعته التي اشتهر بها وهي كتابه « صبح الأعشى » . وكلما تنظر في بحث من البحوث العلمية الأدبية الحديثة حتى تجد فيه اسم القلقشندي وإشارة الى موسوعته في أكثر من موضع .

وأيسر ما يفهم من هذا الحديث ان مؤلف هذه الموسوعة الكبيرة لابد أن يكون مشهورا في التاريخ شهرة غيره من العلماء والأدباء والمؤرخين أمثال الجاحظ ، والمقرئ ، وياقوت ، وابن خلكان وغيرهم .

ولكن العجب يملأ نفس الباحث ، والدهشة تملك عليه حواسه حين ينظر في المراجع الأصلية فإذا بها تخلو — أو تكاد أن تخلو — من ذكر رجل كالقلقشندي على سعة علمه ، وغزارة فضله ، وفيض أدبه ، وسحر قلمه ، وعظم ما له من دين على الأدب العربي والثقافة العربية !

أليس في هذا كله ما يدل على أن التاريخ كالأدب
ينصف الناس ان شاء ويظلم الناس ان شاء ويرفع بعضهم
متى أراد ، ويخفض آخرين ما دامت له غاية من وراء ذلك ؟
ولكن ما الغاية التي قصد إليها التاريخ من تجاهل هذا
الرجل ؟ هل كان له حساد كثيرون في الزمن الذي عاش
فيه ؟ هل قصر به أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه فلم يورخوا
له بعد وفاته ؟ هل أصيب معاصروه بالركود الذهني
أو الكسل العقلي الذي حال بينهم وبين الترجمة له ولأمثاله
من العلماء والأدباء ؟

الحق ان الباحث لا يستطيع الاجابة عن واحد من هذه
الأسئلة لأن المصادر لا تساعد على ذلك . ولا يزال العجب
يستبد بالباحث كيف يهمل التاريخ سيرة أبي العباس
القلقشندي على هذا النحو ؟ أو كيف أن عين التاريخ
تقتحم رجلا كبيرا كأبي العباس الى هذا الحد ؟

قول ذلك لأن شيئا من سيرة القلقشندي المتوفى
سنة ٨٢١ هـ ورد في كتب كل من المقرئ المتوفى
سنة ٨٤٥ هـ ، وابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والعيني
المتوفى سنة ٨٥٥ هـ والسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ،
وصاحب كشف الظنون ، وصاحب شذور الذهب آخر
الأمم .

أجل ! ورد ذكر أبي العباس القلقشندي في جميع هذه
المراجع أو الكتب . غير أنه ورد بصورة وجيزة مبتسرة

لا غناء فيها في حقيقة الأمر . ولعل أوسع ترجمة ظفر بها أبو العباس هي تلك الترجمة التي وردت في كتاب « الضوء اللامع » للسخاوي . ومع هذا وذاك فإنها ترجمة مختصرة لا حظ لها من دقة ولا حظ لها من اتساع . واليك هذه الترجمة على سبيل المثال . قال السخاوي :

« هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبي اليمن الفزارى القلقشندى ثم القاهري الشافعي والد (النجم) الذي سيأتى ذكره .

« ولد سنة ٧٥٦ هـ . واشتغل بالفقه وغيره ، وسمع من ابن الشيخة ومن في وقته . وكان أحد الفضلاء ممن برع في الفقه والأدب ، وكتب في الإنشاء ، وناب في الحكم ، وشرح قطعا من جامع المختصرات ، بل شرع في نظمه كذلك . وعمل صبح الأعشى في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات ، جمع فيه فأوعى . وكان يستحضر أكثر ذلك مع جامع المختصرات والخواص وكتابا في أنساب العرب . وهو ممن نظم سيرة المؤيد لابن ناهض مع تواضع ومروءة .

« مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ، وله خمس وستون سنة . ذكره شيخنا (يريد ابن حجر) في معجمه والمقرئى ، والعينى ، وآخرون .

« وسمى العينى والمقرئى والده عبد الله — وهو وهم . وقال آخرون انه برع في العربية ، وعرف الفرائض ،

وشارك في الفقه وسمع الحديث ، ونظم ونثر . وأرخوا وفاته ببليلة السبت عاشر جمادى الثانية » .

أرأيت الى هذه الكلمات الوجيزة في سيرة رجل خدم الأدب والعلم هذه الخدمات الجليلة ؟ أرأيت الى عالم كبير كالسخاوى كيف يشير الى موسوعة القلقشندي المعروفة باسم صبح الأعشى اشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم ينظر فيها ، ولم يتعرف اليها ، ولم يحاول أن يقف على محتواها حتى يعطى القارىء العربى فكرة ولو بسيطة عنها ؟ ثم انظر معى الى قضية أخرى أثارها السخاوى في هذه الترجمة الخاطفة التى أتى بها :

لقد عمد السخاوى الى تخطئة المقرئى والعينى فيما ذهبوا اليه من أن والد أبى العباس القلقشندي اسمه « أحمد بن عبد الله » . وقال السخاوى : بل اسمه « أحمد ابن على » وانما وهم المقرئى والعينى فيما ذهبوا اليه . مع أن المقرئى والعينى كليهما أقرب الى أبى العباس القلقشندي من السخاوى وقد مرّ بك ان وفاة المقرئى كانت فى عام ٨٤٥ هـ ، وان وفاة العينى وقعت فى عام ٨٥٥ هـ ، وأما وفاة السخاوى فكانت عام ٩٠٢ للهجرة .

وقد عرض زميلنا الأستاذ ابراهيم الأييارى لهذه القضية بشئ من التحقيق . ثم قال :

« وظاهر ان السخاوى نقل ما نقل عن شيخه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية فى معجمه ، وهو — أى

السخاوى — يرجح غير مشير الى ماخذ . ويخطئ غير
كاشف عن مصدر هذا الخطأ . والمؤلفان اللذان رد قولهما
يعاصران شيخه . أحدهما — وهو المقرئى — يسبقه
وفاة . وثانيهما — وهو العينى — تتأخر وفاته عن وفاة
شيخه بأعوام ثلاثة . والغريب ان السخاوى الذى صرح
بهذا الوهم من الشيخين المقرئى والعينى وهو يترجم
لأبى العباس عاد فوقع فيه وهو يترجم لابن أبى العباس
محمد حيث قال :

« محمد بن أحمد بن عبد الله بن اسماعيل النجم
أبو الفضل بن الشهاب بن الجمال أبى اليمن القلقشندى
القاهرى الشافعى » .

« وأقرب ما يسعنا لنرد على السخاوى فى تخطئة
الشيخين أن تنهيه انه حين نقل عن شيخه ابن حجر ما يخالف
رأيهما وثق شيخه وضعفهما . وحين نقل عن غير شيخه
ترجمة ابن أبى العباس محمد لم ينتبه الى ما فرط منه
فيعود اليه بالتبديل ، والا فما باله سكت ولم يقل شيئا
وكان بوسع ان يقول ؟

« وشئ آخر يسعنا فى الرد على السخاوى انه شارك
الابن الحية أعواما لا ندرى عدتها ، ولكننا لا نراها قليلة ،
فهو حين يكتب عن الابن غيره حين كتب عن الأب ، فهو

هناك ناقل لم يشهد ولم يسمع وهو هنا ناقل قد سمع وقد شاهد» (١).

لقد يكون صحيحا ما ذهب اليه الأستاذ الايبارى من أن السخاوى بالغ في تخطئة المقرئى والعينى ، ايثارا منه لكلام شيخه ابن حجر فى معجمه من أن والد أبى العباس القلقشندى هو أحمد بن على وليس أحمد بن عبد الله . ولكن بقى أن نسأل : ما الذى حدا بابن حجر الى ما ذهب اليه بصرف النظر عن كونه خطأ أم صوابا ؟

لقد أتينا لك أيها القارئ بهذا المثل لا لنتعب ذهناك فى تحقيق اسم الرجل أو على الأصح اسم والده وجده . وانما ضربنا لك هذا المثل لتعلم الظلم الذى وقع على أبى العباس القلقشندى من جانب التاريخ . فلم يكفه أن ظلم بسبب هذه الترجمات الخاطفة التى لا تكشف عن جوانبه حتى رأيناه قد ظلم بسبب الخلط الذى وصفت به هذه الترجمات على اختلافها .

وحسبك دليلا على هذا الخلط أيضا أن تجد السخاوى يشير الى « صبح الأعشى » فيقول انه يقع فى أربع مجلدات . والواقع انها لا تقل عن سبع مجلدات ما زالت محفوظة فى دار الكتب المصرية الى اليوم .

(١) ابراهيم الايبارى : تحقيق فى كتاب نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب لأبى العباس القلقشندى . صفحة ح و ط .

وتندع هذه القضية الكبرى — وهي قضية الظلم الذي وقع على القلقشندی في كتابة سيرته . وننظر في هذه الأطراف اليسيرة التي نجدها من هذه السيرة هنا وهناك لنجمع بعضها الى بعض ، وثولف منها ما يمكن تأليفه من ترجمة لحياة الرجل .

مولده ونشأته :

ولد أبو العباس القلقشندی في سنة ست وخمسين وسبعمئة للهجرة ، وذلك في مدينة (قلقشندة) بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية وفتح الشين وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة . غير ان ياقوتا ذكر هذه المدينة في معجمه بالراء بدلا من اللام (١) .

أما « ابن مماتي » فقد أورد هذا الاسم في كتابه « قوانين الدواوين » باللام ، ولم يوردها بالراء (٢) . وابن مماتي من كتاب الدولة الأيوبية ولا بد أن هذه المدينة كانت معروفة بهذا الاسم مضبوطة بهذه الحروف في زمان تلك الدولة .

وعلى ذلك فلا سبيل الى معرفة هذه المدينة بغير هذا

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان : الجزء الرابع :

ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين : صفحة ١٦٧ .

الاسم الذى ذكره أكثر المؤرخين وأوتقهم علاقة بالديار المصرية التى منها هذه المدينة .

وتقع قلقشندة الى الجنوب من مركز طوخ بمحافظة القليوبية ، ويبتها وبين القاهرة مسافة لا تزيد عن أكثر من ثلاثة فراسخ ، كما تقع هذه المدينة غربى بلدة أجهور الكبرى على ترعة الجاموس .

وإذا جاز لمدينة قلقشندة أن تباهى غيرها من المدن المصرية بنجاة أبنائها وبعض عظمائها فإن لها أن تباهى المدن كلها بثلاثة رجال من رجالاتها على الأقل :

أما أولهم فالليث بن سعد ، وأما الثانى فأبو العباس القلقشندى . وأما الثالث فابنه محمد المعروف بالنجم .

وقد كان الليث بن سعد من أعظم فقهاء مصر فى القرن الثانى للهجرة . كان رجلا فاضلا مهابا مسموع الكلمة قد رزقه الله سعة فى المال وفى الجاه . ولكن علمه وفقهه كان أكثر من ماله وجاهه . والليث بن سعد هو الفقيه الذى قال فيه الامام الشافعى « الليث أفقه من مالك ، الا أن أصحابه لم يقوموا به » . وقال فيه ابن وهب : « ما رأينا قط أحدا أفقه من الليث » .

عاش هذا الفقيه الكبير فى مدينة قلقشندة عيشة رغيدة هنيئة ، وكان معروفا بالبر بأهل العلم ، يهيم من ماله وعلمه ، ويسعهم بخلقه وفضله وأدبه . ومع هذا وذاك ، فلم نجد من تلاميذه ومريديه من كلف نفسه التعريف به بعد

وفاته ، وتسجيل العلم الذي أخذه عنه في كتب يقرأها
الناس ليحكموا له أو عليه . وهذا ما قصد اليه الامام
الشافعي بالكلمة التي قال فيها : « الليث أفقه من مالك
الا أن أصحابه لم يقوموا به » .

ومات الامام الليث سنة خمس وسبعين ومائة . وقيل
في رثائه يومئذ :

ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم قريبا وقبر

ثم في القرن الثامن للهجرة أنجبت مدينة قلقشندة رجلها
الثاني وهو صاحب السيرة ، ومن بعده أنجبت ابنه محمدا .
وهو من قلنا انه نبغ في الحديث وفي الشعر معا .

ولد هذا الأخير سنة سبع وتسعين وسبعمائة . ومات
غريقا في النيل في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثمانمئة (١) .
أما والده أبو العباس فقد سبق أن قلنا انه ولد سنة
ست وخمسين وسبعمائة من أصل عربي . فهو من بني بدر
من فزارة من قيس عيلان . وكان بنو فزارة قد وفدوا على
مصر مع من وفد اليها من العرب منذ الفتح الاسلامي .
ونزلوا باقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على معظم
هذا الاقليم ، وأصبحت لهم الرياسة والغلبة على جيرانهم
فيه — كما أصبحت لهم الغلبة كذلك في هذا الاقليم على
بني عمومته بني مازن بن فزارة .

(١) السخاوي : الضوء اللامع : ج ٦ ص ١٥٧ .

معنى هذا كله انه كان لقلقشندة فريقان كبيران هما :
— فريق بنى بدر ، وفريق بنى مازن ، وكلاهما من فزارة .
ولكن الرياسة آلت الى الفريق الأول الذى ينتمى اليه
صاحب السيرة .

مراحل حياته :

ونستطيع أن ننظر فى حياة أبى العباس القلقشندى فنتبين
منها ثلاث مراحل :

الأولى — مرحلة النشأة والتعليم .

والثانية — مرحلة قام فيها بتدريس الفقه والتأليف فى
هذا العلم .

والثالثة — مرحلة تولى فيها كتابة الانشاء فى الديوان
ووضع كتباً فى هذه الصناعة .

المرحلة الأولى :

نشأ أبو العباس القلقشندى نشأة علمية سليمة . وتربى
تربية صحيحة ثم توجه الى الاسكندرية وأقام بها مدة من
عمره فى طلب العلم على مشهورى العلماء فى زمانه . واشتغل
فى أثناء ذلك بفنون اللغة العربية والأدب حتى اجتمع له
من ذلك مقدار وافر .

وفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة — حينما كان مقيماً
بشعر الاسكندرية — أجازته الشيخ سراج الدين أبو حفص
عمر بن أبى الحسن المشهور «بابن الملقن» بالفتيا والتدريس

على مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه . كما أجاز ابن
الملقن لأبي العباس كذلك بأن يروى عنه كل تأليف له في
الفقه والحديث ، وأن يروى كل ما جازت له روايته كالكتب
الصحاح الستة ، ومسند الشافعي ، ومسند أحمد بن حنبل ،
وغير ذلك من الكتب التي هي أصول الفقه الاسلامي .

وترى — أيها القارئ — صورة من هذه الاجازة
العلمية التي كتبها ابن الملحق لتلميذه أبي العباس مشته في
كتاب صبح الأعشى ، وقد رأينا أن تأتي لك بهذه الصورة
في هذا البحث الذي بين يديك ، فالتمسها في الفصل الذي
تحدثنا فيه عن فن كتابة الاجازات العلمية .

المرحلة الثانية :

جلس أبو العباس القلقشندى بعد ذلك للتدريس .
فاتتبع به كثيرون ، وبدا للناس فقيها يميل الى الاجتهاد ،
ويحاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد ، ويظهر ان
أبا العباس كان يأمل من وراء جهوده في تدريس علم
الفقه بوضع الكتب فيه أن يأتي يوم ينتقل فيه من التدريس
الى القضاء ، وان كان أهل الورع والتقوى من أسلاف
هذا الرجل في الأزمنة المتقدمة يتخرجون دائما من وظائف
القضاء ويفضلون عليها دائما وظائف التدريس ، ويتناقلون
فيما بينهم حديثا نبويا أو قولاً مأثوراً هذا نصه : « قاض
في الجنة وقاضيان في النار » . أما المعلمون فهم ورثة
الأنبياء والمرسلين . ومن ثم لا نعجب من أن يفضل الكثيرون

من علمائنا الأقدمين أن يكونوا أساتذة ومدرسين على أن يكونوا قضاة وحاكمين .

ومهما يكن من شيء فإن هذه المرحلة من حياة القلقشندي قد أتاحت له التأليف في علم الفقه فوضع فيه يومئذ الكتب التالية :

١ — شرح (لجامع المختصرات في فروع الشافعية) وهو كتاب نسب إلى شيخ من شيوخ مصر هو المدلجي — كمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدي ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ . وتولى شرحه القلقشندي بعد ذلك بمدة يسيرة .

٢ — شرح لكتاب (الحاوي الصغير في الفروع) للقرظيني — نجم الدين بن عبد الغفار بن عبد الكريم ، الشافعي ، المتوفى سنة ستمائة خمسة وستين للهجرة . ثم إن أبا العباس في هذه المرحلة الثانية من حياته لم يكتف بالعناية بعلم الفقه ، بل أخذ نفسه كذلك بالتمرس بفن الأدب . يدلنا على ذلك أنه ألف في هذه المرحلة طائفة من الكتب والرسائل الأدبية منها :

١ — حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ، وهو رسالة أنشأها للمقر الزيني أبي يزيد الداودار الظاهري ، وذلك في شهور سنة ٧٩٤ للهجرة ، وفي تلك السنة كان السلطان الظاهر برقوق قد ولي أبا يزيد هذا وظيفة الداودارية .

٢ - شرح على قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير قال فيه القلقشندى نفسه :

« وقد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته (كنه المراد في شرح بانت سعاد) فتح الله فيه بمعان لم أقف عليها في شرح لها من قبل » (١) .

هكذا استطاع أبو العباس القلقشندى أن يفيد من هذه المرحلة الثانية من مراحل حياته ، ويجعل منها امتدادا لمرحلة النشأة العلمية التي سبقت الإشارة إليها .

والحق - لقد خرج الرجل من هاتين المرحلتين موفور الحظ من الفقه والأدب ، ونبع في هذه العلوم والفنون حتى لفت إليه أنظار أولى الأمر اذ ذاك . ونظرنا نحن فاذا أبو العباس يختار لديوان الانشاء لفضله وعلمه وأدبه ، فكان ذلك بداية المرحلة الثالثة من مراحل حياته التي تتحدث عنها .

المرحلة الثالثة :

في سنة احدى وتسعين وسبعمائة - أى في سن

(١) يقول الأستاذ الايبارى :

وهذا الشرح منسوب أيضا لأحمد بن حجر (انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٣٣) . وبتدار الكتب المصرية وبمكتبة الأزهر نسختان من هذا الشرح منسوبتان الى السيوطى .

انظر نهاية الأرب في معرفة انساب العرب : تحقيق الايبارى : ص ٤٢٠ والذي نراه نحن ان لهذه القصيدة شروحا كثيرة من الجائز ان يكون شرح القلقشندى واحدا منها .

الخامسة والثلاثين اختير أبو العباس القلقشندى للعمل في ديوان الانشاء . واذ ذاك أسفر ذكاء أبي العباس أو جادت قريحته بطائفة أخرى من الكتب تنفق وهذا العمل الأخير . ومن هذه الكتب ما يلي :

١ - مقامة في تقریظ القاضی بدر الدين بن القاضي علاء الدين بن القاضي محیی الدين بن فضل الله رئیس ديوان الانشاء في ذلك الوقت . وأطلق القلقشندى على هذه المقامة اسم (الكواكب الدرية في المناقب البدرية) . وبنائها على التعريف بكتابة الانشاء ، فأوضح أنها الحرفة التى لا يليق بطالب العلم غيرها ، والصناعة التى لا يجوز لها العدول عنها ، وضمنها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة .

غير ان هذه المقامة برغم اشتغالها على كثير من المعانى كانت من الايجاز الشديد بحيث احتاجت من أبى العباس الى شرح واف يكشف اشارتها ويوضح عبارتها . ومن ثم فكر القلقشندى في وضع كتابه المشهور :

٢ - صبح الأعشى . وقد جعله شرحاً لهذه المقامة . واستغرق في وضعه وقتاً طويلاً ، وفرغ من تأليفه يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة للهجرة .

فاذا عرفنا انه التحق بديوان الانشاء سنة احدى وتسعين وسبعماية ، وانه اشتغل بعد ذلك في كتابة المقامة

التي أشرنا إليها ، وانه شرع بعد هذا وذاك يؤلف كتابه
« صبح الأعشى » فانتا نميل الى القول بأن أبا العباس أتق
في كتابة الصبح زمنا يقرب من عشرين سنة .
شعر القلقشندي بعد ذلك بأن كتابة الانشاء في زمانه
تستوجب العلم بأنساب العرب ، فتوفر على تأليف كتابين
عظيمين في هذا العلم أو الفرع من فروع العلم ، وهذان
الكتابان هما :

١ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، وهو الكتاب
الذي أهده أبا الحسن يوسف الأموي .

٢ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ،
وهو الكتاب الذي أهده أبا المحاسن محمد الجهمي
الشافعي المؤيدي صاحب ديوان الانشاء في ذلك الوقت .
وذكر القلقشندي في مقدمة هذا الكتاب الأخير ان
القصد منه هو الاستدراك على الكتاب السابق ونعني به
نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ولذا نراه في قلائد
الجمان حذف أشياء وأضاف أشياء وقام بتعديلات هامة .
وفرغ من تأليف قلائد الجمان في الثالث عشر من شهر رجب
سنة تسع عشرة وثمانمائة للهجرة - أعني قبل وفاته بعامين فقط .
يقول الأستاذ الايباري :

« لقد وضع أبو العباس (نهاية الأرب) بعد (الصبح)
ما في ذلك شك ، فقد أحال على الصبح في موضعين من
كتابه نهاية الأرب :

أما أولهما — فعند الكلام على آل عيسى الذين هم
بطن من آل فضل من عرب الشام ، وذلك حيث يقول في
آخر الحديث عنهم :

« في كلام آخر يطول ذكره استوفيته في كتاب صبح
الأعشى في كتابة الانشا على هؤلاء العرب » .

وأما ثانيهما — فعند الكلام على بنى جذينة الذين هم
بطن من النخع ، وذلك حيث يذكر الأشر النخعي وعهد
أمير المؤمنين على بن أبي طالب له فيقول : « هو من أبلغ
العهود ولقد أوردته في كتابي صبح الأعشى في كتابة الانشا
في الكلام على عهود الخلفاء والملوك » (١) .

ولا نعلم بالضبط هل كتب القلقشندی كتابيه الأخيرين
(نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) و (قلائد الجمان
في التعريف بقبائل عرب الزمان) وهو مشغول بوظيفته في
ديوان الانشاء ، أو أنه كتب هذين الكتابين وهو خارج
هذه الوظيفة ؟ هذا ما لا نستطيع الحكم فيه ما دامت المراجع
كلها لم تشر الى شيء منه .

ولحسن الحظ أن قام الأستاذ ابراهيم الايبارى منذ
عامين بتحقيق كتاب نهاية الأرب ، فأثبت أولا ان الكتاب
للقلقشندی لا لسواه ، كما أثبت ثانيا انه لا يحتمل مطلقا

(١) انظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس
القلقشندی : تحقيق ابراهيم الايبارى صفحة ع .

أن يكون هناك كتابان بهذا الاسم ؛ أحدهما للقلقشندي والثاني لولده محمد .

والذي أثار هذا الشك في ذهن المحقق أنه وجد نسخا لهذا الكتاب ذكر في بعضها اسم المهدي اليه على أنه « أبو المحاسن يوسف الأموى » الذى نص عليه أبو العباس القلقشندي ، وذكر في بعضها الآخر اسم المهدي اليه على أنه « الأمير أبو الجود » الذى نص عليه محمد النجم بن أبى العباس القلقشندي .

وهنا يقول الأستاذ الاييارى : « أكاد أجزم بأن الابن أهدى مؤلف أبيه بعد وفاته الى أبى الجود هذا ، وانه أمضى — أى وقع على هذا الاهداء — باسمه ، ولعله نسخ منه نسخة فرغ منها فى سنة ٨٤٦ هـ — وهى النسخة الأم لهذا الكتاب فعنها نقلت النسخ الأخرى .

وقد رتب القلقشندي كتابه نهاية الأرب على حروف المعجم وجعله على مقدمة ومقصد وخاتمة :

ففى (المقدمة) ذكر الأمور التى يحتاج اليها فى علم الأنساب ومعرفة القبائل وبها خمسة فصول :

الأول — فى علم الأنساب وفائدته وبيان الحاجة اليه .

الثانى — فى بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر أنواعهم .

الثالث — فى معرفة طبقات الأنساب

الرابع — في ذكر مساكن العرب القديمة التي منها
درجوا الى سائر الأقطار .

الخامس — في ذكر أمور يحتاج اليها الناظر في علم
الأنساب .

وأما (المقصد) ففيه فصلان :

الأول — في ذكر عمور النسب النبوى وما يتفرع عنه
من الأنساب .

والثانى — في ذكر تفاصيل القبائل مرتبة على حروف
المعجم .

وأما (الخاتمة) فخمسة فصول :

الأول — في ديانات العرب قبل الاسلام .

الثانى — في المفاخرات الواقعة بين قبائلهم .

الثالث — في الحروب الواقعة بين العرب فى الجاهلية
وأوائل الاسلام .

الرابع — فى نيران العرب فى الجاهلية .

الخامس — فى أسواق العرب المعروفة قبل الاسلام .

هذه أطراف يسيرة من حياة رجل من رجالات مصر فى
العصور الوسطى توفر على خدمة العلم والأدب بكل ما يملك
من فطنة وغيره وقوة .

وان نظرة واحدة الى جهود الرجال العلمية والأدبية
لتدلنا بجلاء على أن أهم الكتب التى خلفها كتابان هما :

نهاية الأرب الذي أشرنا اليه وقلنا ان الله وفق زميلا
من الزملاء هو الأستاذ ابراهيم الاييارى الى تحقيقه ونشره
بطريقة علمية صحيحة .

وأما الثانى فكتاب صبح الأعشى .

غير ان الذى لا شك فيه أن (صبح الأعشى) أهم
بكثير من (نهاية الأرب) . بل انه لولا (الصبح) لما ظهر
كتاب (النهاية) . وقد صرح القلقشندي بأنه انما وضع
كتابه نهاية الأرب لا لشيء الا لأن كتابة الانشاء تستلزم
العلم بقبائل العرب ثم وجدنا أبا العباس — رغبة منه في
تعميم الفائدة وتقريبها الى أكبر عدد من القراء — يختصر
هذه الموسوعة الكبيرة المسماة (صبح الأعشى) ويطلق على
هذا المختصر الأخير اسما جديدا هو : (ضوء الصبح المسفر
وجنى الدوح المشر) — علما منه بأن من القراء من يحتاج
الى قراءة الموسوعة ويصبر على قراءتها ، وأن من القراء
من لا يقوى على قراءة الموسوعة ولا يصبر على هذه
القراءة ، والرأى عنده دائما أن يعمل العالم حسابه لهاتين
الطائفتين من القراء في وقت معا .

أجل — لا يشك أحد في أن كتاب صبح الأعشى هو
أخطر كتب القلقشندي على الاطلاق ، وهو الكتاب الذى
يعرف به هذا الرجل عبر العصور ، ويذكر به دائما بين
المؤلفين في سائر الدهور ، فلا يمر اسم القلقشندي في مجال
من مجالات العلم والأدب الا على أنه (مؤلف صبح

الأعشى) وكفى . وقل من المثقفين بالثقافة العربية من يعرف أنه مؤلف نهاية الأرب ، أو قلائد الجمان ، أو شارح كذا وكذا من كتب الفقه ونحو ذلك .

وفي أوائل القرن العشرين طالعنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير والموسوعة العظيمة ، فهاهنا الناس جميعا ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم ومن الفائدة وشجع ذلك دار الكتب على المضى فى نشره بالطرق العلمية السليمة الى آخره .

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدى للثقافة العربية عن طريق نشر هذه الموسوعة العلمية الأدبية يدا لا يمكن أن تنسى .

واذ قد تمت مهمة نشر الكتاب على هذا الوجه فقد أصبح على الأجيال اللاحقة — كما قلنا ذلك فى التقديم — أن يعتمد الغيورون منهم على العلم الى تعريف جمهور المثقفين بهذه الموسوعة الخطيرة . وقد كان لى شرف هذه المهمة الأخيرة ومن ثم قصرنا جهودنا فى هذا البحث الذى بين يديك على عرض هذه الموسوعة ، وتحليلها تحليلا كاملا ، وبيان الأهداف التى تهدف إليها ، والأغراض التى كتبت من أجلها .

وقد أشرت فى تقديمى لهذه الموسوعة الكبيرة الى القراء للجهود العنيفة التى بذلها القلقشندى فى كتابتها . كما أشرت فى بعض الفصول التى تلت ذلك الى الأجواء العلمية

التي ظهر فيها كتاب (صبح الأعشى) وكان فيها هذا الكتاب
نوعا من الاستجابة لهذه الأجواء المشبعة بالعلم والأدب
والمعرفة .

مصادر الكتاب :

والآن — وقبل أن آخذ في عرض الكتاب وتحليله
للقراء — أرى أن أشير هنا الى بعض المصادر التي اعتمد
عليها القلقشندى في تأليف هذه الموسوعة .

والحق — اننى وجدت القلقشندى قد رجع في كتابه
الى طائفة كبيرة جدا من المصادر التي يصعب احصاؤها
أو المام بها . ولا تقل هذه المصادر في مجموعها عن مائة
مصدر . وقد تزيد على هذا العدد ، ومنها على سبيل
المثال — لا على سبيل الحصر — ما يلي :

ذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان .

حسن التوسل في صناعة الترسل لشهاب الدين محمود

الحلبى .

المثل السائر لابن الأثير .

كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري .

التذكرة لأبى الفضل الصولى .

كتاب الأم للشافعى .

العلم والدواة لمحمد بن على .

الملل والنحل للشهرستانى .

كتاب قوانين الدواوين لابن ممتى .

- العقد الفريد لابن عبد ربه .
- حياة الحيوان للدميري .
- أدب الكاتب لابن قتيبة .
- صناعة الكتابة لأبى جعفر النحاس .
- كنز الكتاب لكشاجم .
- البيان والتبيين للجاحظ .
- الأوائل لأبى هلال العسكري .
- الأحكام السلطانية للماوردي .
- تشریف الأيام بسيرة الامام الملك المنصور —
- لمحيى الدين بن عبد الظاهر .
- تقويم البلدان لصاحب حماء .
- المسالك والممالك لابن فضل الله العمري .
- عجائب المخلوقات لابن الأثير .
- فضائل العرب لابن أبى عبيدة .
- نزهة المشتاق للأدريسى .
- معالم الكتابة لابن شيث .

وذلك كله فضلا عن كتب أخرى كان لا يذكر القلقشندي مؤلفيها . مثل : الروض المعطار ، ومواد البيان ، والقانون ، وتاريخ النيل ، وكتاب الأطوال ، ورسم المعمورة ، وتاريخ صفد ، والهناء الدائم بمولد أبى القاسم ، والدر الملتقط ، وغير ذلك من الكتب التي كان يحتاج اليها المؤلف في كل

علم من العلوم التى عرض لها فى كتابه كعلم الجغرافيا والتاريخ والأنساب والأدب والكتابة ونحو ذلك .

(وبعد) — فهذا كل ما أمكن أن توحى به المصادر التى أشارت الى أبى العباس القلقشندى ، وهذه المعلومات التى تقدمها على قلتها قد تمد القارىء بصورة من حياة هذا الرجل الذى وقف حياته على العلم والأدب ؛ لم تشغله أعباء الوظائف الحكومية عن السير فى هذا الطريق بخطى ثابتة يكمل بعضها بعضا ، وتؤدى فى نهايتها الى هذه الكنوز العظيمة التى تركها لنا ، وهى الكنوز التى كان خليقا من أجلها أن يخلد فى التاريخ كما خلد الكثيرون من أمثاله .

غير أن ما قصرت فيه العصور السابقة استطاعت أن تنهض به العصور اللاحقة ، فيها نحن فى هذا العصر الحديث — وفى النصف الثانى من القرن العشرين — نصلح ما أفسدته القرون الغابرة ، وتنهض بما لم تنهض به الأزمان القديمة ، فنرد الأمر الى نصابه ، ونعطى الحقوق لمستحقها . ونحمد الله الذى جلت قدرته على أن وفقنا نحن المحدثين الى عمل كان من أوجب الواجبات على السابقين الأولين .

مقدمة صُبح الأعشى

الفصل الثالث

من وحي المقدمة

« كنا حين تؤرخ للكتابة العربية منذ العصور الاسلامية الأولى ، ونحاول أن نلتمس الأسباب التي من أجلها نهض هذا الفن لا نجد أقوى من هذا السبب الذي نرجع اليه قوة الكتابة العربية ، ونزد اليه نهضتها . ونعني به ديوان الانشاء .

والحق ان هذا الديوان هو الذي شجذ أقلام الكتاب من عهد عبد الحميد الكاتب في عصر بني أمية الى عهد سهل بن هارون ومن اليه من الكتاب في العصر العباسي الأول ، الى عهد ابن العميد والصاحب بن عباد في العصر العباسي الثاني ، الى عهد القاضي الفاضل ومحيي الدين بن عبد الظاهر في العصور الفاطمية والأيووية والمملوكية .

« واذا كان ديوان الانشاء من أقوى أسباب نهضة الكتابة خلال العصور الاسلامية التي أشرفا اليها فان شيئاً آخر أصبح سبباً في نهضة الكتابة العربية في مصر والشرق العربي في عصرنا هذا . وهذا الشيء هو الصحافة .

« من أجل ذلك ننظر الى ديوان الانشاء فى أكثره على أنه أداة رسمية ، كما ننظر الى الصحافة فى أكثرها على أنها أداة شعبية ، وشتان بين الأدوات :

« أما الأولى — وهى ديوان الانشاء — فقد صعدت بالكتابة العربية الى عليا درجات الجمال والزينة . وأما الثانية — وهى الصحافة — فقد وصلت بالنشر الحديث الى آخر درجات البساطة والرشاقة والوضوح والألفة والايناس والواقعية » (١) .

وكما نعنى نحن الآن بتاريخ الكتابة الصحفية منذ نشأتها وبالإشارة الى أصول هذا الفن الحديث ، وهو فن التحرير الصحفى . وكما نعنى كذلك بوصف الثقافات التى يجب أن يحصل عليها المشتغلون بالصحافة وبنوع الأخلاق والآداب التى تجب مراعاتها من جانب المتمرسين بهذه المهنة الشريفة فكذلك عنى القدماء بصناعة الانشاء . وإن كان من الحق أن نقول فى ضراحة وجلاء ان عنايتهم بصناعة الكتابة الديوانية ما زالت أقوى من عنايتنا نحن بتحرير الفنون الصحفية .

كانت هذه (أولى الأفكار) التى أوحى بها قراءتى لمقدمة (صبح الأعشى) . وهى مقدمة رائعة شغلت من الجزء الأول نحواً من مائة وأربعين صفحة !!

(١) عبد اللطيف حمزه : أدب المقالة الصحفية فى مصر .

الجزء الأول — الطبعة الثانية ص ٨٧ .

بدأها المؤلف بقوله : لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأتفعها .. لا سيما كتابة الانشاء التي لا يلتفت الملوك الا اليها ، ولا تعول في المهمات الا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها .. وكانت الديار المصرية .. أعز الله حماها ، وضاعف علاها .. لم يزل يعلو قدرها ، ويسمو ذكرها الى أن صارت دار الخلافة العباسية ، وقرار الملكة الاسلامية .. وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار ، وحوث من أهل الفضل والأدب بما لم يحو قطر من الأقطار .. استخرت الله في كتابة هذا التاريخ الخ » .

أما (الفكرة الثانية) التي أوجت بها قراءة المقدمة فهي الفكرة الخاصة :

بطريقة التأليف

أشار المؤلف في مقدمته الى الذين سبقوه تأليفا في موضوع كتابه هذا . فقال ان هؤلاء المؤلفين فرق مختلفة :
١ — فرقة عنيت بأصول هذه الصناعة التي هي صناعة الانشاء .

٢ — وفرقة جنحت الى ذكر المصطلحات التي أتفق عليها أهل هذه الصناعة وبيان الغرض منها .

٣ — وفرقة قصرت عنايتها على عرض النماذج الانشائية

ليقتبس منها من يطالعها ويتخرج عليها من يمعن النظر فيها ،
ثم قال انه لم يظفر بكتاب يجمع كل هذه الأغراض .
والحق ان هذه طرق ثلاث هي كل ما يستطيع المؤلف
أن يسلكها في تأليف مثل هذه الكتب . وفي وسعه — لو أراد
ذلك — أن يجمع بينها . وهذا ما فعله أبو العباس
القلقشندي !

• على ان فن الانشاء من الفنون الوثيقة الصلة جدا بفن
القول أو « البلاغة » . ونحن نعلم « ان درس البلاغة العربية
منذ ظهورها كان على مذهبين :

أولهما — البلاغة على طريقة العجم وأهل الفلسفة .
والثانية — طريقة العرب الذين لاحظ لهم من الفلسفة .
كان القدماء يدركون هذين المذهبين . وينقسمون في
درس البلاغة العربية هذين القسمين « وافتخر أحدهم
— وهو السيوطي — بأنه انما درس البلاغة على المذهب
الثاني ، فقال عن نفسه : ورثت التبخر في سبعة علوم هي :
التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبديع
— وذلك على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم
وأهل الفلسفة » .

ومعنى ذلك أن الطريقة الأولى — وهي طريقة العجم
على حد قولهم — كانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى العلم ،
وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية ، وتشرح الغرض منها
وتفلسف هذا الشرح .

أما الطريقة الثانية — وهى طريقة العرب — فكانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى الأدب المحض ، وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق . ومن ثم كانت تجنح هذه الطريقة الى الاقلال من الأصول ومن القواعد ومن ذكر المصطلحات البلاغية والاكتثار بدلا من ذلك من ذكر الشواهد والأمثلة .

وقد لاحظ التاريخ ان الطريقة الأولى قد امتاز بها نفر من الكتاب والبلغاء الأوائل ممن كانوا يحذقون الثقافة اليونانية ويعيشون فى بيئة من بيئات الشرق البعيد كإيران وفارس وسمرقند والعراق .

كما لاحظ التاريخ ان الطريقة الثانية انما امتاز بها نفر من الكتاب والبلغاء الذين عاشوا فى بيئات من الشرق القريب كمصر والشام مضافا اليهما بلاد المغرب والأندلس . والذى رأيناه عند أبى العباس القلقشندى أنه جمع بين هاتين الطريقتين معا ، وان كانت عنايته بالطريقة الثانية من الوضوح بحيث لا ندع مجالا للشك فى مصريته وعروبه وجنوحه الى طريقة العرب .

وتلك هى الفكرة الثانية التى أوجت بها قراءة المقدمة .

أما (الفكرة الثالثة) التى أوجت بها قراءة المقدمة فانها تتصل بتقسيم الكتاب وتبويبه وتنسيقه بطريقة خاصة . فقد جعل الكتاب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وفكرة

التقسيم في ذاتها تدل على عقلية مصرية خالصة اشتهر بها كتابنا المصريون منذ القدم ، فرأيانهم يعتمدون في تصنيف كتبهم على طريقة التقسيم والتبويب والمبالغة في هذا التقسيم والتبويب ، وذلك بخلاف غيرهم من كتاب الشرق البعيد مما يصرفهم التعمق في الفكرة أحيانا عن النظر في تنسيق مؤلفاتهم على هذا النحو .

وبنفس هذه الطريقة وجدنا العلماء الذين ينسبون الى عصر القلقشندي يؤلفون الكتب أو الموسوعات التي خدموا بها الثقافة ، ومن هؤلاء : النويري (أحمد بن عبد الوهاب) صاحب كتاب نهاية الأرب في ثلاثين جزءا ، وابن فضل الله العمري (شهاب الدين أبو العباس) صاحب مسالك الأبصار في أربعة عشر جزءا . وحذا حذو هؤلاء في التأليف بعد القلقشندي كل من المقرئزي والسيوطي وغيرهما من كتاب الموسوعات التي تحدثنا عنها في أول الكتاب .

نعم — جرى أبو العباس على خطة دقيقة كل الدقة في تقسيم كتابه ، وذلك نظرا لضخامة هذا الكتاب الذي كان طليقا باسم « موسوعة » ، وإذا جاءت الموسوعة على هذا التقسيم الدقيق أمكن الانتفاع بها والرجوع إليها عند الحاجة .

وسنضرب لهذا مثلا واحدا يغني عن أمثلة كثيرة :

(في المقالة الأولى) تحدث القلقشندي عما يحتاج اليه

الكاتب من المواد فجعلها في باين كبيرين .

أولهما — ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العلمية ..

وثانيهما — ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العملية ..

ثم عمد الى الباب الأول فقسمه الى ثلاثة فصول :

١ — ما يحتاج الكاتب الى معرفته على وجه الاجمال .

« وصاحب هذه الصناعة كما يقول ابن الأثير يحتاج

الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة

ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس

والى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة . فما ظنك

بما فوق هذا وذاك ؟

٢ — ما يحتاج اليه الكاتب من الأدوات . وقد ذكر

المؤلف منها تسعة عشر نوعا هى جماع الثقافة العربية

وعناصرها المختلفة كالشعر ، والقرآن ، والحديث ، والحكم ،

والأمثال ، وكلام الخطباء ، ورسائل البلغاء ، الى آخر ذلك

مما سيأتى ذكره .

٣ — ما يحتاج اليه الكاتب من معرفة الأزمنة والأيام

والشهور والسنوات والمواسم والأعياد .

وانتقل أبو العباس بعد ذلك الى الباب الثانى

— وموضوعه الأمور العملية — فقسمه الى أربعة فصول :

١ — فى ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله .

٢ — فى الكلام عن الخط نفسه .

٣ — فيما يتصل بالخط من النقط والضبط والشكل .

٤ — فى مصطلح الخط . وهكذا .

وتحت كل فصل من هذه الفصول السابقة كلها يأتي
القلقشندى بالأنواع فيقول النوع الأول ، والنوع الثاني
وهكذا وتحت كل نوع منها يأتي بالجمل فيقول الجملة
الأولى والجملة الثانية وهكذا .

أليست هذه هي نفس الطريقة المتبعة في معاجم اللغة
العربية (كالمحيط) للفيروزبادى و (كاللسان) لابن منظور .
وأنت تعلم أن كلا منهما قسم المادة التى تشتمل عليها اللغة
للعربية إلى أبواب حسب أواخر الكلمات ، ثم قسم كل
باب إلى فصول بحسب أوائلها ؟

الفصل الرابع

آداب مهنة الكتابة

تحدث إليك أيها القارئ عن طائفة من الأفكار التي استوحيتها من قراءة المقدمة ، وهي أفكار دعتني الى تقدير القلقشندي والنظر اليه على أنه واحد من أولئك الرواد الذين اشتركوا في بناء الثقافة الاسلامية ، وهي ثقافة عربية كان « فن الكتابة والتحرير » من أقوى أعمدتها وأمضى أسلحتها . وكان هذا الفن أكبر برهان على أنها ثقافة خليقة بالاعجاب والخلود .

والآن أريد أن أحدثك أيها القارئ بعد ذلك فيما اشتملت عليه المقدمة نفسها وقد جعلها المؤلف خمسة أبواب :

- الأول — في فضل الكتابة ومدح أفاضل الكتاب .
- والثاني — في ذكر مدلول الكتابة وبيان معنى الانشاء وترجيح النشر على الشعر .
- والثالث — في بيان آداب الكتابة وصفات المكاتب .
- والرابع — في تاريخ ديوان الانشاء منذ نشأته الى زمان المؤلف .

وهكذا عالج القلقشندي في مقدمته أموراً كثيرة أعطى كل واحد منها ما يستحقه من البحث والعناية ، وسمى كل ذلك (مقدمة) مع انها خليفة باسم (كتاب) فلها في الواقع جميع سماته ومميزاته وما يعرفه الناس من مقوماته . وقد لا يعيننا في زماننا هذا من الأبواب الخمسة المتقدمة غير بابين :

أولهما : الباب الذي يتحدث فيه المؤلف عن آداب الكتابة .

وثانيهما : الباب الذي يشير فيه الى تاريخ ديوان الانشاء .
ولنبداً بالأول :

صفات الكاتب وآداب مهنة الكتابة :

ذكر لنا القلقشندي رأى من قال ان الكتابة صناعة روحية لا تتم الا بآلة مادية لتدل على معنى من المعاني امتلا به ذهن الكاتب . والمقصود (بالروحية) هو الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في وهمه ، ويضم بعضها الى بعض في ذهنه ليؤلف منها صورة باطنة تقوم في نفسه . والمقصود (بالمادية) هو الخط الذي يخطه الكاتب بقلمه ، ويعيد به الصورة القائمة في ذهنه حتى تصبح صورة محسوسة ظاهرة بعد أن كانت صورة باطنة .

وفي رأى القلقشندي ان الكتابة وان كثرت أنواعها وتعددت أشكالها لا تخرج عن أصليين هما : كتابة الانشاء

وكتابة الأموال ، الا أن العرف جرى على تفضيل الأولى على الثانية وذلك لما تحتاج اليه الأولى من زيادة العلم والثقافة وغزارة الأدب والفضيلة ، وذكاء العقل والقريحة ، وذلك فضلا عن جودة الرواية والقدرة على التصرف والتنوع في التعبير واختراع المعاني .

صفات الكاتب :

وتحدث القلقشندي بعد ذلك عن صفات خاصة في الكاتب ، وعدّ من هذه الصفات عشرة هي :

صفة الاسلام (وان كان قد عدل عنها بعد ذلك حين رأى كاتباً كالصابي من الصابئة في العصر العباسي ، وآخر كآبي مقصور بن سورددين النصراني كاتب العزيز بالله الفاطمي وغيرهما) .

وصفة الذكورة ، وصفة الحرية (بمعنى أن يكون الكاتب حراً لا مملوكاً لغيره) .

وصفة التكليف (بمعنى أن يكون رجلاً لا قاصراً ولا صبياً) .

وصفة الاستقامة ، وصفة البلاغة ، وصفة العقل ، وصفة الهمة وشرف النفس ، وصفة العلم ، وصفة الكفاءة ، لأن غير الكفاء من الرجال يضر بالمملكة ويوهن قوى الدولة .

هذا كله فضلاً عن صفات أخرى ، منها أن يكون الكاتب قوى النفس ، حاضر البديهة ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، جرىء الجنان ، ظاهر الأمانة ، عظيم النزاهة ، كريم

الخلق ، مأمون العائلة ، مؤدب الخدم ، مليح الزى ، عطر
الرائحة ، تظهر عليه النعمة ، ويصدق فيه وفي أخواته قول
الشاعر يصف الخمر :

وشمول كأنما اعتصروها

من معانى شمائل الكتاب

آداب الكتابة :

وأفاض القلقشندي بعد ذلك في ذكر آداب الكتابة
فقال انها على ضربين :

الأول — حسن السيرة .

الثاني — حسن المعاشرة .

وتحت (حسن السيرة) نجد مجموعة من الأخلاق
الكريمة ، وعلى رأسها تقوى الله في السر والعلن ، وقصد
الآخرة في كل ما يصدر عن الكاتب من رأى وعمل ، ثم البعد
عن مواطن الشبهات والريب ، ولزوم العفة في كل ما يتصل
بالأمير من أشغال ومهام ، والاعتدال في طلب اللذة
والاكْتفاء منها بما يقيم المروءة ، وذلك بالطرق المحمودة
لا الطرق المذمومة ، فإن هذه الأخيرة لا تناسب قدر الكاتب
ولا تتفق ومنزلته من السلطان أو منزلته من الرعية .

ومن هنا أوجب المؤلف على الكاتب أن يتحلى بصفات
جلیلة منها ما يأتي :

(صفة الاخلاص) فان من صحب السلطان بقصيدة

مدخولة في ولايته مشوبة في محبته لم ينتظم له ولا للسلطان أمر .

(صفة النصيحة) لأن السلطان ائتمنه على نفسه
وملكه ، فلا ينبغي أن يستتر عنه دقيقا ولا جليلا من أحوال
الپرعية ، ومنها :

(كتمان السر) وهو من أفضل الآداب في صحبة
السلطان ورجال الديوان ، ولا يدخل الضرر أو الخلل على
أمة من الأمم ، أو حكومة من الحكومات الا بتفريط بطاقتها
في أسرارها وإذاعة أمورها . ومنها :

(صفة الشكر) لأن المرء قد يقوى على مكافأة صاحبه
أو قريبه ولكنه لا يقوى على مكافأة أميره أو سبطانه ، وانما
طريق هذه المكافأة واحد فقط هو الشكر لنعمته والمحافظة
على حقوق خدمته ، غير ان الاكثار من الشكر يدخل في
حكم الملق . فليظهر شكر المرءوس لرئيسه عن طريق الأفعال
لا الأقوال . ومنها :

(صفة الوفاء) وهو رأس مال الكاتب ، وضمان تقدمه
في عمله ، وكما يظهر وفاء الكاتب في حال صعود السلطان
ومهادنة الزمان فكذلك يظهر وفاءه في حال سقوطه وانصراف
الدولة عنه . ومنها :

(عدم الادلال على السلطان بخدمة أداها له الكاتب)
اذ الدالة على السلطان أو الرئيس من أعظم مصارع التلف .
وبسببها هلك من هلك من بطانة السلطان ووزرائه وأعوانه
وخاصته . ومنها :

(حسن اختيار الوقت الذى يصلح للعرض أو الطلب)
ويتبع ذلك بطبيعة الحال أنه يجرى الكاتب مجرى رئيسه
أو سلطانة فى الحالة التى يراه عليها ، فان مال الى الانسباط
أطلق عنانه فيه . وان أظهر الانقباض ذهب مذهبه أيضا .
ويختتم القلقشندى حديثه عن هذه الآداب بصفة من
الصفات الهامة فى نظره وهى صفة :

(حسن الوساطة) فيقول ما معناه : ينبغى للكاتب أن
يتوسط لمرءوسيه عند أميرهم أو سلطانهم ، وعليه أن يتجنب
القدح فى أكفائه ونظرائه ليكون ذلك داعيا الى محبته
والوثوق به وامساك الألسنة عن الطعن فيه .

وتحت العنوان الثانى وهو (حسن المعاشرة) قال
المؤلف انها على خمسة أضرب :

أولها — معاشرة الملوك والعظماء .

ثانيها — معاشرة الأكفاء والنظرء .

ثالثها — معاشرة الأتباع والمرءوسين .

رابعها — معاشرة الرعية على وجه العموم .

خامسها — معاشرة من يمت للكاتب بضلة أو بحرمة

مهما كان نوعها .

أما معاشرۃ الملوك والعظماء :

فانها معاشرۃ محفوفة بالخطر دائما ، ذلك أن صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب ^(١) . والزمان — وان عمّ بنوآئمه ومصائبه — فانه يخص السلطان منها بما يزيد على نصيب سواه .

وأما معاشرۃ الأكفاء والنظراء :

فيكفي أن يقال منها (الكتابة نسب) والله در الشاعر الذي قال في هذا المعنى :

ألا يكن نسب يؤلف بيننا

أدب أقمناء مقام الوالد ^(٢)

قال المؤلف : واذا كنا نحفظ من متّ إلينا بالأنساب الجسمانية التي لا تعارف بينها فأولى أن نحفظ من متّ إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف ، ولذا قال الحسن بن وهب : « الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة » .

وأما معاشرۃ الأنباع :

فانها لاحقة بمعاشرۃ الأكفاء والنظراء ، وأتباع الكاتب وان كانوا أصحابه ومرءوسيه الا أن اسم الكتابة يجمع بينهم ، فينبغي أن يخصهم بالقسم الأكبر من اكرامه

(١) هذه العبارة لابن المقفع ، ولم ترد في كلام المؤلف في هذا الموضع .

(٢) هذا البيت لأبي تمام ، ولم يرد في كلام القلقشندي .

والنصيب الأوفر من اهتمامه حتى يجعل خدمتهم له خدمة
ود ومحبة لا خدمة خوف ورهبة . ولهؤلاء الأتباع على
رؤسهم حقوق ثلاثة هي : حق الترقية كلما وجد الرئيس
اليها سبيلا ، وحق الراحة التي تصفو بها أذهانهم ويزول
بها عناؤهم ، وحق المساعدة التي تجذب نفوسهم لأن القلوب
مجبولة على حب من أحسن اليها .

وأما معاشرة الرعية :

فهو أمر على جانب كبير من الخطورة ، اذ لا يطيب
لأحد عيش مع بغض الرعية له ونفورهم منه ، وإن علت عند
السلطان رتبته وارتفعت طبقته وظن بنفسه الاستغناء عنهم .
وأما معاشرة من يمت للكاتب بحرمة :

كحرمة الجوار وحرمة المعسرة ، وحرمة الصداقة ،
وحرمة الغرابة ، وحرمة المطاعمة ، فعلى الكاتب أن يوقهم
حقوقهم ، ويعينهم على نوائب زمانهم ، ويساعدهم في بلوغ
مطالبهم من سلطانهم .

قال المؤلف : ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف
حقوق أساتذته في صناعة الكتابة ، ومشايخه الذين فتحوا
له أبوابها وذلّلوا له سبلها ، فمن آفات صناعة الكتابة ان
القاصر فيها لا يمتنع من ادعاء منزلته المتقدم فيها ، بل لا يعفيه
من ادعاء التقدم في الفضل على هذا الأستاذ الذي ميزه الله
بالسبق (والله يعلم المصلح من المفسد) .

هكذا تحدث القلقشندى عن أخلاق الكاتب وآداب الكتابة معتمدا في هذا الحديث على أقوال الذين سبقوه الى الكلام في هذا الموضوع الجليل كابن حاجب النعمان ، وكصاحب مواد البيان ، وكشهاب الدين الحلبي ، وكصاحب المثل السائر ، وكأبى هلال العسكري ، وكابن ممتاى ، وكرجل يقال له ابن خلف — ولا نعرف نحن عن هذا الأخير شيئا .

ولكن كم كان القلقشندى بارعا وأميناً في نفس الوقت حين أشار الى الأستاذ الأول لقن الكتابة العربية وهو عبد الحميد الكاتب — فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة في رسالته التى عنوانها « الى الكتاب » والتى أولها :

« أما بعد — حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطبكم ووفقكم وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس — بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وبعد الملوك المكرمين — أصنافا ، وان كانوا فى الحقيقة سواء .. فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية .. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون . فليس أحد أحوج الى اجتماع خلال الخير المحموده ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها

الكتاب .. فتناقشوا معشر الكتاب في صنوف الآداب ،
وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، ثم
بالعربية فانها ثقات ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فانه حلية
كتبكم ، وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام
العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على
ما تصبو اليه هممكم . وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم
وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبيل
من سلفكم .. الخ .

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب جميلة ومعروفة
وهي من عيون النثر العربي الى يومنا هذا . ثم هي جُماع
الأخلاق والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الكتاب قديما
وحديثا . وقد أفرد لها القلقشندي نحو من خمس صفحات
من كتابه لأنه حرص على أن ينقلها للقارئ كاملة غير
منقوصة .

والآن وقد انتهينا من آداب الكتابة وجب أن ننقل منها
الى تاريخ ديوان الانشاء .

الفصل الخامس

التعريف بديوان الإنشاء

اتفق الباحثون الى زمان القلقشندي على أن «ديوان» لفظ فارسي معرب . وحكى الماوردي في كتابه (الأحكام السلطانية) في تفسير هذا اللفظ وجهين ذكرهما من قبيل التفكه :

الأول — ان كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه في مكان لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجائين فسمى موضعهم بهذا الاسم من حينئذ .
والثاني — ان « الديوان » بالفارسية اسم للشياطين وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلى منها والخفى .

أما « الانشاء » فمصدر أنشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأه واخترعه .
وكان ديوان الانشاء في الزمن المتقدم يعبر عنه « بديوان الرسائل » ثم عبر عنه بعد ذلك « بديوان المكاتبات » .
ثم غلب عليه آخر الأمر اسم « ديوان الانشاء » وبقي على ذلك .

وأول كتب وضعت في الاسلام كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام . ومنهم النجاشي ملك الحبشة ، وكسرى ابرويز ملك الفرس ، وهرقل ملك الروم ، والمقوقس صاحب مصر وغيرهم .

وأما (ديوان الجيش) فأول من رتبته أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . والثابت في التاريخ انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وثلاثون كاتباً منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم كان لكل واحد من الخلفاء الأربعة الراشدين كتاب أيضاً ، ثم كانت دولة بنى أمية فأصبح أمر ديوان الانشاء في زمن كل خليفة من الخلفاء الى واحد من أفاضل الناس يعينه الخليفة . واستمر الحال على ذلك الى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان يكتب له عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

وحين بزغت شمس الخلافة العباسية في العراق استوزر أبو العباس السفاح أبا سلمة الخلائل فكان أول من لقب بالوزارة في الاسلام كله .

وأما مصر فلديوان الانشاء بها خمس مراحل :

الأولى — منذ الفتح الاسلامي الى بداية الدولة الطولونية .

الثانية — من بداية الدولة الطولونية الى نهاية الدولة الأخشيدية .

الثالثة — من بداية الدولة الفاطمية الى انقراض هذه الدولة .

الرابعة — من قيام الدولة الأيوبية الى نهايتها .

الخامسة — من قيام دولة المماليك الى زمان المؤلف .

« هؤلاء الوزراء — أو الكتاب — كان لهم من هذه الناحية التى تعنينا الآن وهى ناحية أنهم أرباب الأقلام — أعوان يسمّون الكتاب . فقد كان لكل وزير كاتب بل كتاب يعينونه . ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب كذلك وهكذا .

» .. وكانت هذه الطائفة — طائفة الكتاب — تؤلف وحدة على رأسها الوزير . ثم تتدرج فى الرقى الى الوزارة معتمدة على كفايتها وبلاغتها .

« وكان الكتاب (فى خلافة بنى العباس) فرسا يحتذون حذو أجدادهم من الفرس ، حتى فى مظاهرهم الخارجية . روى الجهشيارى ان الفضل بن سهل ذا الرياستين كان يجلس على كرسى مجنح ويحمل فيه اذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فاذا وقعت عليه وُضع الكرسى ونزل عنه الفضل ومشى وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود فيقعده عليه .

« بل أن تكون الكتاب كطبقة ليس الا تقليدا للنظام الفارسى . فالجهشيارى يقول : كان من رسم أن يلبس أهل

كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد في غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو منها (١) .

ثم في مصر أصبح للكاتب الأول أو الوزير شأن جد خطير ، ويكفى أن نستحضر في أذهاننا صورة رجل كالقاضي الفاضل وزير الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي كيف انتهت اليه رئاسة الأدب والعلم والسياسة والكتابة في زمانه ، وكيف كان شخصية ضخمة اتسعت للعصر الأيوبي كله وكانت أوضح مثل لحضارة ذلك العصر وثقافة الصفوة المهذبة من أهله .

أوضح لنا القلقشندي كل ذلك ونقل لنا من أقوال السابقين في وصف المكانة التي يتمتع بها كاتب الديوان قول مؤلف « مواد البيان » :

« ليس في منزلة خدم السلطان أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه ، والإفضاء اليه بمهامه ، وتقريبه من نفسه من آناء ليله وساعات نهاره ..
لقاب صاحب الديوان :

أفاض القلقشندي بعد ذلك في ألقاب صاحب الديوان منذ نشأته الى العصر المملوكي .

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام . الجزء الأول . ص ١٦٩ .

كان في الدولة الأموية يلقب (بالكاتب) . ثم جاءت الدولة العباسية فلقب (بالوزير) وترك اسم الكاتب . وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل كما كان ذلك في الزمن الأول لقب (بصاحب ديوان الرسائل) أو (صاحب ديوان المكاتبات) . وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الانشاء — كما في زمان المؤلف — لقب (بصاحب ديوان الانشاء) . قالوا : وكانوا يلقبونه في الدولة الفاطمية « بكاتب الدست » وانتهى الأمر الى أوائل الدولة التركية ، فتارة يلقب « بكاتب الدست » وتارة يلقبونه « كاتب الدرنج » . وفي أيام المنصور قلاوون لقب « بكاتب السر » . والعامية يدلون الباء من كاتب السر فيقولون (كاتم السر) .

اختصاصات كاتب الديوان :

يختص كاتب الديوان باثني عشر أمرا وهي : التوقيع على الرسائل والشكاوى ، والنظر في الكتب الواردة عليه واعداد الأجوبة عن هذه الكتب . والنظر فيما تتفاوت به الرتب في الرسائل والمكاتبات من الافتتاح والدعاء والألقاب ونوع الورق وقطعه ونحو ذلك . والنظر في كل ما يخرج من الديوان من مكاتبات وتصفحها قبل خروجها ، والنظر في أمر الديوان وهو من أعظم مهمات السلطان . وأوثق روابط الملك (وسيأتي الكلام عن ذلك فيما بعد) ، والنظر في أمر أبراج الحمام ، ولهذا الأمر أهمية خاصة بالنسبة

للعصور التي تتحدث عنها ومنها عصر المؤلف . والنظر في
أمر الطائفة المعروفة (بالاسماعيلية) وهم فرقة من الشيعة
كانوا مصدر خطر كبير على الدولة منذ سقوط
الفاطميين ومجيء صلاح الدين الأيوبي وأولاده من بعده
ثم مجيء المماليك . والنظر في أمور القصاد (وهم حملة
الرسائل السلطانية أو السعاة الذين يحملون هذه الرسائل)
والنظر في الأمور العامة فيما يعود تقع على السلطان
والمملكة حتى اذا انتهى الى صاحب الديوان خبر يتعلق
بجلب منفعة الى المملكة أو دفع ضرر اطلع السلطان عليه
في أسرع وقت وأعجله قبل فوات الفرصة .

تحدث القلقشندي بعد ذلك عن نظام ديوان الانشاء
فقال انه يتألف من صاحب هذا الديوان ومن سبعة كتاب
يظهر انهم رؤساء أقلام أو كتاب آخري من دونهم وهكذا :
وكاتب يكتب المكاتبات الخاصة بالولايات .

وكاتب يكتب للملوك والسلاطين .

وكاتب يكتب لأهل الدولة وكبرائها ووجوهها .

وكاتب يكتب المناشير .

وكاتب لتبويض ما ينشئه المنشئون في الديوان .

وكاتب يراجع ما يخرج من الديوان من مكاتبات .

وكاتب خاص بالتذاكر والدفاتر المتعلقة بالديوان .

والى جانب هؤلاء الكتاب (أو قل هذه الأقلام)

يوجد اثنان .

أحدهما — الخازن للمكاتبات أو المسجل لها مؤرخة
بتواريخ صدورها أو ورودها .

وثانيهما — الحاجب الذي يقف بباب صاحب الديوان
لا يمكن أحداً من سائر الناس من الدخول إليه إلا بإذن منه .
قال القلقشندي :

وأما ما استقر عليه الحال في زماننا هذا فكتاب الديوان
على طبقتين :

الأولى — كتاب الدست . وهم الذين يجلسون مع
رئيس الديوان أو كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل
على ترتيب منازلهم على حسب السبق ^(١) وهؤلاء أحق
كتاب السلطان باسم الموقعين لتوقيعهم على القصص (أى
الشكاوى التى ترد من الرعية) .

والثانية — طبقة كتاب الدرج . وهم الذين يكتبون
ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، ونحو ذلك من
المكاتبات والتقايد والمراسيم والمناشير ، وسموا كتاب
الدرج لكتابتهم فى دروج الورق ، والدرج هنا هو الورق
المستطيل المركب من عدة أوصال متلاصقة تبلغ العشرين
وصلا فى المعتاد .

قال القلقشندي : وكما زاد كتاب الدست حتى خرجوا
عن الحد فكذلك زاد كتاب الدرج حتى وصلوا الى مائة
وثلاثين كتابا .

(١) الأقدمية بلغتنا الحاضرة .

المقالة الأولى

الفصل السادس

ثقافة كاتب الإنشاء

تحدث القلقشندى فى (المقالة الأولى) وجزء من (المقالة الثانية) عن ثقافة كاتب الانشاء ، واستغرق هذا الحديث بعض المجلد الأول وكل المجلد الثانى وبعض المجلد الثالث - وذلك فى نحو اثنتين وستين وخمسمائة صفحة من صفحات موسوعة (صبح الأعشى) .

فما الأفكار التى اشتملت عليها كل هذه الصفحات ؟ وما العلوم التى أشار اليها ؟ وما الطريقة التى شرح بها المؤلف كل علم من هذه العلوم ؟ ان علينا أولا أن نعطى القارىء فكرة عامة عن ثقافة الكاتب كما رسمها مؤلف صبح الأعشى ، ولنا بعد ذلك أن نتقل من العموم الى الخصوص فنقف ووقتات طويلة عند المهم فقط من عناصر هذه الثقافة . وذلك بالقياس الى القارىء الحديث لا القارىء القديم .

سبق أن أشرت الى أن كتاب الموسوعات كانوا يبنون موسوعاتهم على خطة التقسيم الدقيق الذى يعين القارىء

على الوصول الى ما يريد من المعلومات التى تشتمل عليها الموسوعة ، وذلك بنفس السهولة التى يصل بها القارئ الى معرفة ما يحتاج اليه من مواد اللغة عن طريق القواميس أو المعاجم . ومن هنا جاءت مبالغة أصحاب الموسوعات فى الأخذ بنظام التقسيمات العامة تتدرج تحتها تقسيمات أخص منها وهكذا .

ولقد نظر أبو العباس الى ثقافة الكاتب الديوانية على أنها قسمان كبيران هما :

١ — ما يحتاج اليه من الأمور العلمية .

٢ — ما يحتاج اليه من الأمور العملية .

فاما الثقافة العلمية :

فتألف من عدة عناصر من أهمها ما يلى :

أولا — علوم العربية : كاللغة ، والنحو ، والصرف ، والمعاني ، والبيان ، والبيدع ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وخطب الخطباء ، ورسائل البلغاء ، وقصائد الشعراء ، وأمثال الحكماء .

ثانيا — معرفة أنساب العرب والعجم ، أيام هؤلاء وهؤلاء ووقائعهم ومفاخرهم ، والوقوف على عادات العرب فى الجاهلية وما بقى من هذه العادات فى الاسلام .

ثالثا — تواريخ الأمة العربية وتواريخ الأمم الأخرى والاهتمام التام بتاريخ الخلافة الاسلامية ونظمها ووظائفها وأحكامها وأعيادها ومواسمها ، والدول التى اشتملت عليها

ودراسة كل دولة من هذه الدول على حدة مع العناية
الخاصة بالديار المصرية والتاريخ لهذه الديار في الجاهلية
والاسلام ، وتتبع العصور الاسلامية التي تعاقبت عليها ابتداء
من عصر الولاة فعصر بنى طولون ، وعصر الأخشيدين
فالفاطميين فبنى أيوب فعصر المماليك .

رابعا — الثقافة الجغرافية — أو علم (المسالك
والممالك) كما سماها علماء ذلك العصر بهذا الاسم .
خامسا — الامام باللغات الأعجمية كالفارسية والرومية
(اليونانية) والسريانية والعبرية وغيرها من لغات الأمم
التي لها صلة بما بدول الاسلام .
سادسا — فن الوصف :

ونريد أن نشرح المراد هنا بهذا الفن شرحا لا نحتاج
بعده الى الرجوع اليه . والمقصود بهذا الفن كل ما يحتاج
اليه الكاتب من أوصاف الرجال والنساء ، وما يشترك فيه
الجنسان من الصفات ثم أوصاف الحيوان والدواب
وخاصة الخيل بأنواعها الثلاثة المعروفة (العرب ،
والعجميات ، والمولدة من هذه وتلك) . كما يتصل بهذا
الفن معرفة عيوب الانسان والدواب وأوصاف الضواري
والوحوش ويدخل في باب الوصف كذلك كل ما يتصل
بالطير مثل العقاب والبازى والصقر والطيور التي يستعان
بها في الصيد ورمية البندق كالحمام الكركى والأوز واللفلغ
والجبارى (بضم الحاء) والنعام والقطا والدراج والبلبل

والشحرور والسمانى ، والطاووس والبيغاء والهدهد
وأبى رزيق وأبى خطاف والحدأة والغراب والخفاش الخ .
أما الحمام فقد غنى به .

كما يحتاج الكاتب في هذا الباب الى معرفة أوصاف
الآلات على اختلافها ومنها الآلات التى يستخدمها الملوك
في مواكبهم كالخاتم والتخت والمظلة والفاشية (سرج الفرس
مزركشة بالذهب) والأعلام والرايات والجفناة (بكسر
الجيم — وهما فرسان أشهبان يعلوهما مملوكان متشابهان
على رأس كل منهما قبعة من زركش) وكالطبول والبوقات
وما إليها .

ويحتاج الكاتب كذلك الى معرفة آلات الركوب مثل
السرج واللجام والكنفوش (وهى ما يستر به مؤخر
الفرس) والمهماز والرحل والزمام والركاب والسوط .
ويحتاج الكاتب الى معرفة آلات السفر كالخيام
والمشاعل والأثاثى والحركة (وهى بيت من خشب مغطى
بالجوخ تحمل فى السفر مع الخيمة للمبيت) .

ويحتاج الكاتب أيضا الى معرفة آلات السلاح كالسيف
والرمح والقوس والنشاب والكنانة والدبوس والعصا
والمغفر والدرع وأوصاف كل آلة منها على حدة .

ولابد للكاتب من معرفة آلات الحصار كالمنجنيق
ومكاحل البارود وآلات الوقاية وأوصاف هذه الآلات .
وهناك الموازين وأنواعها وأوصافها ..

وهناك آلات اللب كالنرد والشطرنج ونحوها ..
وهناك آلات الطرب كالعود والرباب والدف والجناك
والشبابة .

ثم لا غنى للكاتب فوق كل ذلك من معرفة الأحجار
النفيسة كاللؤلؤ والياقوت والحجر المسمى بلخس (بفتح
اللام وسكون الخاء) والماس والزمرد والفيروزج والبللور
والمرجان والعقيق . ومعرفة صفات كل حجر على حدة
وخصائصه وميزاته ومواطن استخدامه والانتفاع به .
لا غنى للكاتب أخيرا عن معرفة الطيب بجميع أنواعه
كالمسك والعنبر والعود والصندل والوقوف على أوصاف
هذه الأنواع والجهات التي ترد منها .

تلك عناصر الثقافة العلمية التي لا بد لكاتب الانشاء
أن يلم بها وأن يعرف كيف يستخدمها في الوقت المناسب .
فلننتقل من ذلك الى :
الثقافة العملية :

فقوامها أشياء من أهمها ما يلي :
أولا — معرفة فن الخط ، وهو من ألزم الفنون لكاتب
الانشاء في عصر لم يكن يعرف الطباعة الحديثة ، وعصر
كان الاعتماد فيه على فن الخط . فلا غرابة بعد ذلك أن
نرى أبا العباس القلقشندي يعنى عناية تامة بهذا الفن .
ويكتب فيه نحو من ثلثمائة صفحة من صفحات هذه

الموسوعة يتناول فيها هذا الفن من جميع وجوهه ، ويصف لنا جميع أدواته وصوره وأشكاله . ويحسبنا هنا أن نشير الى بعض عناوات الفصول التى كتبها أبو العباس فى هذا الموضوع الجليل :

فصيلة الخط : تاريخ الخط العربى . تحسين الخط . هندسة الحروف . تنقيط الحروف . هيئة امساك القلم . كيفية استخدام الدواة . وضع القلم على الدرج (يريد الورق) . كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة . تناسب الحروف ومقاديرها فى كل قلم . الترويس (أى كتابة رءوس الموضوعات) . أنواع الأقلام المستعملة فى ديوان الانشاء . الصورة التى يختص بها كل حرف من حروف المعجم . ضبط الكلمات بالشكل . الحروف المفردة . الحروف الموصولة بغيرها . صورة كل حرف من هذه وتلك على حدة .

نظن أن القارى الحديث يريد أن نعلمه من الاسترسال مع المؤلف فى هذا الفن الذى كان الكتاب فى زمانه يتنافسون فيه تنافسهم فى ميدان البلاغة وميدان الأدب وميدان التاريخ ونحو ذلك .

ومعلوم انه فى العصور الحديثة ظهرت المطبعة وقلت العناية منذ ذلك الوقت بفن الخط الذى هو من أجمل فنون العرب ولم يزل الى يومنا هذا من أجملها فى الحقيقة . غير أن العناية به أصبحت محصورة بين (الخطاطين) الذين

تعتمد عليهم الصحف الى اليوم ، والفنانين الذين يحدثون
من الخط العربي بأنواعه الكثيرة فنونا تشكيلية كثيرة تحلّى
بها المساجد ونحوها من الأبنية ذات الطراز العربي
المعروف .

الفصل السابع

ثقافة الكاتب

إليك أيها القارئ صورة موجزة من علوم العربية التي تلزم الكاتب كما تصورها أبو العباس القلقشندي . تحدث الرجل عن خصائص اللغة العربية وهي لغة القرآن من حيث انها لغة تامة الحروف ، تامة الألفاظ لا تكاد تجاريها لغة من اللغات القديمة في هاتين الميزتين ، وكخاصة الإيجاز ، وكخاصة الأخذ من اللغات الأخرى أخذا يعود عليها بالقوة والنماء . وكخاصة الأعراب لأواخر الكلمات . وقل أن توجد هذه الأخيرة في غيرها من اللغات . وحسب اللغة العربية انها اتسعت لكتاب الله ، وان جميع اللغات الأخرى عجزت عن ترجمته ، وفي هذا ما يدل دلالة قاطعة على كمال القرآن وكمال اللغة التي اتسعت للقرآن .

١ - فأما اللغة : -

ثم انتقل أبو العباس القلقشندي بعد ذلك الى الحديث عن المواطن التي تظهر فيها حاجة الكاتب الى اللغة والى توسعه فيها الى الحد الكافي . قال انها خمسة مواطن :

— أولها : معرفة الغريب من الألفاظ أو الكاتب في
حاجة الى استخراج المعاني من القرآن والحديث ومن الشعر
الجاهلي وهذه الأصول الثلاثة للغة تشتمل على الغريب
من الألفاظ . والغريب وان لم ينفق منه الكاتب الا أنه
لا غنى له عن معرفته . ونقل لنا المؤلف خبرا أورده ابن قتيبة
في كتاب أدب الكاتب قال : وأى مقام أخزى لصاحبه من
رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء وارتضاه لسره .
فقرأ عليه يوما كتابا فيه : وأمطرنا مطرا كثر عنه الكلام .
فقال له الخليفة متحنا له : وما الكلام ؟ فتردد الكاتب في
الجواب وتعثر لسانه ثم قال : لا أدري . فقال له الخليفة :
سل عنه .

وهذا الخليفة هو المعتصم . والكاتب هو أحمد بن
عمار . وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية . فلما قرأ عليه
أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلام فلم يعرفه قال :
انا لله وانا اليه راجعون . قال خليفة أمي وكاتب عامي !
ثم قال من يقرب منا من كتاب الدار ؟ قالوا : محمد بن
عبد الملك الزيات . فأمر باشخاصه . فلما مثل بين يديه قال
له : ما الكلام ؟ قال : النبات رطبه ويابس . فان كان رطبا
قليل له خلا ، وان كان يابسا قليل له حشيش . وأخذ في
ذكر النبات من ابتدائه الى اكتماله . فقال المعتصم :
فليتقlden هذا العرض علينا ! ثم خص به حتى استوزره .
والطريف في طريقة أبي العباس انه كان اذا تحدث عن

موطن من المواطن التي يحتاج فيها الى اللغة أشار الى مصدر من أكمل المصادر التي عنيت بهذا الوطن أو ذاك من تلك المواطن . وقصده من ذلك أن يدل كاتب الانشاء على المعين الذي يستقى منه ما يحتاج اليه من أغراض اللغة .

وتطبيقا منه لهذه القاعدة فقد أشار في معرفة الغريب في اللغة الى كتب الصحاح للجوهري ، والمحكم لابن سيده : والمجمل لابن فارس . ثم حكم للصحاح بأنه أقربها مأخذا ، وللمحكم بأنه أمثلها طريقة .

— ثانيها : أى ثانی المواطن التي يحتاج فيها الى التبعر في اللغة معرفة الألفاظ اللغوية وانها بمعرفة (المتباين) من الألفاظ كالسواد واليباض والطول والعرض ومعرفة (المترادف) منها كالأسد والسبع للحيوان المقترس ومعرفة (الحقيقة والمجاز) كالأسد للحيوان المقترس والحمار للحيوان المعروف . والأسد للرجل الشجاع والحمار للرجل البليد . ومعرفة (الألفاظ المتضادة) كالأمانة والخيانة والفتق والرتق ، والنقض والابرام .

(وتسمية المتضادين باسم واحد) كالجون للأسود والأبيض ، والصريم لليل والنهار . وفي (أدب الكاتب) جملة صالحة من كل ذلك . ومعرفة (المقصور والممدود) كالندي للجود والسماء للفلک .

وما يجوز فيه المد والقصر كالشراء ونحو ذلك . ومعرفة (المذكر والمؤنث) وخاصة ما يعتمد منه على السماع

كالسماء والأرض والقوس والحرب ، وما يجوز فيه
(التذكير والتأنيث) كالطريق والسييل والموسى واللسان .
(وما يشترك فيه المؤنث والمذكر) كصيغة فاعل بمعنى
مفعول . ومنه قتل بمعنى مقتول وخصيب بمعنى مخضوب .
وصيغة فاعل بمعنى فاعل . ومنه صبور للرجل والمرأة
وشكور لهما كذلك . وصيغة فاعل مما لا يكون وصفا
لمذكر . ومنه امرأة حامل وطالق .
وفي كتاب (أدب الكاتب) . و (فصيح ثعلب) جملة
من ذلك .

ويجب على الكاتب أن يعرف من ألفاظ العرب (ما ورد
مزدوجا) كقولهم : الحجر والمدر (فالحجر معروف والمدر
التراب الندى) . و (ما ورد من كلامهم مثنى على سبيل
التغليب) كقولهم : الأبوان ، والقمران ، والعشران ،
أو (على سبيل الحقيقة) كقولهم : الجديدان بمعنى الليل
والنهار والأطبيان بمعنى الأكل والزواج . (وما ورد من
كلام العرب مرتبا) كقولهم النعاس فالوسن فالكرى
فالغمض : ثم (ما تختلف أسماؤه باختلاف أحواله) كالكاس
لا يقال فيه كأس . الا اذا كان فيه شراب . والا فهو قدح .
و (المائدة) لا يقال كذلك الا اذا كان عليها طعام ، والا فهي
خوان بكسر الخاء .

ومن الألفاظ التي يجب معرفتها كذلك ما تعددت لغاته
بتعدد اللغات التي أخذت عنه في الأصل كقولهم (رطل)

بكسر الراء وفتحها . - (وسم) بكسر السين وضمها ومن .
ذلك ما فيه أربع لغات مثل (نطع) بكسر النون وفتحها ،
وسكون الطاء ، وفتح النون والطاء . ومنه ما فيه خمس
لغات مثل : ريح الشمال بفتح الشين من غير همزة ، وفتحها
بالمهزة فتقول (الشمال) ، والشامل بفتح الميم وبغير
همزة . والشمل بفتح الميم . والشمل بسكونها . ومنه
ما فيه ست لغات كفسطاط وهكذا ..

— الثالث : من مواطن الحاجة الى اللغة معرفة الفصيح
منها . والفصيح هو ما نطقت به قبائل لم تختلط بالعجم .
مثل قريش وهذيل وكنانة وبعض من قيس عيلان وتميم
وعرب الحجاز ووسط نجد . وهنا أطال المؤلف الحديث عن
لهجات العرب وضرب الأمثلة على هذا الاختلاف .

— الرابع : ما تلحن فيه العامة وتغيره عن موضعه .
كقولهم في جفن بفتح الجيم جفن بكسرها . وقولهم في
القبول بفتح القاف القبول بضمها وأمثال هذا كثير يصعب
أن نحصره .

— الخامس : معرفة الألفاظ التي اختص بها الكتاب
أو الألفاظ الكتابية كما سماها المؤلف نفسه . وهي ألفاظ
اتخذها الكتاب وانتقوها من اللغة استحسانا لها . قال
الجاحظ : ما رأيت مثل طريقة هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا
من الإلفاظ ما لم يكن متوعرا حوشيا ، ولا ساقطا سوقيا .
وذكر ابن الأثير في المثل السائر ان الكتاب غربلوا اللغة

واتقوا منها ألفاظاً رائعة استعملوها . وهذه الألفاظ
أسماء وأفعال . والأسماء كقولك في المدح : فلان غرة
القبيلة ، وسنامها ، وذؤابتها ، وذروثها . وهو نiece أرومته ،
وأيلق كنيته ، ومدره عشيرته الخ .. والأفعال كقولك :
في إصلاح الفاسد : أصلح الفاسد ولمّ الشعث ، ورأب
الصدع ، وجمع الشتات ، وجبر الكسر ، وآسى الكلم ،
ورقع الخرق ، ورتق الفتق .

وفي كتاب (الألفاظ) لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب
كفاية من ذلك .

هذا كله من حيث الألفاظ اللغوية ذاتها . أما من حيث
تصرف الكاتب في هذه المادة اللغوية وكيفية تصرفها في
وجوه الكلام فقد أحالنا المؤلف الى كتاب « كنز الكتاب »
لكشاجم . ونقل منه أمثلة رائعة من رسائل الكتاب في
أغراض كثيرة ليقس عليها الكتاب في زمانه ويستضيئوا
بها على حد قوله .

٢ - أما النحو : -

فانه ميزان العربية والقانون الذي تحكم به في كل
صورة من صورها . كما ان اللغة نفسها — ونعني بها
الألفاظ التي تتألف منها — هي رأس مال الكاتب الذي منه
ينفق دائماً وعليه يعتمد في جميع الظروف والأحوال .

ولقد كتب عمر بن الخطاب الى عامله باذريجان كتاباً
يقول فيه : « تعلموا العربية فانها تثبت الفعل وتزيد في

المروءة » وروى أن اعرابيا سمع قارئاً يقرأ « ان الله برىء
من المشركين ورسوله » بجر اللام في رسوله . فبلغ ذلك
عمر بن الخطاب فأمر ألا يقرأ القرآن الا من يحسن العربية .
وأشار القلقشندي الى الأمور التي يصعب على بعض
الكتاب حفظها أو تطبيقها من النحو قال :

وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو
حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم فصعب عليه أبواب
منها (باب العدد) .

على أن القلقشندي لم يكن من أولئك الذين طالبوا
الكتاب بالتعمق في النحو بل ذهب الى أن التعمق في النحو
والمبالغة فيه أمر مستكره كالتعمق في الغريب والمبالغة فيه .
ذلك ان الجهل بالنحو — كما قال ابن الأثير — لا يقدح في
فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح في الجهل به نفسه ، لأنه
رسوم قوم تواضعوا عليه . وهم الناطقون به فوجب
اتباعهم في ذلك .

ثم أشار القلقشندي على عادته الى المراجع التي يرجع
اليها الكاتب في النحو فقال :

ومن الكتب المعتمدة في زماننا عند أبناء المشرق
(الفصل) للزمخشري ، و (الكافية) لابن الحاجب . وعند
المصريين كتب ابن مالك (كالتسهيل) و (الكافية الشافية)
و (الألفية) وغير ذلك .

على أن للاعراب مواضع وللحن مواضع ، وقد نبه عليها
الجاحظ حيث نقل عنه القلقشندي ما نصه :

« ان سمعت — حفظك الله — نادرة من كلام الأعراب
فاياك أن تحكيها الا مع اعرابها ومخارج ألفاظها . فانك
ان غيرتها بأن لحت في اعرابها أو أخرجتها مخرج كلام
المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك وزر
كبير . وان سمعت نادرة من نواذر العوام وملحة من ملحهم
فاياك أن تستعمل الاعراب أو تتخير لها لفظا حسنا فان ذلك
يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها التي وضعت لها ،
وتذهب استطابة الناس اياها » . يقول الشاعر يصف جارية :
وحديث ألد هو مما

تشتهي الأسماع يوزن وزنا

منطق ضائب وتلحن أحياء

نا وخير الحديث ما كان لحنا

وأما طريقة اتقاع الكاتب بالنحو فتظهر في موضعين

فقط :

أولهما : الاعراب على نحو ما تقدم .

وثانيهما : استخدام المصطلحات النحوية وأسماء النحاة

في بعض الرسائل الديوانية على سبيل التورية .

كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالة :

حرس الله نعمة مولاي — ولا زال كلم السعد من اسمه ،

اسمه وفعله . ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون

ومعدود ، ومن فضله كل مقصور وممدود . ولا خاطبت
الأيام ملتزمة إلا بلام التأكيد ، ولا عدوه إلا بلام
الجهود الخ .

٣ - وأما الصرف والتصريف :

فهو المقياس الذي يعرف به الكاتب أصل الكلمة
وما فيها من حروف مزيدة فيمكن أن يتصرف فيها بالجمع
والتصغير والنسبة ونحو ذلك .

وضرب القلقشندي على ذلك مثلاً مما وقع (لنافع بن
أبي نعيم) وهو من أكبر القراء السبعة قدراً ، وأعظمهم
شأناً . قال المؤلف عن هذا العالم من علماء القراءة انه
(قال في معاش معاش بالهمزة بدلاً من الياء) . ومن جملة
من عابه في ذلك أبو عثمان المازني فقال في كتابه
(التصريف) : ان نافعا لم يدر ما العربية (١) .

وحكى عن بعض الكتاب انه قال :

« وكانت رسومهم تدفع مسانأة (أى في كل سنة)
ثم صارت تدفع مشاهرة ثم صارت مياومة ثم صارت
مسااعة » فأخطأ وكان يجب أن يقول (مساوعة) . ومثل

(١) قال علماء التعريف في ذلك : ان الأصل في (معيشة)
هو (معيشة) على وزن مفعلة . ومن يعيش تبني صيغة مفعول
فتقول (معيوش) . ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال
(معيش) . ثم توث هذه اللفظة فتصير (معيشة) وجمعها
(معاش) بالياء لا بالهمزة .

هذا كثير في كلام الشعراء والكتاب . يقول ابن الأثير « وكثيرا ما يقع أهل العلم في مثل هذه المواقع فكيف بالجهال الذين لا معرفة لهم بها الخ » .

٤ - وأما علوم المعاني والبيان والبدیع :

فالمحقق عليه أن هذه العلوم بالنسبة للآثار الأدبية البلاغية كالمنطق بالنسبة للعلوم الفلسفية . وأى قيمة لكتاب لا يعرف كيف يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة الى فهم كلام الله وحديث رسول الله اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعانى ، وفصيح الألفاظ . وقبيح بالكاتب المشار اليه فى حسن الكتابة ألا يدرك اعجاز القرآن الا من الجهة التى يدرك بها الزنجى أو النبطى ، وأن يستدل عليه بما يستدل الجاهل الغبى .

على أن البلاد انقسمت فى التعرف الى البلاغة بعلمومها الثلاثة المذكورة قسمين كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل : فهناك الديار المصرية التى لم يحتج أهلها الى هذه العلوم . لأنهم يدرونها بطبعهم ، ويعرفونها بذوقهم فهم يدركون بطابعهم ما أفنت فيه العلماء زهرة أعمارهم .

وأما أهل بلاد الشرق فلم يد طولى فى هذه العلوم . ومنهم الرمانى والجرجانى . ولكن أكثر اعتماد أهل زماننا على (تلخيص المفتاح) للقاضى جلال الدين القزوينى . وأما انتفاع الكاتب بهذه العلوم فبأى كذلك من وجهين .

أولهما — ان من فاته هذه العلوم وكان ناقصا فيها
نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك .

وثانيها — استخدام المصطلحات الخاصة بهذه العلوم
الثلاثة على سبيل التورية على طريقة الكتاب في التورية
بمصطلحات النحو وغيره من العلوم .

هـ — واما القرآن والحديث :

فهما المعين الذى يستقى منه الكاتب معانيه وألفاظه .
واذا وضعت الآيات فى أماكنها اللائقة بها من الرسالة التى
يكتبها الكاتب صار الكلام من الفخامة والرواق ما شبهه فيه .

وللاتفاف بالقرآن والحديث فى ذلك طريقان :

أولهما : الاستشهاد وأين قول العرب (القتل أهمل
للقتل) — لمن أراد الاستشهاد فى هذا المعنى — من قوله
تعالى « ولكم فى الحياة قصاص » .

ثانيهما : التضمن والاقباس — وقد سار (الصابى)
على هذا الأسلوب من الاعتماد على آى القرآن فى خلال
كلامه دون الاشارة الى ذلك . والاقتصار على اقتباس معناه .

وهنا أتى القلقشندى بعشرات النماذج مما أنشأ
الكتاب السابقون ، وقاله الخطباء المفوهون ومما قام هو
بأنشائه كذلك — وكل هذا على طريقة المصريين التى أشرنا
إليها مرارا — وهى الاعتماد فى فهم البلاغة وتذوقها على
الاكثار من الشواهد بدلا من الاكثار من الأصول والقواعد .

وكنّا نود من القلقشندى عند الحديث عن هذا النوع من أنواع البلاغة — وهو تضمين القرآن والحديث أن يشير الى الكتاب الذين مهدوا الطريق الى هذا النوع البلاغى — ومن أهمهم ابن العميد — والى الكتاب الذين بلغوا فيه العناية التى ما بعدها عناية — ومن أهمهم عبد الرحيم البيهقى المعروف بالقاضى الفاضل . ان كلا من ابن العميد والقاضى الفاضل قد أفلح فى هذا النوع البديعى المعروف (بنثر القرآن والحديث) — وهو أن يأتى الكاتب فى ثنايا رسالته بألفاظ من القرآن أو الحديث يدخلها فى كلامه وكأنها من انشاءه .

جاء فى رسالة اخوانية للقاضى الفاضل قوله : « أهلا بطلعته فانها فى غربنا مشرقة ، وبخواطره فانها لا تدخل من باب واحد ولكن تدخل من أبواب متفرقة » ومثل هذا كثير فى أسلوب هذين الرجلين ، وان كان الأخير قد أكثر منه حتى عرف به .

وكعادة القلقشندى أشار الى الكتب التى يجمل بالكاتب أن يحفظها بعد ذلك . وهى كتاب الشهاب فى المواعظ والآداب (للقضاعى) ، وان كان العمدة فى ذلك بلا منازع هو ضياء الدين بن الأثير فى كتابة المثل السائر .. ثم قال المؤلف : وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها فى استعمال

الكاتب . وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين حتى دار على خاطري أكثر من خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عنى منه شيء .

٦ - وأما خطب الخطباء ورسائل البلغاء :

فإنها مستودعات البلاغة ومجامع الحكم . قال أبو هلال العسكري « والرسائل والخطب متشابهان » في السهولة والعذوبة ، متشابهان كذلك في الفواصل ، وتستطيع أن تجعل من الرسالة خطبة ومن الخطبة رسالة وذلك في أيسر كلفة » .

ثم رشح المؤلف جمهرة الكتاب أن يحفظوا خطب الخطباء في الجاهلية وخطب رسول الله والخلفاء الراشدين في الإسلام . ثم خطب الحسن بن علي وعتبة بن أبي سفيان وزيد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي وقطرب بن الفجاءة . وأتى بنماذج كثيرة من خطب هؤلاء جميعا .

ثم أتى القلقشندي بطائفة أخرى من رسائل الصدر الأول ومكاتباتهم وأحاديثهم ومنها ما موضوعه المحاوراة . كالذي دار بين علي وبين معاوية ، وكالذي دار بين جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسن ، وكالذي دار كذلك بين أرسطو والاسكندر ، وكالذي كتب به أبرويز من ملوك الفرس الى ابنه شيرويه .

ومن تلك الأحاديث ما موضوعه المرافعة كالحديث الذي

أثر عن عائشة أم المؤمنين انتصارا لأبيها حين بلغها أن قوما
قد تناولوه . وهو الحديث الذي أوله : أبى ! وما أبيته !

ومن هذا الضرب الأخير حديث (أم الخير)
(الزرقاء) يوم صفين انتصارا منها لعلى بن أبى طالب .
والحديثان من أبلغ ما عرفه العرب من كلام .

ان حفظ الكاتب لطرف من أحاديث الخطباء ورسائل
البلغاء يجعل له رصيذا ضخما من الألفاظ والمعاني يأخذ
منه متى شاء ويعبر به عن المعنى الواحد بطرق كثيرة من
طرق الابانة . وهذا المنهج هو أحد أنواع الاعجاز في
القرآن . فان القصة الواحدة تتكرر فيه مرارا في سور
متعددة . ترد في كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت
به في سورة أخرى مع استبقاء حد البلاغة ونهاية أمد
الفصاحة .

وكعادة القلقشندي كذلك أشار الى بعض الكتب التي
يرجع اليها . ومنها كتاب (الاقتداء بالأفاضل) لعلى بن
حمزة بن طلحة .

٧ - وأما الشعر :

فقد أجمع النقاد وأهل البصر بالكلام على أن كلا من
(الحماسة) و (المفضليات) و (الأصمعيات) و (ديوان
هذيل) ثم ديوان (جرير) و (الفرزدق) و (الأخطل)
و (أبى تمام) و (مسلم بن الوليد) و (البحترى)
و (ابن الرومى) و (المتنبي) ليس بعدها شيء في عالم

الشعر . فمن حفظها أو أكثر من النظر فيها فانه يفيد منها
في الكتابة فائدة ليس الى انكارها من سبيل .
وقد كان الصدر الأول من بلغاء العربية يعنون بالشعر
عناية لا تدانيها عناية . منهم عمر بن الخطاب وأبو بكر
وعثمان وعلى . وكان الامام الشافعى يحفظ ديوان هذيل
كله . وكان غيره من الأئمة يحفظ أكثر من ديوان . وقد أتى
القلقشندي باخبارهم جميعا .
أما وجه الاتفاع بالشعر في الكتابة فيكون على ثلاث
حالات :

الأولى — الاستشهاد .

الثانية — التضمين .

الثالثة — الحل : وهو أن يعتمد الكاتب الى الأبيات
من الشعر فيحلها من عقال الشعر ، ويسبكها في كلامه المنثور
بألفاظ تشابه أو تخالف ألفاظ الشاعر .

ولقد أتى المؤلف بجميع الطرق المعروفة في حل الشعر .
واعتمد في ذلك على المثل السائر لابن الأثير . ولعل من
أصعب الطرق التي نبه اليها هذا الأخير تلك الطريقة التي
يأخذ فيها الكاتب المعنى الشعري فيكسوه ألفاظا من عنده
ويصوغه بلفظ غير لفظه كما في قول المتنبي :

ان القتيل مضرجا بدموعه

مثل القتيل مضرجا بدمائه

نثره ابن الأثير فقال :

« والقَتِيل بسيف العيون كالقَتِيل بسيف المنون . غير
ان ذلك لا يتجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بغمده » .
ثم عاد ابن الأثير فنشره بطريقة أخرى قائلا :
« دم المحب ودم القَتِيل متفقان في التشبيه والتمثيل .
ولا نجد بينهما بونا سوى انهما مختلفان لونا » .
(وأما التضمين) فامام الكتاب في هذا النوع من
أنواع البديع هو وحده القاضي الفاضل . ومن أجل ذلك
أكثر القلقشندی من ايراد النماذج الفاضلية التي ضمن فيها
الكاتب البيت الكامل من الشعر ، والنماذج التي ضمن
فيها نصف بيت فقط وهكذا

وللقاضي الفاضل رسائل كاملة على النحو الآتي :

وصل من الحضرة الفلانية :

كتاب به ماء الحياة وبقعه

حيا كآني اذ ظفرت به الخضر

فوفقت منه على :

عقود هي الدر الذي أتت بحره

وذلك مالا يدعى مثله البحر

وجدد لنا أشواقا :

يمر بها ثوب الجديدين (١) دائما

فيبلى ولا تبلى وان بلى الدهر

وهكذا الى آخر الرسالة .

(١) الجديدين الليل والنهار .

ولهذا الكاتب — وهو القاضى الفاضل — رسائل كاملة
على النحو الآتى :
وصل كتاب مولاي بعدما (أجاب المنادى للصلاة
فأعتما)

فلما استقر لدى (تجلى الذى من جانب البدر أظلمما)
فقرآته (بعين اذا ما استمطرت أمطرت دما)
وساءلته (فساءلت مصروفا عن النطق أعجمما)
ولم يرد جوابا (وماذا عليه لو أجاب المتيما)
وهكذا الى آخر الرسالة .

٨ - وأما الحكمة والمثل :

فانهما من المواد الأصيلة في اللغة . وهما يمتان الى عدة
مصادر . منها القرآن الكريم ، ومنها الشعر القديم . ومنها
الحكم التى وضعت على السنة الحيوان . ومن هذه الأخيرة
قول على بن أبى طالب حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم
« انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

يريد : انما خذلت أنا يوم خذل عثمان بن عفان .

وأما حكاية هذا المثل فهي كما يلي :

اصطحب أسد وثور أحمر وثور أبيض وثور أسود
في غابة . فقال الأسد للثورين الأحمر والأسود : هذا
الأبيض يفضحنا بلونه ويطلع فينا من يقصدنا ، فلو تركتماني
أكله آمنا فضيحة لونه . فأذنا له في ذلك فأكله . ثم قال
الأسد للثور الأحمر : هذا الأسود يخالف لوانى ولونك .

ولو بقيت أنا وأنت ظنك من يراك أسدا مثلى . فدعنى
آكله . فسكت عنه فأكله . ثم قال الأسد للثور الأحمر :
لم يبق الا أنا وأنت وأريد أن آكلك . فقال له : ان كنت
فاعلا ولا بد فدعنى أصعد تلك الهضبة وأصيح ثلاثة أصوات :
فقال الأسد : افعل ما تريد ، فصعد وصاح ثلاثة أصوات :
« ألا أنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

فصارت مثلا ، وأمثال هذه الحكاية على السنة
الحيوان كثيرة في الأدب العربى . وطرق الالتفاف بهذه المادة
من مواد العربية معروفة . وقد أكثر القلقشندى من الاتيان
بنماذج منها تعليما للكاتب وتزويدا له بالمادة التى تعين على
الكتابة .

٩ - وأما عادات العرب :

فقد كان للعرب عادات فى الجاهلية وبقى من هذه
العادات شئ فى الاسلام وقد جرى أبو العباس على تسمية
عادات العرب فى الجاهلية باسم
الأوابد :

وهى طائفة من العادات أو الخرافات كان العرب يعتقدون
فيها فى الجاهلية ثم أتى الاسلام فنهاهم عنها . وقد عدَّ
أبو العباس من هذه الأوابد أكثر من ثلاثة وثلاثين نوعا
فذكر منها على سبيل المثال :

١ - الكهانة ، والزجر ، والطيرة ، والميسر ، والانصاب
والازلام ، والمقصود بالآخرة ان العرب كانوا اذا أرادوا

فعل أمر من الأمور أخذوا أقداحا مكتوبا على بعضها :
افعل ، وعلى بعضها الآخر : لا تفعل أو على بعضها :
نعم ، وعلى بعضها الآخر : لا ، ثم يضربون تلك الأقداح
فما خرج لهم عملوا به) .

٢ - ثم من تلك العادات القديمة في الجاهلية : البحيرة
والسائبة والوصيلة والحام .

فالبحيرة (ومعناها ان العرب كانوا يعتقدون ان الناقة
اذا أتجت خمسة أبطن فعليهم أن يعمدوا الى الخامس منها
فيشقوا أذنها ويتركوها فلا يجزّ لها دبر ولا يحمل عليها
شيء ولا يتتفع بها الا الرجال دون النساء) .

والسائبة (ومعناها أن الرجل منهم كان يسيب البهيمة
فتكون حراما طول الدهر) .

والوصيلة (فقد كانت الشاة اذا ولدت سبعة أبطن
عمدوا الى السابع منها فان كان ذكرا ذبح ، وان كانت أنثى
تركت في الغنم . وان كانت توأما من ذكر وأنثى معا قيل :
وصلت أخاها فحرما جميعا واقتصرت منافعهما على الرجال
دون النساء) .

والحام (أى ان الفحل اذا صار من أولاده عشرة أبطن
قالوا : حمى ظهره فيترك ولا يحمل عليه شيء ولا يركب
ولا يمنع ماء ولا مرعى) .

ولما جاء الاسلام حرم كل ذلك حيث جاء في القرآن

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)
الآية .

٣ — ومن تلك العادات القديمة عادة وأد البنات وقتل
الأولاد خشية الاملاق . وقد نهى القرآن عن كل ذلك .

٤ — ثم من تلك العادات كذلك تعليق سن الثعلب
وسن المهرة إذا خيف على الصبي من نظرة أو خطفة . وتعليق
كعب الأرنب خوف الحسد ، وتعليق الحلبي على المصاب
بلدغ العقرب . ومنها مسح المطارف عين المطروف وذهاب
الخدر من الرجل بذكر أحب الناس إليه . ومنها شق الرداء
عند المصيبة ، ورمي سن الضبي إذا أثمر في عين الشمس ،
ومنها جز رأس الأسير ، وخضاب نحر الفرس ، ومنها وطء
القتلى (بمعنى ان المرأة التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت
قتيلا شريفا عاش لها ولدها) .

ومنها كذلك عادة تسمى الهامة : (زعمت العرب أن
الانسان اذا قتل ولم يطلب بثأره خرج من رأسه طائر يسمى
الهامة وصاح : اسقوني اسقوني . ولم يزل على ذلك حتى
يؤخذ له بالثأر) .

وقد تسأل وما الفائدة التي تعود على كاتب الانشاء
من الوقوف على هذه المعلومات ؟ والجواب عن ذلك ان له
فوائد من أهمها فهم القرآن من جانب ، والشعر الجاهلي
من جانب آخر . وأنت تعلم ان القرآن والنثر وصفا الجبابة
الجاهلية أدق وصف . فمن لم يكن له علم تام بهذه المعلومات

صعب عليه فهم القرآن أحياناً وفهم الشعر الجاهلي أحياناً أخرى :

خذ لذلك مثلاً قول الشاعر العربي القديم :

يا عمرو ألا تدع شتّى ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة : أسقوني !

فكيف يفهم كاتب الإنشاء هذا البيت ما لم يعرف أن

العرب كانوا يعتقدون أن القليل إذا لم يؤخذ بثأره خرج

من رأسه طائر يسمى (الهامة) يقول : اسقوني اسقوني !

حتى يؤخذ له بهذا الثأر ؟

غير أن من عادات العرب في الجاهلية ما أبقى عليه

الإسلام ومن ذلك على سبيل المثال :

النيران :

وقد عدّ القلقشندي منها ثلاث عشرة لارا منها على

سبيل المثال :

١ — نار المزدلفة : وهي من شعائر الحج . وأول من

أوقدها قصي بن كلاب .

٢ — نار الخلف : كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا

النار وعقدوا الحلف عندها .

٣ — نار الحرب : كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا

قدوم جيش أوقدوا النار على أعلى الجبل ليعلم أصحابهم بذلك .

٤ — نار الصيد : وهي نار توقد للظباء لتغشاها إذا

فطرت إليها .

٥ — نار الأسد : كانوا اذا خافوا الأسد أوقدوا نارا يعتقدون انه متى رآها رجع عن قصده .

٦ — نار القرى : وهى نار توقد ليلا ليراها الأضياف ويهتدوا اليها .

٧ — نار القداء : كان الملوك منهم اذا أسروا نساء قبيلة من القبائل خرج اليهم سادة هذه القبيلة ليلا ليفتدوا نساءهم .

ثم من العادات العربية التى أبقي عليها الاسلام عادة :
الأسواق :

ومن أشهرها كما ذكر أبو العباس :

سوق دومة الجندل ، وسوق هجر ، وسوق عمان ،
وسوق ارم ، وسوق حضرموت ، وسوق صنعاء ، وسوق
عكاظ . وكانت هذه الأخيرة تقام فى الأشهر الحرم . وكانوا
يتناشدون فيها الأشعار . ومن له أسير سعى فى فدائه ،
ومن له مظلمة رفعت الى من له الحكومة . وكانت الحكومة
فى بنى تميم . حتى اذا فرغ العرب من كل ذلك وقفوا بعرفة
وقضوا مناسك الحج ثم عادوا الى أوطانهم سالمين غانمين .
١٠ — واما أيام العرب ومفاخرهم وانسابهم ووقائعهم فى الجاهلية :

فبها تستكمل ثقافة الكاتب العربية . وعلم الأنساب
من العلوم الانسانية الأصيلة التى تعنى بها الأمم العريقة .
بل إن العلوم الحديثة المعروفة كعلم النفس وعلم الأجناس
وعلم الاجتماع تؤيدها . وليس فى استطاعة أحد أن يدرس

الشعر الجاهلي والتاريخ العربي الاسلامي مالم يكن عارفا
بعلم الأنساب معرفة جيدة .

يقول الأمير شكيب أرسلان : « وكما أن العالم المتمدن
يعنى بتدريس جغرافية البلاد من جهة أسمائها ومواقعها
وحاصلاتها وعدد سكانها فانه يجب أن يعنى بمعرفة أنساب
أولئك السكان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كل جماعة فيهم
اذ أن من الحقائق العلمية ان الأخلاق والميول والنزعات
المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية
والدماء الجارية في العروق .. وكل محاولة في تنمية القرائح
الطيبة والمواهب الالهية لا يمكن أن يثمر ثمرة اذا جاء
معاكسا للاستعداد الفطري ، وهذا الاستعداد الفطري هو
أقوى دليل على اصالة علم الأنساب » . هذا ومن الثابت
أن لهذا العلم فوائد دينية وسياسية واجتماعية وعلمية .

ثم ان المدار في علم الأنساب على السماع . لأن العرب
لم يكونوا يعرفون الكتابة والقراءة الا نادرا . وأول
ما يحتاج الكاتب الى معرفته من ذلك (عمود النسب
النبوي) من حيث أن سائر الأنساب تتعلق به وترجع اليه .
ثم ينتقل من ذلك الى معرفة أنساب العرب عامة . وانقسام
القبائل الى شعوب ، والشعوب الى عمائر ، والعمائر الى
بطون ، والبطون الى أفخاذ ، والأفخاذ الى فصائل وهكذا .
وعلى الكاتب أن يعرف أن الرجل قد ينضم الى قبيلة
غير قبيلته عن طريق الحلف أو الموالة فينتسب اليهم . وإذا

كان الرجل في قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينسب اليهما معا .

ثم ان العرب ثلاثة أقسام : العرب البائدة ، والعرب العاربة والعرب المستعربة .

فمن البائدة عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، ومدين .
والعاربة أولاد يعرب بن قحطان وبنو جرهم بن قحطان .
والمستعربة بنو اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام .
سموا بذلك لأن لسان اسمعيل كان العبرانية أو السريانية .
فلما نزل جرهم من القحطانية بمكة المشرفة تزوج منهم .
وتعلم هو وبنوه العربية من جرهم هذا ، فسموا لذلك المستعربة .
وجميع المستعربة من ولد اسماعيل هم من ولد عدنان .

وهناك حزب رابع من العرب يقال لهم (البربر) . وقد اختلفت الناس في نسبتهم اختلافا كبيرا : فمن قائل انهم من العرب ومن قائل انهم ليسوا من العرب . ومنهم ملوك المغرب والخلفاء الفاطميون .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نتبع هنا أفساب العرب في أصولها وفروعها وفروع الفروع وهكذا .

والخلاصة في ذلك ان قبائل العرب ترجع الى أصول ثلاثة وهي : العدنانية ، والقحطانية ، والقضاعية . ولا يوجد عربي الى يومنا هذا الا وينتسب الى احدها .

على أن من المؤرخين المحدثين — ومنهم الأستاذ جواد على في كتابة تاريخ العرب قبل الاسلام — من ذهب الى

أن تقسيم العرب الى عدنانية وقحطانية لم يعرف الا بعد الاسلام . أما العصر الجاهلى فلم يعرف شيئا من ذلك . وقال ان لهذا التقسيم أسبابا سياسية وجدت في العصر الاسلامى ، ومن هذه الأسباب بطبيعة الحال الصراع بين الأحزاب السياسية في عصر الخلافة الأموية والخلافة العباسية ثم ظهور ما يسمى بالنزعة الشعوبية المعروفة في التاريخ . ولقد كانت أنساب العرب موضع عناية العلماء والمؤرخين منذ بداية العصر الاسلامى الى زمن المؤلف . ولا ننسى ان لأبى العباس القلقشندى كتابا كبيرا باسم (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) تولى تحقيقه في أيامنا هذه الأستاذ الأيبارى .

وكذلك الشأن في أنساب العجم — وهم الفرس والترك والروم وغيرهم فقد تتبعها أبو العباس في موسوعته بالقدر الذى يعرفه من هذه الأنساب على اختلافها . (وأما مفاخر العرب) فقد روى منها أبو العباس شيئا كثيرا . من ذلك ما جاء على لسان رؤساء الوفود التى وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة . ومنها وفد بنى تميم الذين طلبوا أن يفاخروا رسول الله بما لهم من مآثر في الجاهلية فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن قال لحسان بن ثابت « قم فأجب » فأشدد أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

إذا تفاوتت الأهواء والشييع

وحديث المفارحات بين العرب حديث طويل تمتلىء به كل كتب الأدب المعروفة . والتاريخ يحدثنا عن هذه المفارحات انها دامت بعد الاسلام مدة ليست باليسيرة مع الرغم من أن الاسلام هدم العصبيات . ومن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع : « ليس لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود فضل الا بالتقوى . كلکم لآدم وآدم من تراب » .

أما (أيام العرب) فكتاب الانشاء بحاجة الى معرفة ذلك ومعرفة الأشعار التي قيلت في كل يوم منها . والفوارس الذين اشتهروا بها . فقد ترد عليه رسالة فيها استشهاد ببعض هذه الأشعار ، أو فيها اشارة الى يوم من تلك الأيام وواقعة من تلك الوقائع واذ ذاك يستطيع الكاتب أن يجيب على هذه الرسالة .

قال أبو العباس ومن أشهر أيام العرب :

١ - يوم خُراز (اسم جبل بين مكة والبصرة) كانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفرس وقبائل اليمن ، وغلب بنو ربيعة ، وكان قائدهم كليب بن ربيعة ملك بنى وائل .

٢ - ويوم عين أرباغ (بضم الهمزة) وقعت الحرب في هذا المكان بين غسان ولخم ، وكان قائد غسان الحارث الذي طلب دروع امرئ القيس وكان قائد لخم المنذر بن ماء السماء ، وانهزمت لخم في هذه الموقعة وقتل المنذر .

٣ - ويوم مرج حليلة بين غسان ولخم أيضا وفيه عظم الغبار حتى احتجبت الشمس .

٤ - ويوم بين كنانة وسليم ، انتصرت فيه سليم على كنانة وقتل ربيعة بن مكدم فارس كنانة ومضرب الأمثال في الشجاعة .

٥ - ويوم كلاب الأول (والكلاب بضم الكاف موضع بين البصرة والكوفة) ، كان بين الأخوين شراحيل وسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي وانتصر فيه سلمة وهو الأصغر وانتصرت معه وائل على بكر وائل التي كانت معه شراحيل .

٦ - يوم كلاب الثاني : بين بكر ووائل .

٧ - ويوم أوراة بن المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة ومنذر وائل .

٨ - ويوم رجرحان (اسم جبل بالحجاز) بين الأحوص ابن جعفر بن كلاب وبين بني دارم وبني تميم هزم فيه بنو تميم .

٩ - ويوم (ذي قار) سنة أربعين من مولد رسول الله صلعم وقيل يوم بدر .

وكان من حديث ذلك اليوم أن كسرى ابرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة فحبسه فهلك في الحبس . وكان النعمان قد أودع دروعه وسلاحه عند هانيء بن مسعود البكري فأرسل ابرويز يطلبها من هانيء فقال هذه أمانة والحر لا يسلم الأمانة . وكان ابرويز لما أمسك

النعمان جعل مكانه في ملك الحيرة اياس بن قبيصة الطائي .
فاستشار ابرويز اياسا فقال له اياس : المصلحة أن تتغافل
عن هانيء حتى يطمئن وتتبعه فتدركه . فقال ابرويز : انه
من اخوانك لا تألوه نصحا . فقال اياس : رأى الملك أفضل ،
فبعث ابرويز بالمرزبان في الفين من الأعاجم ومعهم ألف من
بهاء . فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن
ذي قار . ووصل اليهم الأعاجم واقتتلوا ساعة فانهزم
الأعاجم هزيمة قبيحة .

والذي لا شك فيه أن معرفة أيام العرب ووقائعهم تفيد
الكاتب في مهنة الشعر من جهة ، والرد على المكاتبات التي
يها إشارة الى هذه الأيام من جهة ثانية . خذ لك مثلا قول
أبي تمام الطائي :

لذا افتخرت يوما تميم بقوسها

وزادت على ما وطدت من مناقب

فأتم بذئ قار أحالت سيوفكم

عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

فكيف يدرك الكاتب لهذه الأبيات معنى ما لم يكن عارفا

بهذه المفخرة التي تشير اليها هذه الأبيات وخلاصتها ما يأتي :

« وفد حاجب بن زرارة التميمي على كسرى في سنة

جذب . فقال له حاجب كسرى : من أنت ؟ قال : رجل من

العرب . فلما دخل على كسرى قال له : من أنت ؟ قال :

سيد العرب ! فقال له كسرى : ألم تقل بالباب انك رجل

من العرب ؟ قال : كنت بالبواب رجلا منهم . فلما حضرت
بين يدي الملك سدتهم . فسرّ كسرى من اجابته وملا فمه
درا . ثم شكى اليه الرجل جذب الحياز وطلب منه حمل
ألف بعير برا على أن يعيد قيمتها . فقال كسرى : وما ترهننى
عن ذلك ؟ قال : قوسى . فاستعظم همته وقال له : قبلت .
وأعطاه حمل ألف بعيرا برا . ومات حاجب فأحضر بنوه
المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

تلك هى الثقافة العربية بعناصرها العشرة من شعر ونثر
وقرآن ونحو ذلك . وقد أوجب العلماء والنقاد على كاتب
الديوان أن تكون له معرفة تامة بهذه الثقافة . بل ان ابن
قتيبة ندد بالكتاب الذين أخذوا يستعيضون عن الثقافة
العربية الخالصة بالثقافات الأجنبية التى كانت تؤلف عنصرا
هاما مما سمي اذ ذاك « بالثقافة الاسلامية » . وهذه
العناصر الأجنبية هى الثقافة الفارسية من جانب والثقافة
اليونانية من جانب آخر . وما زال العلماء والنقاد يولون
الثقافة العربية الخالصة هذه العناية حتى كان عصر
أبى العباس القلقشندى فرأيناه أشد تشييعا للثقافة العربية
الأصيلة من جميع من سبقوه . وبهذا الصنيع حمى
أبو العباس وغيره من كتاب الموسوعات ظهر الثقافة العربية
التي تعرضت للضياع لولا ان الله قيض لها أناسا منهم
صاحب هذه الموسوعة المسماة « صبح الأعشى » .

المقالة الثانية

الفصل الثامن

ثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية

قصر أبو العباس مقالته الثانية على الكلام عن الثقافتين الجغرافية والتاريخية اللتين يحتاج اليهما كاتب الانشاء . واستغرق الحديث عن ذلك بعض المجلد الثالث وجميع المجلد الرابع وطرفا من المجلد الخامس — ووقع هذا كله في أكثر من ألف ومائتى صفحة من صفحات موسوعته صبح الأعشى .

تحدث المؤلف حديثا غير طويل عن المعلومات الجغرافية اللازمة لكاتب الانشاء وذلك تحت هذا العنوان الذى عرفت به الجغرافيا فى ذلك الزمان ، وهو « المسالك والممالك » . بل ان مؤلف الموسوعة جعل للمقالة الثانية كلها هذا العنوان وهو « المسالك والممالك » . بالرغم من أن هذا الحديث الجغرافى لم يشغل حيزا يذكر من هذه المقالة التى قسمها الى أبواب على النحو الآتى :

الباب الأول : فى وصف الأرض وكيفية استخراج

البلدان ونحو ذلك .

الباب الثاني — في طبقات الخلفاء ابتداء من الخلفاء الراشدين ، فخلفاء بنى أمية ، فخلفاء بنى العباس ، ثم الخلفاء الذين ظهروا بمصر من الفاطميين والعباسيين .

الباب الثالث وبه خمسة فصول :

أولها — عن الديار المصرية منذ الفتح الاسلامى الى زمن المؤلف .

وثانيها — عن الديار الشامية .

وثالثها — عن البلاد الحجازية .

ورابعها — عن الممالك المحيطة بالديار المصرية من كل

الجهات . فمن الشرق ومن الشمال مملكة ايران ومملكة طوران مما يقع تحت يد أولاد جانكيز خان . ثم بلاد اليمن وبلاد البحرين وبلاد اليمامة ومملكة الهند والسند .

ومن الجنوب بلاد السودان والنوبة وبلاد الحبشة .

ومن الغرب مملكة تونس والمغرب الأقصى ومملكة

قشتالة والبرتغال وبرشلونة ومملكة بيزة مما يلى قشتالة .

وخامسها — عن الممالك التى بأيدي المسلمين من بلاد

الروم والممالك التى بأيدي النصارى من هذه البلاد .

فأما ما بأيدي المسلمين فبلاد الروم ما بين الخليج القسطنطينى

وبلاذ أرمينية . وأما ما بأيدي النصارى قسطنطين ومملكة

الألمان ومملكة البنادقة ومملكة الجنوين ومملكة روما ،

ومملكة القوننج القديمة ، ومملكة الجلالة ، ومملكة

اللومبارد .

وصف أبو العباس جميع هذه الممالك والأقطار . وأمد
كاتب الانشاء بكل ما يلزمه من المعلومات التاريخية
الخاصة بكل مملكة منها على حدة .

ولنا أن تتبع المؤلف في رحلته هذه على النحو
الآتى : ففى (الباب الأول) من هذه الأبواب قصر الكلام
على ما سماه (وصف الأرض) وفيه تحدث عن الأرض فقال
انها كروية الشكل والماء محيط بها من جميع النواحي .
ثم تحدث عن جهات الأرض الأربع وهى الشمال والجنوب
والشرق والغرب . ثم ذكر أن خط الاستواء يقسم الأرض
الى شمال وجنوب . وعند خط الاستواء يستوى النهار
والليل فى جميع فصول السنة وهناك خط آخر يقسم
الأرض الى شرق وغرب ، وتصير الأرض بهذين الخطين
المتقدمين أربعة أرباع ثم ذكر كذلك ان كلا من هذين
الخطين منقسم الى مائة وثمانين درجة . ومقدار درجة
واحدة لمقدار ما بين الفسطاط ودمياط .

ووصف المؤلف كل واحد من هذه الأرباع الأربعة
المتقدمة واستطاع التمييز بين المعمور منها وغير المعمور ،
وحدد ذلك بالدرجات الطولية والعرضية .

ثم انتقل المؤلف من ذلك الى ما اصطلح الناس عليه
فى زمانه من تقسيم الكرة الأرضية الى سبعة أقاليم . وأخذ
يحدد كل اقليم منها بدرجات طولية وأخرى عرضية .

ودخل بعد ذلك في الحديث عن البحار فذكر منها ما يلي :
البحر المحيط — ويسمى بحر الأوقيانوس (يقصد
المحيط الأطلسي أو جزءا منه على الأقل) .

بحر الروم — وهو ما نطلق عليه في الوقت الحاضر
اسم البحر الأبيض المتوسط .

بحر القرم — ومن أسمائه كذلك (بحر بنطش)
و (البحر الأسود) و (البحر الأرمني) وهو متصل ببحر
الروم من شماليه . وأوله الخليج القسطنطيني (يريد خليج
البسفور) .

البحر الهندي — (يريد المحيط الهندي) .
بحر القلزم — (وهو المعروف في أيامنا هذه بالبحر
الأحمر) .

وهنا يذكر المؤلف ان بعض الملوك فكر في أن يصل
بحر الروم ببحر القلزم فلم يتيسر له ذلك لارتفاع القلزم
وانخفاض الروم . ثم جاء الخليفة العباسي الرشيد ففكر
في أن يصل البحرين فشبّه يحيى بن خالد وقال له : ان
عمر بن الخطاب منع عمرو بن العاص من تحقيق ذلك .
ثم من البحار المنتشرة في أرجاء الأرض ما لا يتصل
بالمحيط . ومنها على سبيل المثال :

بحر الخزر — (ويريد بحر قزوين) وعلى ساحله
الجنوبي تقع بلاد الجبل والديلم وعلى ساحله الشرقي بلاد
جرجان وخوارزم وعلى ساحله الشمالي بلاد الترك والخزر .

وانتقل المؤلف من ذلك الى بيان الطريقة التى تتبع فى استخراج جهات البلدان قال :
إذا كنت فى بلد وأردت أن تعرف جهة بلد آخر فعليك أن تعرف طول البلد الذى أنت فيه وعرضه وطول البلد الآخر وعرضه . وتقابل بين الطولين وبين العرضين . فإن كان ذلك البلد من بلدك مع مساواة له فى الطول فهو عنك من جهة الجنوب . وإن كان أطول من بلدك مع مساواته لك فى العرض فهو عنك فى جهة الشرق وهكذا .

* * *

و (الباب الثانى من المقالة الثانية)
تحدث المؤلف عن طبقات الخلفاء على النحو المعروف فى كتب التاريخ .

ثم فى (الباب الثالث من المقالة الثانية)
تحدث المؤلف عن :

نظم الادارة فى مصر

وهى نظم معقدة فى مجموعها ومنها :

١ — (نظام أمراء الجيوش) وهم مراتب ثلاث : مرتبة الأمراء المطوفين الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم . ومرتبة أرباب القصب — وهم الذين يركبون فى المراكب بالقصب الفضية تكون بأيديهم . ومرتبة الأمراء العاديين ممن لم يؤهلوا لحمل أطواق أو لحمل قصب .

٢ — (نظام خواص الخليفة) : وهم أنواع ثلاثة :

الأول — الأستاذون وأجلهم المخشكون لأن عمائمهم كانت الى أحناكهم ، وكان منهم أرباب الوظائف الخاصة بشخص الخليفة . الثاني : صبيان الخاص وعددهم خمسمائة . الثالث : صبيان الحجر (جمع حجرة) وعدتهم خمسة آلاف لكل واحد منهم حجرة خاصة وتي طلبوا لهم لم يجدوا عائقا .

٣ — (نظام طوائف الجند) وهم عدة كثيرة تنسب كل طائفة منهم الى خليفة من الخلفاء ، فهناك الحافظين نسبة الى الخليفة الحافظ ، والآمرين نسبة الى الخليفة الأمر ، والأفضلية نسبة الى الوزير الأفضل وهكذا .

٤ — (نظام أرباب السيوف في الخلافة الفاطمية) . ولهم تسع وظائف وهي :

وظيفة الوزارة — وهي الوظيفة العليا في الدولة . وهي اما وزارة تفويض ، واما وزارة وساطة أو تنفيذ . والأولى هي الأهم . وأول من خوطب باسم الوزارة يعقوب بن كلس وزير العزيز وبدر الجمالي وزير المستنصر .

وظيفة صاحب الباب — وهي تلى الوزارة ويقال لها الوزارة الصغرى ، وهو الذى ينظر فى المظالم اذا كان الوزير صاحب قلم . أما اذا كان الوزير صاحب سيف كان هو الذى ينظر فى المظالم .

وظيفة الاسفهلارية — وصاحبها اليه أمر الاجناد والتحدث فيهم وفي خدمته وخدمة صاحب الباب يقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

وظيفة حامل المظلة — وهو أمير جليل وله عندهم
التقدم والرفعة .

حامل سيف الخليفة — وهو كسابقه .

حامل رمح الخليفة — يحمل رمحا صغيرا مع الخليفة
في المواكب كما يفعل كل من حامل المظلة وحامل السيف .

حملة السلاح — وتزيد عدتهم على ألفى رجل لهم
اثنا عشر مقدما ، والأكابر منهم يندبون للأعمال السلطانية .

والى القاهرة — وله رتبة جليلة وحرمة موفورة ومكان
في موكب الخليفة .

ولاية مصر — (يريد الفسطاط) وهى دون ولاية
القاهرة .

هـ — (نظام أرباب الأقاليم فى الخلافة الفاطمية) وهى
ثلاث مجموعات : —

المجموعة الأولى — أرباب الوظائف الدينية وهم :

قاضى القضاة — وله النظر فى الأحكام الشرعية ، وقد
يجمع بين قضاء مصر والشام والمغرب . وإذا كان الوزير

صاحب سيف كان تقليده من قبله ، ويقف ببابه خمسة
حجاب ولا يقوم لأحد وهو بمجلس الحكم مهما كان قدره .

داعى الدعاة — ويلى قاضى القضاة فى الرتبة . ووظيفته
عندهم أنه يقرأ عليهم مذهب آل البيت بدار يقال لها

(دار العلم) . ويأخذ العهد على من يعتنق هذا المذهب .

المحتسب — وإذا صدر الأمر بتعيينه قرئء سجله على

المنبر ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
يشرف على الأسواق ويراقب الأخلاق العامة ، ولا يحال
بينه وبين مصلحة إراها ويقيم عنه النواب بالقاهرة ومصر ،
وكيل بيت المال — يفوض الخليفة الى صاحبها بيع
ما يرى يبعه من كل صنف ويحيز له عتق الممالك وتزويج
الاماء واعفاء الضمانات وانشاء ما يرى انشاء من البناء
والمراكب .

النائب — وهو هنا نائب صاحب الباب الذي تقدم
ذكره لأنه ينوب عنه في تلقي الرسل الواردين على الخليفة ،
وينزل كلا منهم في المكان اللائق به ويرتب لهم ما يحتاجون
اليه ويستأذن لهم على الخليفة ، وليس له أن يأخذ من أحد
من الرسل هدية ولا طرفة الا باذن .

القراء — وهم قراء الحضرة يزيدون على عشرة يأتون
في المجالس والمواكب بآيات مناسبة .
المجموعة الثانية — من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف
الديوانية وهم :

الوزير : اذا كان صاحب قلم ، كالوزير يعقوب بن كلس
والحسن اليازوري وأبى سعيد التستري وغيرهم .
صاحب ديوان الانشاء : وكان يشترط فيه أن يكون
رجلا معروفا بالبلاغة وكان يلقب (بالأجل) ويقال له (كاتب
الدست) ويستشير الخليفة في أكثر أموره وله حاجب من
الأمراء الشيوخ .

صاحب التوقيع بالقلم الدقيق : ويلي صاحب ديوان
الانشاء في الرتبة . واذا جلس الوزير صاحب السيف
للمظالم كان الى جانبه يوقع بما يأمر به في المظالم ، وهو
جليس الخليفة في أكثر أيام الأسبوع يخلو به ويذكره
ما يحتاج اليه من كتاب الله وأخبار السلف الصالح .

صاحب التوقيع بالقلم الجليل : وعمله تقييد ما يوقع
به صاحب القلم الدقيق . فاذا رفعت الشكاوى والمظالم
حملت الى صاحب القلم الرقيق فيوقع عليها بما يقتضيه
أمر الخليفة أو الوزير . ثم ترفع الى صاحب القلم الجليل
فيبسط ما أوجزه صاحب القلم الدقيق . ثم ترفع للخليفة
ليوقع عليها .

المجموعة الثالثة : من أرباب الأقلام هم المشتغلون
بديوان الجيش والرواتب وهم :

صاحب ديوان الجيش : ولا يكون الا مسلما . وبين
يديه نقباء الأمراء يعرفون أحوال الجند : من الحياة والموت
والحضور والغياب وغير ذلك . ومن هذا الديوان تخرج
أوراق أرباب الجرايات .

صاحب ديوان الرواتب : وعنده أسماء أصحاب هذه
الرواتب وأصحاب الجرايات ، وكذلك أخبار هؤلاء
والأحوال التي هم عليها وبهذا الديوان أكثر من عشرة
كتاب .

صاحب ديوان الاقطاع : وهو خاص باقطاعات الجند :

صاحب ديوان التحقيق : وعمل هذا الديوان المقابلة على
الدواوين ومراجعة حساباتها .

صاحب ديوان المجلس : وهو المتحدث في الاقطاعات .
وهو يخرج المقررات من الضحايا وما ينفق في عيد الفطر
وفتح الخليج وفي الأسمطة في رمضان وما يطلق من الغلال
ويطلق من مرتبات أولاد الخليفة وما يبعث به الخليفة من
الهدايا الى الملوك .

ثم أشار المؤلف بعد ذلك الى كل من :

صاحب ديوان الكسوة وصاحب ديوان الصعيد
وصاحب ديوان الطراز

وصاحب ديوان أسفل الأرض (يريد الوجه البحرى)

وصاحب ديوان الأحباس وصاحب ديوان الثغور

وصاحب ديوان الجهاد الخ ..

ثم اختتم حديثه عن وظائف الخلافة الفاطمية بالاشارة
الى وظيفة (الطبيب) ووظيفة (الشاعر) ووقف عند هذا
الحد .

وأما وظائف الولاة أو عمال الخليفة فقد كان مجموعهم
أربعا فقط وأولهم — والى قوص . وثانيهم — والى
الشرقية . وثالثهم — والى الغريفة . ورابعهم — والى
الاسكندرية .

وصف مصر

انتقل أبو العباس القلقشندي من ذلك الى موضوع من أهم الموضوعات التي عني بها الكتاب والمؤرخون في عصره وقبل عصره . وهذا الموضوع هو « وصف مصر » . فبدأ بذكر محاسنها التي امتازت بها عن سائر بلاد العالم . وكان هذا الحديث نوع من تعريف الشباب المصرى ببلاده حتى يزداد حبا وتقديرا وعظفا على بلاده .

يقول علماء النفس في وقتنا هذا ان تربية النزعة الوطنية في الأمة لا تكون الا بتربية (الادراك) و (الوجدان) و (النزوع) في نهاية الأمر .

فلكى يجب المصرى مصر ولكى يجب العراقى العراق ولكى يجب الفلسطينى فلسطين يجب عليه أن يعرف الكثير عن بلده وما لها من محاسن تمتاز بها عن سواها من البلاد . فاذا نمت له مرحلة الادراك على هذا النحو انتقل من ذلك الى مرحلة (الوجدان) أو الشعور بالعاطفة التي تربطه بهذا البلد بنوع خاص . فاذا تضافر الادراك والوجدان على هذا النحو كمل الشعور بحب الوطن الذي ينسب اليه الانسان . وكان من مظاهر كماله ونموه نزوع هذا المواطن الى عمل كل ما من شأنه رفعة الوطن والدفاع عنه في وقت الحرب ووقت السلم معا .

لعل هذه الفكرة هي التي كانت تدعو أسلافنا من الكتاب والمؤرخين في تلك العصور الى التأليف في موضوع « فضائل البلاد ». فهذا كتاب في فضائل مصر . وهذا كتاب في فضائل الفرس . وهذا كتاب في فضائل الشام وهكذا . ولقد كثر هذا النوع من الكتب في العصرين الأيوبي والمملوكي وهما العصران اللذان لهما الفضل كل الفضل على بقية العصور التاريخية التي مرت على مصر . ففي العصر الأيوبي طرد الصليبيون من البلاد العربية الى غير رجعة . وفي العصر المملوكي أجهز السلاطين على آخر صليبي في البلاد — هذا من جهة — واستطاعوا أن يردوا غارة التتار وأن يحموا البلاد الاسلامية من شرهم المخدق بهم — وهذا من جهة ثانية .

من أجل ذلك لا يدهشك أيها القارئ الحديث أن نرى الحديث عن فضائل مصر في أكثر الكتب التي ترجع الى هذا العصر . سواء كانت هذه الكتب أدبية أم تاريخية أم كتباً موضوعها (الخطط) كما هو الشأن عند المقرئزي . وأما طريقة القوم في التنبيه الى محاسن مصر فانها تبدأ بذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي قيلت في مدح هذه البلاد . وسواء كانت هذه الأحاديث النبوية صحيحة أم غير صحيحة فانها أفلحت في أن تترك آثارها العميقة في نفوس الشباب المصري وأن تخلق منهم مواطنين مخلصين لوطنهم مصر مستعدين من أجلها لكل بذل .

وينتقل المؤلفون من ذلك الى ذكر محاسن مصر ،
ويأتون في ذلك بالأحاديث الشائقة والعبارات الرائقة ومنها
على سبيل المثال في وصف هذه البلاد : ثلاثة أشهر لؤلؤة
بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكه سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة
خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء . لو ضرب بينها وبين
غيرها من البلاد سور لغنى أهلها بها عما سواها .

جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون « أليس لى
ملك مصر وهذه الأنهار — تجري من تحتى أفلا تبصرون » .
ثم ينتقل المؤلفون من ذلك الى ذكر الآثار المصرية
القديمة . وذكر نيلها العظيم وما له من عجائب وفضائل .
ولهم فى وصف منابع النيل أحاديث وأساطير يطول بنا القول
لو أردنا أن نطرف القارئ بها ونسليه بسردها .

وأما زيادة النيل فحولها أحاديث كثيرة أيضا ، منها أن
معاوية بن أبى سفيان قال يوما لكعب الأخبار : أسألك
بالله هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا ؟ قال :
أى والله — ان الله عز وجل يوحى اليه فى كل عام مرتين :
يوحى اليه عند خروجه فيقول : ان الله يأمرك أن تجرى
فيجرى ما كتب الله له .. ثم يوحى اليه بعد ذلك فيقول :
أن الله يأمرك أن تنزل فينزل .

ومن ثم لم يأخذ المسلمون أنفسهم فى مصر بما أخذ
الأقباط به أنفسهم قبل الاسلام من القاء عروس فى النيل
يزعمون أن النيل لا يحدث له فيضان بدونها .

ذكر عبد الرحمن بن عبد الحكم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين رحل شهر يؤونة : أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى بدونها . وهو أنه اذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من أبويها فأرضيناها فيها وزيناها بأفضل زينة وألقيناها فيه . فقال عمرو : هذا مما لا يكون في الاسلام . فأقاموا شهرى أيب ومسرى وهو لا يزيد كثيرا ولا قليلا . فلما رأى عمرو ذلك كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعرفه ذلك . فكتب اليه : لقد أصبت . وكتب رقعة الى النيل فيها :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر :
أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك » .
فألقاها عمرو بن العاص فى النيل وقد تهاى أهل مصر للخروج عنها . فأصبحوا يوم الصليب وقد بلغ فى ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

وأما نقص النيل فقد كانت له آثار سيئة على مصر والمصريين وتحدث عنها المؤرخون جميعا ومنهم أبو العباس القلقشندى . وقد تحدث كذلك عن مقاييس النيل وذكرها واحدا واحدا وأشار الى من بناء من الولاية والحكام فى عصر ما قبل الاسلام ثم فى عصر الاسلام نفسه بعد ذلك . ويتتقل المؤرخون من ذلك الى الحديث عن خلجان

مصر وهى ستة : خليج (المنهى) زعموا أن الذى حفره يوسف عليه السلام مخترقا اقليم الفيوم ، وخليج (القاهرة) الذى يكسر سده يوم وفاء النيل . وخليج (السردوس) زعموا أن هامان بناه لفرعون . وخليج (الاسكندرية) وخليج (منجا) قيل حفره أحد ملوك مصر بعد الطوفان . وخليج (دمياط) . قال المؤلف — ولم أقف على تفاصيل أحواله .

وأما بحيرات مصر فأربع وهى : بحيرة (الفيوم) وبحيرة (بوقير) وبحيرة (نستروه) قرب البرلس . وبحيرة (تنيس) بكسر التاء بآخر الدقهلية . ويتصل بها من جهة الغرب بحيرة (دمياط) وهى فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة . ويكتنف مصر من ناحيتى الشرق والغرب جبالان . ولكل منهما أسماء مختلفة بحسب المواقع التى يطل عليها . وأما زروع مصر ورياحينها وفواكهها فأصناف كثيرة منها القمح والذرة والشعير والأرز والعدس والبسلاء واللوييا والسمسسم والقرطم وقصب السكر والبطيخ والقثاء والملوخيا والقلقاس والبادنجان والتقنيط . ومن رياحينها الآس والورد والبنفسج والياسمين والنسرین والبان والريحان الفارسي على اختلاف ألوانه . ومن فاكهتها الرطب والعنب والتين والرماني والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى والسفرجل والموز والنبق والتوت والنارنج والليمون .

ومن محاسن مصر أن فاكهتها لا تدوم طول السنة
فيمله الناس . بل يأتي كل نوع منها في وقت دون وقت .
القواعد المصرية :

بعد أن فرغ المؤلف من ذكر طيور مصر ولحومها وذكر
حدودها وتخومها أرخ لابتداء عمارتها قبل الطوفان وبعده.
وساق الروايات الكثيرة في ذلك ثم ذكر قواعدها منذ القدم
الى زمان الممالك وهى مدينة (أمسوس) قبل الطوفان .
ومدينة (منف) بعد الطوفان . ثم مدينة (الاسكندرية)
التي بناها الاسكندر الأكبر ، ومدينة (قصر الشمع) التي
هى داخل الفسطاط .

أما قواعد مصر في الاسلام فهى (الفسطاط) و (القاهرة)
و (القلعة) .

وقد عنى أبو العباس على عادة المؤرخين في زمانه بذكر
ما يتصل بكل قاعدة من هذه القواعد الاسلامية الثلاث من
خطط وطرق وأسواق وجوامع وييمارسانات ومدارس
وآثار وأديرة ومنتزهات وبوابات وحارات ودور وقصور
وميادين وبساتين وبلغ من ذلك كله ما أراد .

الكور المصرية :

وانتقل أبو العباس من ذلك الى ذكر ما سماه
(كور مصر) فأشار منها في الاقليم الجنوبى أو الصعيد
الى عشرين كورة منها : الفيوم ، ومنف ، وكورة وسيم ،
وكورة دلاص ، وبوصير وأهناس ، والقيس (بسكون

الياء) وطحا ، وبثونط ، والأشمونين ، وسيوط ، واخميم ،
وقنا ، وكورة ققط والأقصر ، وقوص ، وكورة اسنا
وأرمنت ، وأسوان .

وأما أسفل الأرض (يريد الوجه البحرى) فيه ثلاث
وثلاثون كورة من أهمها :

كورة عين شمس ، وبسطة ، وطرايه ، وضان ، وكورة
الفرما والعريش ، وكورة بيا وبوصير ، وسمنود ، وتوسا ،
ودقهلية ، وكورة تينيس ودمياط ثم كورة رمسيس ومنوف ،
وطوه منوف ، وسخا ثم كورة صا ، وكورة شاس ، وكورة
خربتا (بكسر الخاء والباء) وكورة اخنا ورشيد والبحيرة ،
وكورة مريوط ، ثم كورة الطور ، وكورة القلزم ، وكورة
ايله (بسكون الياء) ومدين الخ ..

وكمادة الأدباء فى زمان المؤلف جنح أبو العباس
القلقشندى الى مزج العلم بالأدب . فكان يذكر محاسن
هذه البلدان أو الكور ويقرن ذلك بذكر الأشعار فى وصفها
ان وجدت . ومن ذلك على سبيل المثال :

لله يوم فى سيوط وليلة

عُمر الزمان بمثلها لا يغلط

بتنا بها والبدر فى غلوائه

وله بجنج الليل فرع أسط

والطير تقرأ والغدير صحيفة

والريخ تكتب والغمام ينقط

المعاملات في مصر :

كان الناس يتعاملون بالدنانير المسكوكة بديار مصر وهي من الذهب يكتب على أحد وجهيها اسم السلطان أو الخليفة وعلى الوجه الآخر كثيرا ما كان يكتب (محمد رسول الله) . وهناك الدنانير التي يؤتى بها من بلاد الروم أو الفرنج ترسم على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمانه . وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين للمسيح عليه السلام . ثم هناك الدراهم النقرة ثلثاها من فضة وثلثها الأخير من نحاس . ثم يأتي بعد ذلك (الفلوس) . كل ثمانية وأربعين فلسا منها بدرهم من النقرة . وهي قسمان مطبوع وغير مطبوع . والأخير منها مصنوع من نحاس مكسو أحمر وأصفر .

قال المؤلف : ثم فقدت هذه الفلوس من ديار مصر لغلو النحاس .

الموازين والمكاييل والمقاييس :

وأما الموازين فأولها الرطل المصرى وزنته مائة وأربعة وأربعون درهما ومنه يتفرع القنطار المصرى وهو مائة رطل .

ومن المكاييل القدح — وهو مختلف من جهة الى أخرى . ولكن القدح المصرى تقديره بالوزن مائتان واثنتان وثلاثون درهما . وكل ستة عشر قدحا تسمى وية . وكل ستة وتسعين قدما تسمى أردبا .

وأما المقاييس فصنفان : صنف للأراضى وصنف

للأقمشة فمقياس الأراضي يكون بقصبة تعرف (بالحاكمة)
نسبة الى الحاكم بأمر الله الفاطمي . وطولها ثمانية أذرع
باليـد .

وتقاس أرض البناء بالذراع ، وطول الذراع ثلاثة
أشبار بشبر رجل معتدل .

وأما الأقمشة فتقاس بذراع طوله كذراع اليد وأربع
أصابع مطبوقة .

أما الأسعار :

فأوسطها أن يكون الأردب القمح بخمسة عشر درهما .
والشعير بعشرة وبقية البقول على هذا الانموذج .

والرطل من اللحم أقل سعره نصف درهم . وغالبا
ما يكون أكثر من ذلك — وأما الدجاج فجيده بدرهمين
الى ثلاثة ، والدون منه بدرهم واحد . والسكر رطله بدرهم
ونصف . قال المؤلف : وقد بقيت هذه الأسعار الى ما بعد
الثمانين والسبعمئة للهجرة .

وأما أموال الدولة :

فهى على ضربين شرعى وغير شرعى . فمن الأول الخراج ،
والمال الناجم من المعادن . والمال المتحصل من الزكاة ، والمال
المسمى بالجوالى (وهو ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية
المقررة عليهم فى كل سنة) . وما يؤخذ عن تجار الكفار
الواصلين فى البحر الى الديار المصرية . والموارث الحشرية
(والمقصود بها أحوال من يموت وليس له من وارث معين) ،

وما يحصل من دار الضرب أو السكه بالقاهرة من ذهب وفضة ونحاس ونحو ذلك .

ومن المال غير الشرعى الذى تحصل عليه الدولة المكوس والضرائب التى يقررها السلطان كما يشاء وفى أى وقت شاء .

مواكب الخليفة الفاطمى فى مصر :

لا يستطيع مؤرخ يكتب فى تاريخ الدولة الفاطمية أن يغفل الحديث أيضا عن مواكب الخليفة وما كان من هيئة فيها . والخليفة فى بعض هذه المواكب جالس . وفى بعضها راكب . فأما المواكب التى يجلس فيها فهى :

١ — جلوسه فى المجلس العام أمام المواكب — وذلك بقاعة الذهب فى قصر الخلافة .

وللمؤرخين كلام طويل فى وصف هيئة الخليفة فى هذا الجلوس ودخول الأمراء وأصحاب الوظائف الكبرى عليه كل حسب درجته ومثول الوزير بين يدى الخليفة يقبل يديه ورجليه ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة على هذا النحو ثم يؤمر بالجلوس بعد ذلك .

٢ — جلوسه للقاضى والشهود فى ليالى الوقود الأربع من كل سنة . وهى ليلة رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه . وفيها يجلس الخليفة بباب الزمرد من أبواب النصر . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع

المحمول اليه من خزانة الخليفة موفودا من كل جانب ثلاثون شمعة وبين الصنفين مؤذنو الجوامع يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى . ويدعون للخليفة . والوزير بترتيب مقرر محفوظ . هذا عدا النواب والحجاب والأمراء والقراء حتى اذا وصلوا ساحة القصر فتح الخليفة طاقة من طاقات المنظرة ظهر منها برأسه ووجهه .. ثم يتقدم خطيب الجامع الأنور فيخطب كما يخطب على المنبر خطبة في فضائل هذا الشهر ويختم بالدعاء للخليفة .

٣ — جلوسه في مولد النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه يعمل عشرون قنطارا من السكر الفائق حلوى من جميع الأصناف ، وتعباً في ثلثمائة ضنية من النحاس ، وتوزع على قاضى القضاة وداعى الدعاة وعلى الخطباء والقراء . ويجلس الخليفة فى منظرة ويركب القاضى ومعه الشهود الى الجامع الأزهر .

ثم يستدعى القاضى ومن معه فيجتمعون تحت المنظرة . ثم تفتح احدى طاقات المنظرة ليظهر منها وجه الخليفة . ثم يشير أحد الأستاذين المحنكين بيده الى الجماهير صائحا أن أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ثم ينصرف الناس . وأما المواكب التى يركب فيها الخليفة فهى :

١ — ركوب أول العام .

٢ — وركوب أول شهر رمضان .

٣ — وركوب أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان .

٤ — وركوب عيد الفطر وعيد الأضحى .

٥ — وركوب المقياس يوم وفاء النيل .

٦ — وركوب فتح الخليج .

وللخليفة ووزرائه وأمرائه وكبار أخصائه وموظفيه هيئة يطول شرحها ولا نستطيع الاسهاب فيها كما فعل اللقلقشندى ومعاصروه من المؤرخين ورجال الأدب .

وختم أبو العباس حديثه عن الدولة الفاطمية بأروع قصيدة قيلت في رثاء هذه الدولة الفاطمية . ونعنى بها قصيدة الشاعر عمارة اليمنى وهى القصيدة التى أولها :

رमित يا دهر كف المجد بالشلل

وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة

على فجيعتها فى أكرم الدول... الخ

وهى قصيدة رائعة ذكر منها أبو العباس واحدا وأربعين

بيتا وشهرتها عظيم فى كتب التاريخ .

في مصر الأيوبية والمملوكية

بمثل ما تحدث المؤلف عن مصر الفاطمية أدار الحديث حول مصر الأيوبية مبتدئاً بما سماه (رسوم الملك) وهي : (السريز) ويقال له التخت ، و (المقصورة) وهي خاصة بالسلطان يؤدي فيها الصلاة بجامعه في قلعة الجبل ، و (نقش اسم السلطان) على كل ما ينسج أو يرقم من الكسوة والطرز ، و (القاشية) وهي سرج من اديم مخرز بالذهب ، و (المظلة) وهي قبة حرير أصفر مزركش بالذهب بأعلاها طائر من فضة ، و (الرقبة) يلبسها الفرس في العيدين ومصنوعة من أطلس مزركش بالذهب أيضا ، و (الأعلام) وهي عدة رايات كبيرة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها اسم السلطان وألقابه ورايات صغيرة صفراء تسمى السناجق ثم (الطبلخانة) و (الخيام) ، و (الكوسات) وهي قطع دقيقة من نحاس يدق باحداها على الآخر بايقاع مخصوص ، يثدق بها مرتين بالقلعة في كل ليلة وكذلك اذا كان السلطان في سفر تدار بها حول خيامه .

ثم انتقل الى ذكر الأعيان وأرباب المناصب ومنهم :

أرباب السيوف :

وعدتهم خمسة وعشرون . فهم على سبيل المثال :
(الأمراء) ويتصل بهؤلاء جند السلطان (أو الممالك)
و (جند الخليفة) و (جند البحرية) ومنهم كذلك (النائب
الكافل) وهو الذى يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان
ويوقع على المناشير ، وهو سلطان مختصر أو السلطان الثانى .
ثم منهم (الاتابك) — أو اتابك العساكر ، وأصله (اطابك)
ومعناه الولد الأمير . ومنهم (رأس النوبة) — وصاحبها
حاكم على احدى الممالك السلطانية ومنهم (أمير مجلس
السلطان) و (أمير سلاح السلطان) و (أمير خيول
السلطان) ، و (الدوادر) ووظيفته تبليغ الرسائل عن
السلطان . و (حاجب الحجاب) وهو القائم مقام النائب
فى كثير من الأمور . و (الجاندار) وهو الذى يستأذن على
دخول الأمراء على السلطان ويدخل أمامهم الى الديوان .
و (الاستدار) وهو المشرف العام على بيوت السلطان
وعلى الحاشية والعلمان . ثم (الجاشنكير) وهو المشرف
العام كذلك على السباط ويشترك مع الاستدار فى تربيته
وتنظيمه . ثم (الخاندار) ووظيفته الاشراف على خزائن
الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك . ثم
(مقدم الممالك) وهو المتحدث بلسانهم . ثم (المهمندار)
ووظيفته استقبال الرسل الواردين وأمراء العربان ممن يردون

على المملكة . ثم (ولاية الشرطة) وهم والى القاهرة ووالى
الفسطاط ووالى القرافة ثم والى القلعة .

وأما (نواب السلطنة) فموزعون على نيايات ثلاث هى
نياة الاسكندرية ، ونياة الوجه القبلى ، ونياة الوجه
البحرى وأما (ولاية الأقاليم) فموزعون على الأقاليم السبعة
التي تنقسم اليها الديار المصرية وهما : البهنسة ، والأشمونين
وقوص وأسوان وآسيوط (بالوجه القبلى) . ثم الشرقية
ومنوف والغربية والبحيرة (بالوجه البحرى) .

أما أرباب الأقاليم :

فمنهم أرباب الوظائف الديوانية وهم كثيرون لا سبيل
الى استيفائهم (كالوزير) — وهو أعظم رجل فى الدولة
لأنه يلى السلطان . (وكاتب السر) وهو الذى يقرأ الكتب
الواردة على السلطان ويحجب عنها . ويقرأ القصص (أى
الشكاوى) بدار العدل ويوقع عليها . (وناظر الخاصة)
وقد استحدث هذه الوظيفة السلطان الملك الناصر محمد بن
قلاوون حين أبطل الوزارة . وموضوعها التحدث فيما هو
خاص بمال السلطان . وصاحبها يدير الأمور التى كان
يتصرف فيها الوزير . وله موظفون كثيرون من دونه .

ثم (ناظر الجيش) و (ناظر البيوت والحاشية) و (ناظر
بيت المال) و (ناظر دار الضيافة) و (ناظر الأملاك
السلطانية) و (ناظر خزائن السلاح) . و (ناظر الطواحين

السلطانية) و (ناظر الحاصلات) و (ناظر الموارث
الحشرية) وهى أموال من يموت ولا وارث له . الخ ..
وأما أصحاب الوظائف الدينية من أرباب الأقاليم فمنهم :
قاضى القضاة — وهو رئيس القضاة الأربعة على
المذاهب الأربعة : مذهب الشافعى ، ومالك ، وأبى حنيفة ،
وأحمد بن حنبل . وقد جرى النظام على ذلك أيام الظاهر
بيبرس . وأما فيما قبل ذلك فقد كان يكتفى بقاض واحد .
قاضى العسكر — وقد استحدثت هذه الوظيفة زمن
الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى .

مفتى دار العدل — وهو أقل من القضاة الأربعة الذين
سبق ذكرهم .

وكيل بيت المال — ينوب عن السلطان فى مبيعات بيت
المال ومشترياته من أرض وعقار وغير ذلك .
المحتسب — وهى وظيفة دينية جليلة الشأن أشرنا إليها
من قبل .

تقيب الأشراف — يتحدث باسم هؤلاء ولكن ليس من
حقه الجلوس الى السلطان كما يجلس أصحاب الوظائف
السابقة .

شيخ الشيوخ — وهو الرئيس الأعلى للخانقاه التى
أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من
ضواحي القاهرة . وليس له أن يجلس كذلك الى السلطان .
ناظر الأموال المحبوسة — أى الموقوفة وصاحبها يرتب

أرزاق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس
والخوانق ولا يجلس إلى السلطان .

ناظر اليمارستان — والمراد به اليمارستان الذى بناه
الملك المنصور قلاوون فى جهة بين القصرين .

الخطيب — وهو الذى يخطب الناس من أعلى المنابر
فى الجمع والعيدى .

والمدرس — وهو الذى يتولى أمر التعليم فى المدارس
بإذن من السلطان وتعيين له .

وكما أعطانا القلقشندى صورة عن هيئة الخليفة فى
جلوسه مجلسا عاما وفى ركوبه فى المواكب العامة فكذلك
أعطانا صورة عن هيئة السلطان الأيوبى أو المملوكى فى كل
ذلك . وهى لا تختلف فى مجموعها عن الصورة الأولى .
فلا حاجة الى إعادة القول فى هذه الناحية .

الديار الشاميّة

وبالطريقة التي تحدث بها القلقشندی عن مصر تحدث
كذلك عن الشام . يبدأ بذكر محاسن هذه البلاد ، وما ورد
في مدحها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وما كتب في فضائلها من كتب .

وعجائبها كثيرة منها على سبيل المثال :
(عين صيرة) وهي عين ساخنة يقصدها الناس
للاستشفاء .

(وقبة العقرب) بمدينة حمص ترابها يمنع دخول العقرب .
(وادي الفوار) بالقرب من حصن الأكراد في
طرابلس . به سرداب يفور مرة واحدة في الأسبوع
فيسقى الزرع والأرض ويجف بقية أيام الأسبوع .
(حمام القدموس) تخرج منه حيات كثيرة لا تضر
أحدا مهما لدغته .

ومن أنهارها :

نهر الفرات وهو أجلها وأعظمها .
ونهر حماة ويسمى (العاص) — سمي كذلك لأنه
لا يسقى الأرض الا بطريق السواقي ، ويسمى كذلك بالنهر

المقلوب لأنه يجرى من الجنوب الى الشمال ، وغالب الأنهر
تجرى بالعكس .

نهر الأردن — وهو معروف .

ونهر العوجاء — ينبع من جبل الخليل ويجرى من الشرق
الى الغرب ويصب في بحر الروم عند ارسوف .

نهر جيحان ، ونهر سيحان — وهما معروفان .

نهر بردى — وهو الذى يسقى مدينة دمشق .

ومن بحيراتها :

بحيرة طبرية ، وبحيرة بانياس مقابل دمشق . وبحيرة
البقاع غربى بعلبك . وبحيرة دمشق . وبحيرة قدس (بفتح
القاف والdal) بقرب حمص . وبحيرة افامية بقرب مدينة
أفامية يصب فيها نهر العاص . وبحيرة أنطاكية وفيها من الطير
والسمك شيء كثير .

ومن جبالها :

جبل الثلج ويسمى الجانب المقابل منه لبعلبك جبل
لبنان . وفي مقابل طرابلس يسمى جبل عكتار . وفي مقابل
حماة يسمى جبل اللكام (بضم اللام) .

جبل عاملة — يمتد شرقى بحر الروم الى قرب صور .

جبل عوف — بالقرب من عجلون .

جبل الصلت — نسبة الى مدينة الصلت .

ومن زرعها وفاكهتها :

القمح والشعير والذرة والبقلاء والبسلة والجلبان -
واللوية والحلبة والسمسم والقرطم . ولا يوجد به الكتان .
ومن الفاكهة العنب والتين والرمان والقراصيا والبرقوق
والشمش والخوخ (ويسمى بالدراقية) والبرقوق والتفاح
والكمثرى والسفرجل وشيء من قصب السكر . وبها من
المزروعات ما ليس بمصر من ذلك البندق والاجاص والزيتون
(وهو كثير جدا) . ولا يوجد البلح والرطب أصلا .

ثم قال المؤلف وللناس في الشام أقوال :

فمنهم من لا يجعله الا شاما واحدا .

ومنهم من يجعله شامات كثيرة . فشام (يقصد فلسطين

الى الأردن) . وشام (يقصد به دمشق وما حولها) .

وسوريا (ويقصد بها حمص وحماة وشيزروقتسرين) .

وأما عكا وطرابلس وكل ما هو على الساحل فكل ما قابل

منه شيئا من الشامات السابقة حسب منه .

وقد أفاض المؤلف بعد ذلك في وصف قواعد الشام

الست وهي : دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك

أما دمشق :

ف قيل ان الذى بناها هو الاسكندر ذو القرنين . ووكل

لعمارتها غلاما له اسمه (دمشقش) فسميت باسمه . وهي

مدينة عظيمة البناء ذات سور شاهق ولها سبعة أبواب :

باب كيسان ، وباب شرقى ، وباب توما ، وباب الصغير ،

وباب الحَيَّانية ، وباب القرايس ، والباب المسدود . وقد جعل كل باب من هذه الأبواب السبعة لكوكب من الكواكب السبعة وهى على الترتيب : زحل والشمس والزهرة والمشتري والمريخ وعطارد والقمر .

وأما قلعتها فناحية الغرب بناها الظاهر بيبرس وعلى مثالها بنى الناصر محمد بن قلاوون (القصر الأبلق) بقلعة الجبل بمصر .

و (جامع بنى أمية) بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين للهجرة . وأتفق فى بنائه أموالا جمة . وبهذه الطريقة تحدث القلقشندى عن العواصم الخمس الباقية .

ملوك الشام قديما وحديثا :

ملك الشام فى الجاهلية طبقات أربع من الملوك
أولها — ملوك من الكنعانيين .
والثانية — ملوك من بنى اسرائيل .
والثالثة — ملوك من الفرس .
والرابعة — ملوك من اليونان .
والخامسة — ملوك من الرومان .
وأما فى الاسلام فقد حكمها :
أولا — ولاية من الصحابة أولهم (أبو عبيدة بن الجراح) من قبل عمر رضى الله عنه .
ثانيا — ولاية من قبل بنى أمية .

ثالثا — ولاية من قبل بنى العباس .

ثم ملك الشام بعد ذلك :

أحمد بن طولون الذى أخذ دمشق سنة ٢٦٤ هـ

وذلك أول اجتماع لمصر والشام لملك واحد فى الاسلام .

ثم ملكها بعده خمارويه فهارون بن خمارويه .

ثم المكتفى بالله الخليفة العباسى سنة ٢٩١ هـ .

ثم الأخشيد بن طغج سنة ٣٢٣ هـ .

ثم وليها (أونوجور) ابنه وقام بتدبيره كافور الأخشيدي

ثم انتزعها منه سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب .

ثم استردها كافور .

ثم جاءت الدولة الفاطمية فملكها جوهر الصقلی

قائد المعز .

ثم غلب عليها بنو سلجوق وملكوها سنة ٤٩١ هـ .

ثم انتزعها من أيدي السلجوقيين الأمير نور الدين محمود

ابن زنكى . ومات فملكها من بعده الصالح اسماعيل . وبقي

بها حتى انتزعها منه السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة

٥٧٠ هـ . وبقيت دمشق بأيدي أولاده من بعده حتى أخذها

منهم عمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ثم صارت بعد

ذلك للملك الصالح نجم الدين أيوب وذلك فى سنة ٦٤٣ هـ .

ثم كانت دولة المماليك فملكها الملك المنصور قطز .

وتوالى عليها سلاطين المماليك حتى زمان المؤلف .

وبنفس هذه الطريقة بسط لنا القول فيمن ملكوا

الشامات الأخرى أو القواعد الأخرى كحلب وحماة
وطرابلس .

وظائفها :

أرباب السيوف ومنهم .
١ — نائب السلطان : ويعتبر عنه (بكافل السلطنة
الشريفة بالشام) .

٢ — نائب القلعة . وهو منفرد عن نائب السلطنة .

٣ — حاجب الحجاب — وعددهم ثلاثة .

٤ — نقيب القلعة .

٥ — ونقيب النقباء .

ثم الخازن دار ، ونقيب الجيش ، وصاحب المهمات ،
وصاحب الأوقاف ، وصاحب الزكاة ، (ويعبرون عن كل
واحد من هؤلاء باسم شدة) ثم أمير البريد .

الوظائف الديوانية :

وعدها عشر منها :

الوزارة — وكتابة السر — ونظر الجيوش — ونظارة

المهمات — ونظارة الخزانة — ونظارة اليمارستان —

ونظارة السلاح — ونظارة البيوت — ونظارة بيت المال —

ونظارة الأسواق .

الوظائف الدينية :

وهي عدة وظائف منها :

قاضي القضاة — قاضي العسكر — مفتي دار العدل —

وكيل بيت المال — تقيب الأشراف — شيخ الشيوخ —
المحتسب — الخطيب — المدرس .
بطونها العربية :

أولاهها — آل ربيعة من طي من كهلان من القحطانية —
ظهروا في أيام نور الدين محمود بن زنكي وعلا أمرهم منذ
ذلك التاريخ .

والثانية — جرم بسكون الراء ببلاد غزة والداروم مما
يلقى الساحل الى بلد الخليل عليه السلام .

والثالثة — ثعلبة من طي — وديارهم مما يلى مصر الى
الخروبة .

والرابعة — بنو مهدي ومنازلهم من البلقاء الى
الصوان .

والخامسة — زيد .

المملكة الحجازية

بدأ المؤلف كلامه عن الحجاز بذكر فضائله كالمعتاد .
وحسبه فضلا على سائر البلاد أن يكون مهبط الوحي ،
ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومقر الكعبة ، ومقام
ابراهيم عليه السلام .

وقد نزل الحجاز من عرب البادية في أول نشأته عرب
طسم وجديس ثم هلك هؤلاء . وعمر الحجاز من بعدهم
(جرهم الثانية) — وهم الذين اتصلوا باسماعيل عليه السلام
حين أسكنه أبوه ابراهيم بمكة ، وتزوج منهم . ثم أتت
قريش فاستعمرت الأرض وبقيت بها الى ما شاء الله .
وأما تسميتها بالحجاز فلأنها حجزت بين نجد وتهامة
وامتدت بينهما .

عيون الحجاز وجباله :

ليس بالحجاز أنهار ولكن به عيون كثيرة متفجرة من
الجبال التي هي أكثر من أن تعد ومنها :
جبل قيقعان ، وجبل حراء ، وجبل ثور ، وجبل ثبير .
وأما زروعه ومواشيه :

فمنها القمح والذرة والشعير والسلنت ، وكلها تزرع
على المطر أو على ماء العيون . ثم القثاء والثوم والبصل

والكرات . ثم العنب والموز والتفاح والسفرجل .
ومن المواشي : الابل ، والضأن ، والمعز ، والخيول ،
والغزلان ، وحمر الوحش ، والذئاب ، والضباع ، والثعالب .
قواعد الحجاز ثلاثة هي :
مكة ، والمدينة ، والطائف .

اما مكة

فقد سميت كذلك لقلة مائها . ولها ستة عشر اسما
ومنها : مكة ، بكة ، أم القرى ، أم رحم (بضم الراء) ،
البلد الأمين ، الباسة ، الناسة ، النساسة ، الحاطمة ، القدس ،
القدوس ، المقدسة . وكثرة الأسماء عند العرب تدل على
شرف المسمى .

وبها الكعبة وهي أول بناء تم فيها على يد : ابراهيم
الخليل واسماعيل عليهما السلام . ولم يجعلها للكعبة سقفا
وتهدمت الكعبة وبنيت مرات كثيرة . وكانت قريش هي التي
بنتها في آخر مرة . وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم
يومئذ خمسا وعشرين سنة . وأصبح للكعبة اذ ذاك سقف .
وأصبح لها باب مرتفع فوق الأرض . ثم احترقت الكعبة حين
حوصر ابن الزبير بمكة فهدمها ابن الزبير وأعاد بناءها وجعل
لها بابين أحدهما شرقي والآخر غربي . وجعل على بابها مفتاح
من الذهب . وبلغ بها في العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما
مات ابن الزبير كتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج يأمره
باغادة بنائها على ما كانت عليه زمن النبي من بناء قريش .

قال المؤلف : ثم جدد المتوكل رخام الكعبة وأزرها
بالفضة وألبس حيطانها وسقفها الذهب . وهو على ذلك
الى الآن .

وللكعبة أربعة أركان : أولها — ركن الحجر الأسود
ومنه يتبدى الطواف . وثانيها — الركن الشامي ، وثالثها —
الغربي ، ورابعها اليماني .

أما (الحرم) فهو ما يحيط بمكة مما يحرم صيده وقطع
شجره .

ملوك مكة قبل الاسلام وبعده :

قالوا ان أول من ملكها بعد الطوفان معاوية بن بكر بن
عوذ (بسكون الواو) بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام .
ثم حكمها جرهم بن قحطان ، ثم حكمها عبد المدان (بفتح
الميم) ، ثم ملكها ابن مضاص . وأما سدانة البيت ومفاتيحه
فكانت في يد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وأيدي
أولاده من بعده . ثم انتقلت سدانة البيت الى فزاعة بن الأزد
من بني كهلان ، وبقي بأيديهم حتى انتهت الى رجل منهم
يقال له « أبو غنشان الخزاعي » ورئيس قريش يومئذ قصى
ابن كلاب . فلما سكر أبو غنشان اشترى قصى سدانة البيت
منه بزرق خمر وتسلم المفاتيح وأشهد عليه بذلك . ثم أرسل
ابنه عبد الدار بالمفاتيح الى البيت فرفع صوته وقال :
« يا معشر قريش : هذه المفاتيح مفاتيح بيت أبيكم اسماعيل
قد ردها الله عليكم من غير غارة ولا غدر » . فتسلموها منه .

فلما صحا أبو غبشان ندم حيث له لا ينفعه الندم . قال
الشاعر :

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت
بزق خمر فبئست صفقة البادى
باعت سداتها بالنزر وانصرفت

عن المقام وظل البيت والنادى
ولما تم لقصى ذلك بنى (دار الندوة) بمكة ، فكانت
قريش تقضى فيها أمورها . ولم تزل الرياسة فى قصى هذا
وفى بيته بعد ذلك . وأما بنوه فهم : عبد مناف ، وعبد الدار ،
وعبد العزى . واستقرت الرياسة العظمى لبنى عبد مناف .
وكان له من الولد هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل .
وكان هاشم أرفعهم قدرا واليه انتهت سيادة قومه ، وكانت
قريش تجارا . وكانوا يرحلون فى الشتاء الى الشام وفى
الصيف الى اليمن . ثم ولد لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة
فيه وكانت بئر زمزم قد انطمست فحفرها عبد المطلب .

وأما سداة البيت ومفاتيحه فبقيت بيد بنى عبد الدار .
ابن قصى . وانتهت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم الى
عثمان بن حكيم بن عبد الدار . فلما دخل النبى مكة يوم
الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع
المفتاح اليه . فأتى على بن أبى طالب ولوى يده وأخذ منه
المفتاح وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة
وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله عمه العباس أن يعطيه المفتاح

ويجمع له السدانة والسقاية فنزل قوله تعالى « ان الله يأمركم
أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » . فأمر النبي عليا برد المفتاح
الى عثمان والاعتذار اليه . فقال عثمان : أكرهت وآذيت ثم
جئت ترفق !! فقال له علي : لقد أنزل الله تعالى في شأنك
قرآنا ، وقرأ عليه الآية . فقال عثمان : أشهد الا اله الا الله
وأن محمدا رسول الله . وهبط جبريل عليه السلام على
محمد صلى الله عليه وسلم وأخبره أن السدانة في ولد عثمان
الى الأبد . فهي باقية الى الآن .

(أما كسوة الكعبة) فكانت في الجاهلية من الحبر
والبرود اليمنية . وكانت قريش تقسم هذه الكسوة على
القبائل كل بحسب طاقتها واحتمالها حتى نشأ أبو ربيعة بن
المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . وكان يتجر في اليمن
حتى أثرى فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة وحدي سنة
وجميع قريش سنة . فكان يفعل ذلك حتى مات .

وفي الاسلام كسا النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة
بالبثياب اليمنية ، ثم كساها عمر وعثمان بالقباطي كان يأتي
بها من مصر ، وقيل أن الزبير كان أول من كسا الكعبة
بالدياج ، وكذلك فعل عبد الملك بن مروان . ولما حج
المهدي سنة ٢٦٠ هـ شكوا الناس اليه من أن ثياب الكعبة قد
أثقلتها حتى ليخشى على جدرانها من هذا الثقل . فأمر بنزع
هذه الثياب وكسا الكعبة من جديد خزا ودياجا وبقاطي .
ثم استغنى عن ذلك وعاد فكساها كسوتين خفيفتين رقيقتين .

ثم في عهد المأمون كسيت الكعبة بالديباج الأبيض فقط .
واستمر الخلفاء العباسيون يعنون بالكعبة على هذا الوجه .
ثم في أيام المماليك استقر الحال على أن تلبس الكعبة كسوة
واحدة في كل سنة .

المدينة المنورة :

واسمها القديم يثرب وسمّاها النبي طيبة (بفتح الطاء)
وطابة ثم من أسمائها : الجابرة ، والمحبوبة ، والقاصمة ،
والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة ، وغلبة (بضم الغين)
لأن الأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود . وسمّاها الله تعالى
الدار بقوله « والذين تبوأوا الدار والأيمان من قبلهم » .
قيل أن أول من بناها تبع الأول من ملوك حمير . وزعم
الناس أنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يدركه .
وحكوا في ذلك الأقاصيص .

ويقع في شماليها جبل (أحد) . وفي جنوبيها جبل
(عَير) . وبخارجها خندق محفور هو الذي حفره رسول الله
في يوم الأحزاب . وحولها سور عظيم بناه اسحق بن محمد
الجعدي سنة ٢٣٠ هـ . وجدده عضد الدولة بن بويه سنة
٣٧٢ هـ .

وللمدينة أربعة أبواب . وفي وسطها مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وكان على عهده مبنيًا باللبن ومسقوفًا
بالجريد . ولم يزد أبو بكر عليه شيئًا وغنى به عمر ، ثم زاد
فيه عثمان زيادة ظاهرة . وبني جداره بالحجارة المنقوشة

وبالفضة . ووسعه المهدي سنة ١٦٦ هـ وزاد فيه المأمون زيادة كبيرة سنة ٢٠٢ هـ ولم تزل الملوك تتداوله بالعمارة الى زمان المؤلف . وبه الحجرة الشريفة التي بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم . وبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

واحترق المنبر سنة ٦٥٤ هـ أيام المستعصم بالله وشغل المستعصم عن عمارته بقتال التتار ، فصنع المظفر صاحب اليمن منبرا جديدا وبعث به الى المدينة سنة ٦٥٦ هـ . ثم أزيل هذا المنبر ووضع مكانه آخر بعث به الظاهر بيبرس صاحب مصر وهو الذي بقى الى زمان المؤلف .

ويقع البقيع في خارجها من ناحية الباب الشرقي وهو مدفن أهل المدينة أو أكثرهم ، ومن بينهم ابراهيم بن النبي عليه السلام من مارية القبطية . وبه قبر الحسن بن علي بن أبي طالب وقبر العباس . وقبر عثمان وقبر الامام مالك صاحب المذهب .

ومن قرى المدينة (قباء) وبها المسجد التقوى الذي ذكر في القرآن (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه الخ) . وقرية (خيبر) ، وخيبر في لغة اليهود معناها الحصن . وقرية (فدك) بفتح الدال ، وكان أهلها قد صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على النصف من ثمارها في سنة أربع من الهجرة ، فكانت له صلوات الله عليه وسلامه خالصة . ثم (الصفراء) وقرية (ودان) وقرية (الفرع) بضم الفاء ، وقرية (الجار) وهي بمثابة ميناء للمدينة لأن بينها وبين

الساحل ثلاث مراحل . وقرية (وادى القرى) وأكثر أهلها
من ولد أبى طالب . ومن القدماء من غدوا (تيماء) من قرى
المدينة . وبها الحصن المعروف بالأبلق المنسوب الى السمؤال .
وكذلك الشأن مع قرية يقال لها (دومة الجندل) وأخرى
يقال لها (مدين) .



الى الآن تحدثنا عن ثلاثة فقط من الأبواب التى تنقسم
اليها المقالة الثانية وعددها خمسة . قلنا أن الأخيرين منها
يختصان بالممالك المحيطة بالديار المصرية من كل جهة . وعن
الممالك التى بأيدي المسلمين من بلاد الروم ، والممالك التى
بأيدي المسيحيين من تلك البلاد . فى هذين البابين الأخيرين
من أبواب المقالة الثانية استطاع القلقشندى أن يمد كاتب
الانشاء بجميع المعلومات التاريخية والجغرافيا الخاصة بكل
من الممالك الآتية :

مملكة إيران : وما تشتمل عليه من البلاد التى تقع فى
جنوبها كالفرات ، والعراق ، وخوزستان ، والاهواز ،
وفارس ، وكرمان ، وسجستان ، والبلاد التى تقع فى
شمالها كآرمينية ، واذريجان ، وبلاد الجبل ، وبلاد الديلم ،
وطبرستان ، ومازندان ، وقومس ، والغور . ثم بلاد ما وراء
النهر ، وتركستان ، وطحارستان ، وبلرخشان ، وخوارزم ،
والتيجاق ، ومملكة القان الكبير .

مملكة اليمن : وبها التهامم واليمن المنجود .

بلاد البحرين : ...

بلاد اليمامة : ...

مملكة الهند والسند : ...

مملكة تونس : ويتصل بهذه الأخيرة ممالك تلمستان ،
ودير العدو ، وجبال البربر ، ومملكة قشتالة ، ومملكة
نيره مما يلي قشتالة وبرشلونة .

بلاد السودان : وبها البجا ، والنوبة ، والكاثم .

ومملكة الحيشة : وبها بلاد اسلامية وأخرى نصرانية .

وببلاد الروم : وهى قسمان : أحدهما ما بيد المسلمين
وما بأيدي الفرنج ومن الأخيرة :

مملكة القسطنطينية ...

ومملكة الألمان ...

ومملكة البنادقة ...

ومملكة الجنوبيين ...

ومملكة رومية (روما) ...

ومملكة الفرنج الصغيرة ...

ومملكة الجلائقة ...

ومملكة اللومبارد ...

وأنت معى أيها القارئ أننا لا نستطيع أن نتابع
القلقشندي في سرد المعلومات الجغرافية والتاريخية عن كل
هذه الأقطار لأن مساحة هذا الكتاب الذى بين يديك لا تتسع

لذلك . وحسبك اذن أن تعرف أن المؤلف فصل صورة دقيقة
عنها للقارئ العربي في زمانه . وهى صورة تعرضت بعد
ذلك لكثير من الأحداث التى عرضتها لكثير من التغييرات .
وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت ولها صورة مخالفة تماما
للصورة القديمة .

المقالة الثالثة

الفصل التاسع

الثقافة الديوانية

الى جانب الثقافة اللغوية الأدبية ، والثقافة الجغرافية التاريخية لابد لكاتب الانشاء في نظر القلقشندى من أن تكون له ثقافة ديوانية — ان صح هذا التعبير . وفي هذه الثقافة الديوانية كتب القلقشندى مقالاته الثالثة من موسوعته المشهورة صبح الأعشى في صناعة الانشا . وتناول في هذه المقالة أربعة أغراض :

- الأول — الأسماء والكنى ونظام الألقاب في الدولة .
 - الثاني — مقادير قطع الورق وما يناسب كل قطع منها من الأقلام .
 - الثالث — الطريقة التى تكتب بها ملخصات القصص والمظالم ونحو ذلك .
 - الرابع — الفواتح والخواتيم .
- وقد اشتملت هذه المقالة عن ٣٧٥ صفحة من الموسوعة يمكن تلخيصها فيما يلى :

(الأسماء والكنى والألقاب)

عرفت اللغة العربية الاسم والكنية واللقب . فالاسم

ما دل على مسمى . والكنية ما صدرت بآب وأم . واللقب ما دل على صفة من صفات المدح أو الذم .
بدأ القلقشندي مقالته بالحديث عن الأسماء وفلسفة الأسماء عند العرب وغيرهم . فقال : ان أكثر الأسماء انما تؤخذ من البيئة المحيطة غالبا . ومن عادة العرب أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء ما فيه معنى البأس والقوة كمحارب ومزاحم ، ولمواليهم ما فيه معنى التفاؤل والسعادة كنجاح ومبارك . ومن أقوالهم في ذلك « أسماء أبنائنا لأعدائنا وأسماء « موالينا لنا » . ومن عادة الترك أنهم يراعون في أسمائهم معنى الجلالة والقوة أيضا فيتسمون باسم « بغا » ومعناه (الفحل) . وأما الأمم المتمدنية فتختار أسماء الأبناء والصحابة ومن اليهم .

وأما في المكاتبات فتذكر الأسماء في موضع الخضوع والتواضع كان تقول « من فلان الى فلان » . وأما المكتوب اليه فيحسن ترك التصريح باسمه فان في ذلك تعظيما له . لذلك لم يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في القرآن تشريفا لمقامه ، فلم يقل يا محمد أو يا أحمد كما قال يا آدم ، يا نوح ، يا ابراهيم ، يا موسى ، يا عيسى . بل قال (يا أيها الرسول) ، (يا أيها النبي) .

أما في (الكنى) فالأمر على خلاف ذلك . فمن الأدب عند العرب أن يخاطب أهل الفضل ومن اليهم بالكنية حتى في الخلفاء والملوك ، وبالغوا في ذلك حتى كنوا من اسمه في

الأصل كنية ، فقالوا في (أبي بكر) (أبا المناقب) . وما زال
التعظيم بالكنى في الخلفاء والملوك الى زمان المؤلف .

وفي عامة الشعب العربي يكنى الرجل بولده أو بنته ولذا
كنى النبي صلى الله عليه وسلم بأبي فاطمة وأبي الزهراء
وأبي القاسم ، وكذلك الشأن في النساء .

وأما الكنية في المكاتبات فأول من اكنى في كنيته
« الوليد بن عبد الملك » . والأدب ألا يذكر الرجل كنيته في
كتاب صدر عنه ما لم تكن أشهر من اسمه .

وأما الألقاب فقد استعملها الناس منذ القدم فلقب
إبراهيم عليه السلام بالخليل ، وموسى بالكليم ، وعيسى
بالمسيح ، ويونس بذي النون . وكان النبي صلى الله عليه
وسلم يلقب قبل البعثة بالأمين . ولقب أبو بكر بالصديق .
ولقب عمر بالفاروق ، ولقب حمزة بأسد الله . ولقب جعفر بن
أبي طالب بعد استشهاد بذي الجناحين .

وأما الخلفاء من بني أمية فلم يلقب أحد منهم بلقب
ولكن خلفاء بني العباس هم الذين حرصوا على أن يكون
لكل منهم لقب . ومنهم السفاح والمنصور والهادي والمهدي
والرشيد والأمين والمأمون الخ . ثم وقع اللقب كذلك لأرباب
السيوف وقواد الجيش . فلقب أبو مسلم الخراساني « بأمين
آل محمد » . ولقب أبو بكر محمد بن طعج (بالأخشيدي) .
والأخشيدي لقب على الملك بفرغانة .

ثم وقع التلقب بعد ذلك بالاضافة الى الدولة في أيام

المكتفى بالله . ف قيل للمكتفى « ولى الدولة » وللمقتدر
« عبد الدولة » . ثم أتت الدولة البويهية فسارت على هذه
الخطبة .

واستمر الحال على ذلك حتى أيام القادر بالله فأصبح
التلقب بالاضافة الى الدين بعد أن كان بالاضافة الى
الدولة . وكان أول من لقب بهذه الطريقة « أبو نصر بهاء
الدولة بن عضد الدولة بن بويه » فريد على لقبه (نظام
الدين) . وأفراط الناس في ذلك إفراطا شديدا الى زمان
المؤلف . وكان الكتاب منذ أواخر للدولة الفاطمية الى أواخر
الأيوبية يلقون (بالفاضل) و (الرشيد) و (العماد)
وما أشبه ذلك .

معاني الألقاب :

١ — الخليفة : من قوله تعالى (انى جاعل فى الأرض
خليفة) . ولا يسمى أحد خليفة الله الا آدم عليه السلام ،
وداود عليه السلام . فقوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفة
فى الأرض) . وعليه خوطب أبو بكر بخليفة رسول الله ،
وأبى أن يخاطب (يا خليفة الله) . وروى أن عمر بن الخطاب
سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان عن الفرق بين الخليفة
والملك — فقال طلحة والزبير : لا ندرى ، وقال سلمان :
الخليفة الذى يعدل فى الرعية ويقسم بينهم بالسوية ،
ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، والوالد على ولده ،
ويقضى بينهم بكتاب الله تعالى . فقال كعب : ما كنت أحسب

أن في هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والملك ، ولكن الله
ألمهم سلمان حكما وعلما .

الملك — أو المليك أو الملك بسكون اللام ، وهو الزعيم
الأعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة — هذا وللملوك
ألقاب كثيرة في شتى الممالك ، فالتتابعة (ملوك اليمن) ،
والأكاسرة (ملوك الفرس) ، والفراعنة (ملوك مصر) ،
والقيصرية (ملوك الروم) ، والكنعانيين (ملوك الشام) ،
والجلالقة (ملوك الفرنج) ، والأخشيد (ملك فرغانة)
والافشين (ملك اشروسنة) ، والفرنسييس (ملك فرنسا) ،
والدوك (ملك البندقية) ، والنجاشي أو الحطى بكسر الحاء
(ملك الحبشة) .

السلطان : وأول من لقب به خالد بن برمك وزير الرشيد
ثم انقطع التلقب به الى أيام بني بويه ، فتلقبوا به ثم تبعهم
السلاجقة وما زال معروفا الى زمان المؤلف . ومعنى السلطان
في اللغة الحجة . قال تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان » .
وسمى السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية يجب الانقياد
اليه . والفقهاء يطلقون السلطان على أى حاكم حتى على
القاضي ، فيقولون فيما ليس لها ولي خاص : يزوجه
السلطان أى يزوجه القاضي .

الوزير : وأول من لقب به في الاسلام أبو سلمة بن
الخلال وزير السفاح ، وهو اما (وزير تفويض) كما كان
الوزراء بالديار المصرية من لدن بدر الجمالي الى حين اقراض

هذه الوظيفة . وأما (وزير تنفيذ) وهو مجرد وسيط بين
الامام والرعية . ولذا كانت الوزارة يعبر عنها في الدولة
الفاطمية بالوساطة .

الأمير : وهو رئيس الجيش أو الناحية ونحو ذلك مما
يؤليه الامام .

الحاجب : وهو في الأصل مبلغ الأخبار من الرعية الى
الامام وهي وظيفة قديمة ابتدأت بابتداء الخلافة ، فكان
حاجب أبي بكر مولاة (شديدا) ، وحاجب عمر مولاة
(يرفأ) ، وحاجب عثمان « حمران » ، وحاجب علي مولاة
(قنبرا) بضم القاف وهكذا .

ثم تصرف الناس في هذا اللقب ووضعوه في غير موضعه
حتى كانت خلافة بني أمية في الأندلس فأطلق هذا اللقب
أحيانا على من قام مقام الخليفة في الأمر .

أما في الدولة الفاطمية بمصر فكانوا يطلقون عليه
« صاحب الباب » . أما في زمان المؤلف فهو رجل يقف بين
يئدي السلطان في المواعيد لينقله ضرورات الرعية ويركب
أمامه بعضى في يده .

صاحب الشرطة : وكان يعبر عنه في زمان المؤلف
(بالوالي) .

وكل هذه الألقاب المتقدمة هي ألقاب أرباب السيوف .
أما ألقاب أرباب الأقلام فمنها :

القاضي : يفصل بين المتداعين في الأحكام الشرعية .

والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم ولي القضاء باليمن
على بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشعري .
وان أبا بكر ولي القضاء عمر بن الخطاب الخ ..

المحتسب : وهو القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، والمتحدث في أمر المكاييل والموازين ونحوهما .
والمحتسب في اللغة معناه المجتهد . وأول من قام بهذا العمل
في الاسلام عمر بن الخطاب . وصنع لذلك الدرة التي كان
يحملها في يده ليضرب بها المسمى ويردع بها المخالف .

الكاتب : وكان يراد به في الزمن الأول (كاتب الانشاء)
ثم تغير الحال بعد ذلك ، إلى أن صار يطلق كذلك على كاتب
المال . هذا — وهناك بعض الألقاب تلحق بها ياء النسب تعظيما
وتفخيما على عادة العرب . فنقول : السلطاني ، والملكي ،
والأميري ، والعالمي ، والقضائي . والعرب اذا أرادوا المبالغة
في شيء أدخلوا عليه ياء النسب في آخره . وهذا النوع
الآخر من الألقاب موجود بكثرة في كتب القاضي الفاضل
والعماد الأصفهاني . وأكثر كتاب للدولتين الأيوبية والمملوكية .

وهناك ألقاب كانت تستخدم في الدولة الفاطمية ثم تركت
ونسيت فيما بعد ذلك ومنها لقب صاحب المظالم ، وصاحب
الصلاة ، وداعي الدعوة .

تلك هي الألقاب الاسلامية المعروفة . وهناك ألقاب
محدثة بعضها عربي وبعضها تركي وبعضها فارسي . أما العربي
فمنه ما يلي :

النائب : لقب للقائم بأمر السلطان في عامة أموره
أو أغلبها ، والنائب عن السلطان بالحضرة يقال له « النائب
الكافل » ، وقد يسمى بكافل الممالك الإسلامية أو بكافل
السلطنة ونحو ذلك .

ملك الأمراء : وهو لقب لكافل المملكة أو نائب السلطنة ،
رأس قوية : لقب على الذي ينفذ أمره على ممالك
السلطان .

أمير مجلس : لقب على من يتولى أمر مجلس السلطان .
أمير سلاح : لقب على الذي يتولى أمر سلاح السلطان .
مقدم الممالك : لقباً على الذي يتولى أمر ممالك
السلطان .

أمير علم : لقب على الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية .
مقيس الجيش : لقب على من يتكفل باحضار من يطلبه
السلطان من الأمراء والأجناد .

ومن الألقاب الأعجمية ما يلي :

١ الاستدار : يكرر الهمزة — لقب على من يتولى قبض
مال السلطان وصرفه وتمثيل أوامره في كل ذلك . وهو من
كلمتين : استد (بمعنى الأخذ) ودار ومعناها (المسك) .
الجوكاندار : مركب من الجوكان (وهو ما تضرب به
الكرة) ودار بمعنى (صاحب) . فهو حامل هذه الأشياء
للسلطان في لعب الكرة .

الطيردار : مركب من طَبَر بفتح الباء (الفاس) ودار
بمعنى (ممسك) . فالمعنى ممسك الفاس .

السنجقدار : حامل السنجق ومعناه الرمح .

البندقدار : حامل البندق .

الجمدار : بفتح الجيم والميم . لقب من يتصدى للباس
السلطان أو الأمير ثيابه .

المهندار : لقب من يتصدى لتلقى العربان والزسل
الوافدين وينزلهم دار الضيافة .

الزنان دار : أو الزمام دار — لقب على من يقفون
بستارة السلطان من الخصيان . مركب من لفظين أحدهما
(زنان) بمعنى النساء .

الجاشنكير : لقب من يتصدى لذوقان المأكول والمشروب
قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه سم .

أمير اخور : وهو المسؤول عن اصطبلات السلطان من
جميع الوجوه .

أمير جاندار : لقب من يستأذن للأمرء وغيرهم أمام
المواكب عند جلوس السلطان في دار العدل . مركب من
ثلاثة ألفاظ : أمير ، وجان (بمعنى روح) ودار (بمعنى
ممسك) — فتكون الترجمة (الأمير المسك بالروح) .

أمير شكار : وهو لقب الأمير المسؤول عن جوارح الطير
وغيرها من وسائل الصيد .

وكل هؤلاء في خدمة السلطان مضافا إليهم (الساقى)

وهو خاص بمد الأسمطة . (والأوجاقى) وهو الرجل الذى يقوم بترويض خيول السلطان وتدريبها على العدو والقفز .
اما القاب أرباب الأقلام فمنها :

الخطيب ، والمقرئ ، والمحدث ، والمدرس ، والمعيد ،
والأخير يلى المدرس فى الرتبة ووظيفته أنه يعيد للطلبة
ما ألقاه المدرس بعد انصرافه ويساعدهم على فهمه .

واما القاب الكتاب فمنها :

كاتب السر (وهو صاحب ديوان الانشاء) . وكاتب
الدست (وهو الذى يجلس مع كاتب السر بدار العدل
أمام السلطان أو نائبه) . وكاتب الدرج (وهو الذى يكتب
المكاتبات والولايات) ويعبر عنه فى زمان المؤلف بالموقع .
وأما كتاب الأموال فمن ألقابهم :

الوزير (اذا كان من أرباب الأقلام) . والناظر (وهو
من ينظر فى الأموال ويتصرف بشأنها ويرفع اليه حسابها) .
ومنه ناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وناظر الأوقاف ونحو
ذلك . وصاحب الديوان (وهو يلى الناظر فى الرتبة) .
والشاهد (وهو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفيًا وإثباتًا) .
والمستوفى (وهو الذى يضبط الديوان وينبه على ما فيه
مصلحة) . والعامل (وهو الذى ينظم الحسابات ويكتبها) .
والماسح (وهو الذى يقيس الأراضى الصالحة للزراع) .
والصيرفى (وهو الذى يتولى قبض الأموال وصرفها) .

واما القاب ارباب الصناعات فمنها :

مهندس العمار . رئيس الأطباء . رئيس الكحالين .
رئيس الجراحية . رئيس الحراقة (أى السفن السلطانية) ،
واما القاب النصارى فمنها :

البابا — وهو لقب على القائم بأمر دين النصارى
بنسبة روما . البطرک . والمعروف أن كرسي البطرکية
عندهم أربعة : كرسي روما وهو مقر البابا ، وكرسي انطاكية ،
وكرسي القدس ، وكرسي الاسكندرية ، ومقره الكنيسة
المعلقة بالقسطنطينية .

الأسقف — وهو نائب البطرک .

المطران — وهو القاضي الذى يفصل فى الخصومات .

القسيس — وهو القارئ الذى يقرأ عليهم الانجيل .

الجائليق — وهو عندهم صاحب الصلاة .

الشماس — وهو عندهم قيم الكنيسة .

الراهب — وهو من يحبس نفسه فى خلوة للعبادة .

واما القاب اليهود فمنها :

الرئيس — وهو القائم فيهم مقام البطرک فى النصارى .

الحزان — وهو بمثابة الخطيب .

الشليمصور — وهو الامام الذى يصلى بهم .

واما ما يقع من الالقاب فى المكاتبات والولايات :

فهناك ألقاب لابد من أن يذكرها الكاتب فى مكاتباته
الرسمية وغير الرسمية ومنها :

الجانب — وهو من ألقاب ولاية العهد بالخلافة ،
والجانب في اللغة الناحية ، والمراد الناحية التي يوجد صاحب
اللقب بها .

والجناب — وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام
جميعا . وهو أعلى ما يكتب للقضاة والعلماء من ألقاب .
ويقال فيه (الجناب الشريف العالی) و (الجناب الكريم
العالی) .

والمقام — وهو من الألقاب الخاصة بالملوك .
والمقر — ويختص بكبار الأمراء وأعيان الوزراء
وكتاب السر ، وكتاب الدست ، وناظر الجيش وناظر
الدولة الخ .

والمجلس — وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام
أيضا . على أنه كان في الدولة الأيوبية لا يلقب به الا الملوك
ومن في معانهم ، بل كانوا لا يكتبون (المجلس) الا للسلطان
خاصة . أما في زمن المماليك فقد جعل (الجناب) و (المقر)
فوقه .

ومجلس — مجردا من آل . كان يقال مجلس الأمير
أو مجلس القاضي أو مجلس الشيخ أو مجلس الصدر .
والحضرة — أي حضرة صاحب اللقب — كالحضرة
العالية ، والحضرة السامية ، وتستعمل في المكاتبات الصادرة
عن الأبواب السلطانية الى بعض الملوك . وتستعمل أيضا في
مكاتبة ملوك الكفر .

ثم هناك ألقاب تكون في المكاتبات العادية ومنها :
الديوان — كأن يقال الديوان العزيز ويقصد به
الخليفة .

والستارة — ويكنى عن المرأة الجليلة القدر .
والجهة — ويستعمل في معنى الستارة على نحو ما تقدم .
والباب — وهو من الألقاب المختصة بالعنوان في
المكاتبات الجليلة . ومنه الباب العالي ، والباب الشريف
العالي وهكذا .

لم يكتف القلقشندي بإيراد الألقاب المتقدمة على كثرتها .
وتنوعها واستيفائها حتى عاد يحصى الألقاب الإسلامية وغير
الإسلامية في شبه قاموس مرتب على أحرف المعجم . وبدأ
بالألقاب التي أولها الألف ثم التي أولها الباء وهكذا .
فمن ألقاب حرف الألف على سبيل المثال :

الاتابكي — وهو من ألقاب أمير الجيوش ومن في معناه
كالنائب الكافل ونحوه ، وهو مختص بالاتابك (ومعناه
الأب الأمير) ومن ثم تكون النسبة هنا للمبالغة كما سبق
ذكر ذلك .

والألفى — من ألقاب ملوك المغرب .
والأجل — وهو من ألقاب السلطان . وكان الفاطميون
يقصرونه عليه .

والاسفهلار — لقب صاحب السيف . وكان الفواطم

يلقبون به صاحب الوظيفة التي تلى وظيفة صاحب الباب .
ومعناه (مقدم العساكر) . وبه لقب صلاح الدين الأيوبي
حين كان في خدمة العاصد .

والامام — وهو من ألقاب الخلفاء .

ومن ألقاب حرف الباء على سبيل المثال :

البارع والبلغ — وبهما يلقب أرباب الأقلام .

ومن ألقاب حرف التاء :

(التقى) وهو من ألقاب ملوك المغرب . وهكذا يمضي

المؤلف الى حرف الياء فيذكر من ألقاب هذا الحرف (اليميني)

وهو من ألقاب الدوادر ، وكاتب السر ، والحاجب . نسبة

الى اليمين كأنه يمين السلطان .

ومما لا شك فيه أن هذا المعجم الخاص بالألقاب كان

ذا فائدة كبيرة للكتاب في زمن المؤلف ، وكان بعضهم من

الخطأ في المكاتبات فلا يضيف الكاتب على أحد من الناس

لقبا ليس له ، ولا يحرمه في الوقت نفسه من اللقب الذي له .

وكما فعل القلقشندي ذلك بالألقاب المفردة فكذلك فعل

بالألقاب المركبة فقد جمعها ورتبها على شكل معجم . ثم لم

يكتف القلقشندي بكل ذلك حتى صنع مثل ذلك تماما

بالألقاب الخاصة بأهل الكفر — على حد قوله — وهي

الألقاب التي ينبغي للكاتب مراعاتها عند الكتابة اليهم

ومنها على سبيل المثال :

الأنجالوس — وهو لفظ يوناني معناه الملك واحد الملائكة .

والدوقس — وهو لقب على ملوكهم .
وسطل النصرانية — وهو صالح لكل واحد منهم .
وقيمة الملوك الاغريقية — وهكذا .

وهناك نظام في الألقاب كان متبعا كذلك في العصور
الاسلامية أشار اليه أبو العباس ، ونعنى به نظام الألقاب
التواضع وهي التي تلى الألقاب الأصول ، كالمقام ، والمقرء
والجناب ، والمجلس . فيلى المقام لفظ الأشرف والشريف
والعالي . ويلى المقرء لفظ الأشرف والشريف والكريم
والعالي . ويلى الجناب لفظ الكريم والعالي . ويلى المجلس
لفظ العالي والسامى .

ثم عاد المؤلف بعد هذا كله الى الكلام في الألقاب
المركبة من الصفة مضافا اليها كلمة (الاسلام) أو (المسلمين)
أو (المؤمنين) أو (الغزاة) أو (المجاهدين) أو (العلماء)
أو (القضاة) أو (الصالحين) . وأفاض كثيرا في هذه
الألقاب وفي المواضع التي يجب أن يقال فيها . بحيث
لا يخطئ كاتب في أن يضع لقبا مكان آخر . وإن كان اللقبان
متشابهين في رأيه تشابها تاما وفي ذلك يقول المؤلف :

أما كون (ركن الاسلام والمسلمين) أعلى من (عز
الاسلام والمسلمين) فلأن ركن الشيء في اللغة جانبه الأقوى
وحينئذ فيكون ركن الشيء بعضا منه بخلاف العز فإنه معنى
من المعاني خارج عنه .

وأما (كون عز الاسلام والمسلمين) أعلى من (مجد
الاسلام والمسلمين) فلأن العز أجدى في النفع من المجد .
أو أما كون (مجد الاسلام والمسلمين) أعلى من (مجد
الاسلام) فقط فلأن الشيء كلما تعدى فعله الى غيره كان
أرفع رتبة .

• وأما كون (قسيم أمير المؤمنين) أعلى من (خليل أمير
المؤمنين) فلأن القسيم بمعنى المقاسم ، والخليل بمعنى
المصادق ، وفرق بين من يقاسم الخليفة ومن يصادقه .
وأما كون (سيف أمير المؤمنين) أعلى من (حسام
أمير المؤمنين) فأت من أن الحسام للقطع والسيف للحسم .
والقطع يقع في بعض البدن مما لا يصل الى حد الاهلاك
نفسه أحيانا .

على هذا النحو أخذ المؤلف في متابعة حديثه عن الألقاب
ومعانيها ومراتبها ومراميها . وكان يتناول كل لقب منها
بالشرح والتفصيل ثم يجعل لهذا اللقب درجات مختلفة يلي
بعضها بعضا . ثم يذكر أمام كل درجة منها اسم الوظيفة التي
تلائم هذه الدرجة . ونحن على كل حال عاجزون عن متابعة
القلقيسندى في كل ذلك . فندع حديثه عن الألقاب الى
حديثه عن الورق والأقلام .

وتحدث القلقشندى بعد ذلك فى الورق والأقلام
وأنواعهما وما يحسن لكل نوع منها من المكاتبات الرسمية
ونحو ذلك .

وبمثل هذه الطريقة تكلم القلقشندى عن مقادير الورق
المستعملة بالديار الشامية .

الملخصات وكيفية كتابتها

لما كان صاحب ديوان الانشاء يضيق وقته من استيعاب الكتب الواردة الى المملكة لكثرتها وتعدد صورها وجد من الأنسب انه يتخذ كاتباً يتصفح الكتب الواردة ويفحص مقاصدها ، ثم يلخصها من غير اخلال بمعانيها مستقفاً فضول القول وحشوه بالدعاء والتصدير والألفاظ المحفوظة .

والذى جرى عليه الأمر في زمان المؤلف أن الكتب الواردة الى المملكة يتولاها أكبر (الدواديرية) . ثم يناولها للسلطان فيفرض ختامه وكاتب السر جالس بين يديه ، فيدفعه السلطان اليه فيقرؤه عليه ويستصحبه معه الى الديوان . فان كان الكتاب عربياً دفعه كاتب السر الى نائبه ليلخص معناه . والذين تكتب لهم الملخصات في زمان المؤلف خمسة دواوين وهى : ديوان الانشاء ، وديوان الوزارة ، وديوان الجيش ، والديوان الخاص ، وديوان الاستاديرية .

وفى كتابة الملخصات يترك في رأس الصفحة قدر ثلاثة

أصابع يابضا . ثم اقدر أصبعين يابضا عن جهة اليمين وقدر
أصبعين عن جهة اليسار . ويكتب في الصدر :
« ذكر فلان في مكاتبته الواردة على يد فلان المؤرخة
بكذا وكذا انه أتفق من الأمر ما هو كذا وكذا . وانه سأل
في كذا وكذا » . ثم يخلى يابضا قدره أربعة أصابع ويكتب
في وسط الصفحة « وذكر » ثم يكتب باقي الكلام . وفي
آخره يكتب هذه العبارة « وقد عرض على المسامع الشريفة »
أو « ومهما برزت به المراسيم الشريفة جرى العمل بمقتضاه » .

الفواتح والخواتيم

يعنى ما تفتح به المكاتبات وما تختتم بها . وزعم القلقشندي أن العرب في الجاهلية كانت تبدأ كتبها هكذا « باسمك اللهم » . وبنى زعمه هذا على ما رواه المسعودي في كتابه (مروج الذهب) من أن جماعة من الأخباريين المشهورين حكوا أن أمية بن أبى الصلت خرج الى الشام في نفر من ثقيف وقريش ومعهم ابل ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا لياكلوا فيه ، فأقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحسبها بعضهم بحجر فرجعت ، فأكملوا طعامهم ، ثم قاموا فشددوا ألبهم وارتحلوا ، فلما خرجوا من المنزل أشرفت عليهم عجوز متوكئة على عصا ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة الصغيرة التي باتت لطعامكم عليلة ؟ قالوا : وما أنت ؟ قالت : أم العوام ، أرملت منذ أعوام ، أما ورب العباد لتفرقن في البلاد ، ثم ضربت بعصاها الأرض ، وأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلي اياهم ، وفرقي ركايبهم ! فوثبت الابل كأنّ على ذروة كل منها شيطانا لا يملكون منها شيئا حتى افترقت في الوادي ، ثم جمعوها من آخر النهار الى غدوة النهار التالي . فلما أنأخوا الابل طلعت عليهم العجوز وفعلت كما فعلت أولا ، فخرجت الابل

كما خرجت في اليوم الأول ، فجمعوها من غدا . فلما أناخوها
فعلت العجوز مثل فعلها في اليومين السابقين . فنفرت الابل
ويشوا من رجوعها . فقالوا لأمية بن أبي الصلت : أين
ما كنت تخبرنا به عن نفسك وعلمك ؟ فقال : اذهبوا أنتم
في طلب الابل ودعوني وحدي . وتوجه الى كتيب الرمل
الذي كانت تطلع فيه العجوز حتى هبط الى جانبه الآخر .
ثم صعد كتيبا آخر حتى هبط منه كذلك . ثم ظهرت له
كنيسة فيها قناديل ورجل مضطجع على الباب أبيض الرأس
واللحية . قال أمية : فلما وقفت قال لي : انك لمتبوع ؟ قلت :
أجل . قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟ قلت : من
أذني اليسرى . قال : فبأي الثياب يأمرك ؟ قلت :
بالثياب السوداء . قال : هذا خطيب الجن . أما صاحب
النبوة فيأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى . ويأمره بلبس
البياض . فما حاجتك ؟ فحدثته حديث العجوز . فقال : هي
امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام وانها لن تزال تفعل
بكم ذلك حتى تهلككم ان استطاعت . قال أمية : فما الحيلة ؟
قال : اجمعوا ابلكم فاذا جاءت وفعلت ما كانت تفعل فقولوا
سبعاً من فوق وسبعاً من تحت « باسمك اللهم » فانها لن
تضركم .

فرجع أمية الى أصحابه فأخبرهم بما قيل له . وجاءتهم
العجوز ففعلت كما كانت تفعل . فقالوا سبعاً من فوق وسبعاً
من أسفل : « باسمك اللهم ! » . فلم تضرهم ورأت العجوز

الابل لا تتحرك فقالت : قد علمكم صاحبكم فليبيض الله
أعلاه وليسودن أسفله . وساروا فلما أدركهم الصبح نظروا
إلى أمية وقد أصابه برص في جبهته ورقبته وصدره . وأما
أسفل جسمه فقد أصبح أسود اللون . ودخلوا مكة ونشروا
الحديث . فكتبت قريش في أول كتبها « باسمك اللهم » .
فكان أول ما كتبها أهل مكة . وجاء الاسلام والأمر علي
ذلك .

قالوا : ولم تزل الكتب تفتتح (باسمك اللهم) حتى
نزل قوله تعالى « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن
الرحيم » . فاستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصارت سنة بعده .

وعلى ذلك جرى مصطلح كتاب الانشاء في القديم
والحديث الا أنهم اصطالحوا على حذفها من أوائل التواقيع
والمراسيم الضغار بل أنهم كتبوا (البسملة) كذلك على
الشعر واستحسنوها . ومنهم من استهجن هذا الوضع
وكلهم أوصى بضرورة تحسينها وتجويدها وأفرادها بسطر
في الكتابة .

وبعد البسملة يأتي « الحمد » . وقد تتكرر عبارات
الحمد هذه سبع مرات في الرسالة الواحدة . وقد تأتي بعد
قولهم (أما بعد) وقد تسبقها .

ثم تأتي بعد ذلك الصلاة والتسليم على النبي . وتكون
أوجب في العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم .

وكان الخلفاء الفاطميون بمصر يصلون في كتبهم على النبي
ويتبعون ذلك بالصلاة على أمير المؤمنين على بن أبي طالب
على طريقة الشيعة .

ثم يلي ذلك تحية الكاتب « بالسلام » على من يكتب له .
فيقول في أول الكتاب « سلام عليك » . وقد يقول في آخره
« والسلام عليك » . الأول نكرة والثانية معرفة .

ويأتي بعد ذلك قولهم في المكاتبات « أما بعد » وهي
مركبة من لفظين أحدهما أما . والثانية بعد . أما حرفه شرط
تقع في كلام العرب لتوكيد الخبر والفاء لازمة لها . وبعد
ظرف زمان إذا أفرد بنى على الضم كما في قوله تعالى « الله
الأمر من قبل ومن بعد » .

ويجوز أن تقول : أما بعد أطل الله بقاءك . وأما بعد
فأطل الله بقاءك — وأجود من ذلك أن يقال : أما بعد فاني
نظرت أطل الله بقاءك في الأمر .. ومعنى (أما بعد) مهما
يكن من شيء .

وبعد الفراغ من المكاتبة سواء كانت موضوعها ولاية
أو غيرها يستحسن أن يكتب في نهايتها « ان شاء الله تعالى » .
قال تعالى « ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن
يشاء الله » وقوله تعالى « وقال ادخلوا مصر ان شاء الله
آمين » .

وعبارة « ان شاء الله » تعتبر أول خاتمة من خواتم
الرسالة أو المكاتبة . فموضعها من الصفحة أسفل الكلام

المكتوب على أن يكون عن يمينها بياض وعن شمالها بياض .
ولهم في كتابة خطها صور معروفة أشار القلقشندي الى بعضها وأهمل بعضها الآخر .

ثم تؤرخ المكاتب بعد ذلك . ولا غنى لكاتب عن ذلك
وخاصة اذا كانت المكاتب صادرة عن خليفة أو ملك أو أمير
أو نائب أو وزير أو قاض من القضاة ونحوهم .

وقد كانت الأمم السابقة تؤرخ بالحوادث العظام وبملك
ملوكهم وهكذا . وأما بنو اسماعيل فأرخوا ببناء الكعبة .

وقد أحصى القلقشندي تسعة عشر تاريخاً على هذا النحو
كان الثامن عشر منها (عام الفيل) ، والتاسع عشر (مبعث
النبي) صلى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاث عشرة
سنة وشهران وثمانية أيام .

ثم أرخ المسلمون بالهجرة . واختلف المؤرخون في ذلك .
فمن قائل أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بدأ في
ذلك . ومن قائل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذي
أشار به . والأخير هو الأصح . ويقع التاريخ في المكاتبات
عادة لما بالليالي وأما بالأيام .

وقالوا إن كتب السلطان والكبراء تؤرخ بالليالي .
والكتب الصادرة من الأدنى الى الأعلى تؤرخ بالأيام . وإن
حُمل على الليالي دون الأيام لأن أول الشهر ليلة . واستغنى
بالليالي عن الأيام لأن مع كل ليلة يوماً . فنقول في التاريخ
بالليالي : « كتب في أول ليلة من شهر كذا » أو « كتب

لليلتين خلتا من شهر كذا» أو «لاحدى عشرة خلت من شهر كذا» أو «لنصف شهر كذا» أو «لعشرين ليلة خلت من شهر كذا» أو «لعشر بقين من شهر كذا» أو «لآخر ليلة من شهر كذا» وهكذا.

قال القلقشندي : أما التاريخ العجمي فمداره الأيام لا الليالي لأن السنة عندهم شمسية وعند العرب قمرية .
أما ذكر السنة فللكتاب فيها مصطلحان :

أن تكتب « سنة ست وثمانمائة » ونحو ذلك . وعلى هذا المصطلح كتاب مصر وبلاد الشرق .

أو يكتب عام ستة وثمانمائة . وعلى هذا المصطلح كتاب العرب في غير مصر وبلاد الشرق — زعما منهم أن العام يختص بالخصب والسنة تختص بالجذب . وعم بين قولهم « واصابتهم السنون » كناية عن الجذب والجوع .

وعلى الكاتب أن يعرف الشهور العربية التي تبدأ بشهر ربيع الأول وتنتهى بذي القعدة ، وأن يعرف الشهور الفارسية : افرودين ماه — ارديهشتما — حردد ماه — بترم ماه — ترد ماه — شهر بر ماه — مهر ماه — ابان ماه — ادر ماه — ذى ماه — بهمن ماه — اسفندار ماه . وعليه أن يعرف الشهور السوربانية وهى : تشرين الأول ، وتشرين الثانى ، وكانون الأول ، وكانون الثانى ، وشباط ، وآذار ، ونيسان ، وآيار ، وحزيران ، وتموز ، وآب ، وايلول .

وعلى الكاتب أيضا أن يعرف الشهور الرومية التي هي

يناير ، وفبراير ، ومارس ، وأبريل ، الخ . وكذلك الشهور
القبطية التي هي توت ، وبابة ، وهاتور ، وكيهك ، وطوبة ،
وأمشير ، وبرمهات ، وبرمودة ، وبشنس ، وبثوثة ،
وأيب ، ومسرى .

وأهم من كل ذلك أن يعرف كاتب الانشاء كيف يحول
التاريخ العربى الى سريانى أو الى رومى أو الى قبطى
وهكذا . وقد اشرح المؤلف هذه الطرق ثم قال : (١)
أما موضوع كتابة التاريخ ففي آخر المكاتبه . ولكن

(١) الطريقة المعروفة فى زماننا هذا لتحويل السنة الهجرية
الى سنة ميلادية قريبة الشبه جدا من طريقة المؤلف وهى كالآتى :

أولا - يضاف الى السنة الهجرية عدد ٦٢١ و ٦ .

ثانيا وثالثا - يطرح من المجموع حاصل ضرب السنة
الهجرية فى ٣ مقسوما على ١٠٠ .

رابعا - يلاحظ ان زيادة الكسر العشرى عن ٠.٢ يجبر
بواحد صحيح . يضاف هذا العدد الصحيح الى السنة .

مثال ذلك : اذا أردنا تحويل السنة الهجرية ١٣٧٩ الى
سنة ميلادية كان علينا أن نسير كالآتى : -

$$\text{أولا - } ١٣٧٩ + ٦٢١٦ = ٢٠٠٠٦$$

$$\text{ثانيا - } ١٣٧٩ \times ٣ = ٤١٣٧$$

$$\text{ثالثا - } ٤١٣٧ \div ١٠٠ = ٤١.٣٧$$

$$\text{رابعا - } ٢٠٠٠ - ٤١.٣٧ = ١٩٥٨.٦٣$$

فتكون السنة الميلادية هى ١٩٦٠

يقع التاريخ في أول المكاتبة إذا كان موضوعها أمرا تتشوق
النفوس الى معرفة اليوم الذي وقع ذلك الأمر فيه .. ومهما
يكن من شيء فقد اصطالحوا على كتابة التاريخ بعد قولهم
« ان شاء الله تعالى » . فيكتبون « كتب في كذا من شهر
كذا » في سطر . ثم يكتبون « من سنة كذا » في سطر
تحتة ...

المقالة الرابعة

الفصل العاشر

تحرير المكاتبات

تحدث القلقشندى فى مقالته الرابعة عن المكاتبات من حيث تاريخها ومن حيث فنها . فدخل بهذه المقالة الرابعة فى صميم الموضوع الذى من أجله كتب موسوعته الكبيرة (صبح الأعشى فى صناعة الانشا) . وذلك بالضبط كما نصنع نحن الآن فى فن النقد أو فن الصحافة أو فن الأدب . فإتينا نشير دائما الى تاريخ هذا الفن ثم نتقل من ذلك الى أصوله وقواعده .

وقد جعل المؤلف هذه المقالة الرابعة قسمين كبيرين : — الأول — فى أمور كلية فى المكاتبات تحدث فيها عن مقدمات المكاتبات وما يتبع فيها من أصول وأساليب . كما تحدث فيها عن الأصول والقواعد التى ينبغى مراعاتها فى ترتيب المكاتبات ونظامها ولوازمها ونحو ذلك .

والثانى — فى مصطلحات الكتابة العربية ابتداء من الكتب التى صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين والملوك والسلاطين

ومن اليهم . وهي الكتب التي كتبوا بعضها الى أهل الاسلام
وبعضها الآخر الى أهل الكفر على حد تعبير المؤلف .

وفي هذا القسم الثاني من المقالة الرابعة أفرد أبو العباس
جزءا كبيرا من المقالة للحديث عن مصطلح الكتابة في الديار
المصرية ابتداء من الدولة التركية الى رأس المائة الثامنة
للهجرة .

هذا هو موضوع المقالة الرابعة التي شغلت من موسوعة
صبح الأعشى ما لا يقل عن خمس وستين وثلاثمائة وألف
صفحة !! وسنعطى القارئ صورة مقربة منها على الوجه
التالى : —

الأصول العامة للكتابة

اتفق الكتاب على أن يتوفر في المكاتبة أمور كثيرة منها :

١ - حسن الافتتاح . كأن تبدأ المكاتبة بحمد الله أو بالسلام . أو بتعظيم المكتوب إليه مع سهولة اللفظ ووضوح المعنى .

كتب ابن العميد على لسان ركن الدولة بن بويه إلى عامل من عماله أظهر المعصية :

« كتابي إليك وأنا متردد بين طمع فيك ، وبأس منك ، وأقبال عليك واعراض عنك . فانك تدلّ بسالف خدسم أيسرها يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية . ثم تتبعها بآلف خلاف ومعصية أدناها يحبط أعمالك ، ويسقط كل ما يترعى لك » .

٢ - أن تأتي في أول المكاتبة بما يدل على عجزها على لغو ما يراعى مراعاة دقيقة في الخطب .

٣ - أن تشتمل المقدمة على كلام مناسب لموضوع المكاتبة ويكون أساساً لها . ففي كتب الحث على الجهاد تشير المقدمة إلى أنه فرض على الأمة واعزاز للدين والدولة . وفي كتب الفتوح تشتمل المقدمة على انجاز وعد الله الذي وعد به المجاهدين المخلصين .

٤ — أن تخاطب الرسالة كلا بما يستحق . فلا تبدأ
بخطاب رئيس لمءوس وتكون خطاباً في الوقت نفسه لمءوس
من رئيس . فقولك (أصدرنا هذه المكاتبة) أعلى بالنسبة
للمكتوب اليه من قولك (صدرت هذه المكاتبة) ، وقولك
(نبدي لعلمه) أعلى من قولك (ووضح لعلمه) ، وقولك
(اتصل بنا) أعلى من (أنهى الى علمنا) وهذه الأخيرة
أعلى من (بلغنا) . (ووردت علينا مكاتبتهم) أعلى من
(وردت مكاتبتهم) وهكذا .

٥ — أن يعرف الكاتب موضع الدعاء في المكاتبة . ذلك
أن (الدعاء باطالة البقاء) ، ارفع من (الدعاء باطالة العمر) .
وذلك أن البقاء لا يدل على مدة تنقضي . أما العمر فيدل على
مدة تنقضي . ولذا يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف
بالعمر . والدعاء بمضاعفة النعمة أعلى من الدعاء بدوام
النعمة . والدعاء بعز الأنصار أرقى من الدعاء بالنصر . وعلى
الكاتب أن يقلل من الدعاء على لسان الملوك . فقد قيل : ان
الملوك تسمح بيدرات المال ولا تسمح بالدعوة الواحدة .
وهكذا قد جعل القلقشندى لكل مقام دعاء لا يكون
لغيره . ولكل طبقة من الناس أو الحكام دعاء لا يكون لغيرها
وأفاض في كل ذلك .

ثم نبه القلقشندى الى المكروه من الأدعية كما في قولهم :
جعلني الله فداك . وقدمني الى السوء دونك . فان في ذلك

ملقا وتكلفا لا فائدة منه . وكما في قولهم « أمتعني الله بك »
و « أمتع بك » ففي ذلك يقول الشاعر :
ان جفاء كتاب ذى مقه (١)

يكون في صدره « وأمتع بك »

٦ — أن يعرف الكاتب كيف يستخدم في مكاتباته
المناسب من الألقاب التي تقدم ذكرها في المقالة الثالثة .

٧ — أن يخاطب الكاتب كلا بما يناسبه كذلك من
اللفظ . ومذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر
السهولة في كتبه الى ملوك العجم . لأنه يعلم أن هذه الكتب
ستترجم لهم . ومن هنا وجب على الكاتب أن يراعى الجهة
التي يكتب اليها وأن يحسب حسابا لأحوال ساكنيها . فان
كانوا من الأدباء اختار اللفظ الجزل وان كانوا من العوام
اختار الكلام الخالي من الزينة . ومن هذا القليل انهم لم
يجيزوا التفاسيح على الملوك والسلاطين . كما لم يجيزوا
مخاطبتهم بلغة السوق .

٨ — مراعاة المكتوب عنه سواء كان خليفة أو ملكا
أو غير ذلك . فيقال « جرى أمر أمير المؤمنين بكذا »
و « اقتضي أمر أمير المؤمنين كذا » . واذا كان المكتوب عنه
ملكا قيل « فعلنا كذا » و « أمرنا بكذا » و « برزت
مراسمنا بكذا » . وفي طبقة الملوك في كل ذلك الأمراء
والوزراء والعلماء .

(١) المقه = المحبة والود

٩ — مراعاة مواقع الآيات القرآنية والسجع في المكاتبة.
فأما آيات القرآن فيذكرها الأدنى للأعلى في معنى ما يكتب.
وأما السجع فلا يفرق فيه بين كتابة الأعلى للأدنى أو العكس.
وأما الشعر فيورد حيث يحسن إirاده ، ويمنع حيث يحسن
منعه . وأما المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة اليهم
فلا يتمثل فيها بشيء من الشعر اجلالا لهم ، الا اذا كتب
الملوك الى الملوك ومن في مستواهم فانه لا بأس من
الاستشهاد بالشعر .

ومع ذلك فمذاهب الناس في التمثيل بالشعر في المكاتبات
السلطانية أو الملكية مختلفة . فقد أثر عن المتوكل أنه أمر
ابنه أبا العباس فكتب الى أهل حمص كتابا ختمه بهذا البيت
من الشعر :

أتاة فان لم تغن عقب بعدها

وعيدا فان لم نجد أجدت عزائمها !

والمعروف أن سلاطين بني العرب كثيرا ما كتبوا رسائلهم
بالشعر . ومن أشهرهم في ذلك (الملك الأفضل) بن صلاح
الدين الأيوبي .

وأما كتب الاخوانيات فانها تقبل التمثيل بالشعر وتزدان
به كما كان الشأن مع القاضي الفاضل . ومن الأبيات التي
استشهد بها :

ومن عجب اني أحسن اليهمو

وأسأل عنهم من أرى وهمو معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها

ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

١٠ — حسن الختام بحيث يكون ملائها لموضوع الرسالة كل الملاءمة .

كتب الصاحب بن عباد في ختام رسالة قال :

« لنن حشت فيما حلفت فلا حظوت لتحصيل مجد ،

ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعيت الى مقام فخر ،
ولا حرصت على علو ذكر » .

فهذه اليمين لو سمعها عامر بن الظرب لقال : هي اليمين

لعموس ، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى

ونحو ذلك مما يجرى هذا المجري !

هذا كله فضلا عن مراعاة الأمور التي سبق شرحها

كمعرفة قطع الورق اللازم للرسالة ونوع القلم الذي تكتب

به وسعة ما بين السطور والهوامش ونحو ذلك .

الايجاز والاطناب :

أما الايجاز فيحسن في خمسة مواضع تكون فيها المكاتبة

من السلطان في أوقات الحروب ، أو تكون خبرا يراد ستره

أو التورية عنه كما في أخبار الهزيمة ، أو تكون المكاتبة أمرا

أو نهيا ، أو تكون المكاتبة لاستخراج الخراج ونحو ذلك .

وأما البسط أو الاسهاب فيحسن في موضعين فقط :

أولهما — أن يكون ما يكتب عن السلطان خبرا يراد

شرحه وتقرير صورته في نفوس الرعية كما في الفتوحات
ثانيهما — أن يكون ما يكتب عن السلطان في وقت
تحرك العدو الى الشغور وما إليها .

الاجوبة عن الرسائل :

ذهب البلغاء الى أن الكتب الجوابية أصعب من الكتب
الابتدائية وهي نوعان : مكاتبة في الرد على أهل الاسلام .
ومكاتبة في الرد على أهل الكفر . أما الأولى فالمشهور
استعماله منها في دواوين الانشاء ما يلي :

أن تفتتح الكتب بلفظ « من فلان الى فلان » أو بلفظ
« الى فلان من فلان » أو يفتتح الأسلوب بلفظ « أما بعد » .
أو تفتتح المكاتبة « بحمد الله » وهو أفضل الافتتاحات ولو
لم يقع الابتداء به في صدر الاسلام . ويصح أن نبدأ المكاتبة
بلفظ « كتابي اليك » أو يفتتح بلفظ « كتب » . ويصح أن
يقع الافتتاح بالدعاء . كما فعل معاوية بن أبي سفيان من أنه
بدأ كتابه الى علي بن أبي طالب بقوله : أما بعد عافاك الله
وأياك من سوء . ثم زاد الناس في الدعاء بعد ذلك . وقد
يفتح الكتاب بالسلام فنقول « سلام عليك . فاني أحمد
إليك الله » . وقد يفتتح الكتاب « بتقيل الأرض » . كما
كان من شأن القاضي الفاضل في مكاتباته . قال المؤلف : ولم
أرها فيما قبله .

وقال المؤلف : لما دخل الأعاجم في الاسلام وغلبوا على
الأقطار استصبحوا ما كان عليه الأمر في الأمم الخالية وعبروا

عنه بتقيل الأرض واستمر ذلك تحية الملوك الى الآن .
 فاستعار الكتاب ذلك ونقلوه من الفعل الى اللفظ . وكثيـ
 لالأرض في افتتاح الرسائل يجيء تقيل اليد . ولو أنه ليس
 بممنوع في الشريعة . فقد ثبت في حديث الافك أنه لما أنزل
 الله تعالى براءة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قال لها أبوها:
 « قومى الى النبى صلى الله عليه وسلم وقبلى يده » . ولم
 يكن الصديق رضى الله عنه ليأمرها بما تنتهى الشريعة عنه .
 هذا — وقد تفتح المكاتبة بلفظ « هذه المكاتبة »
 أو تفتح بالأعلام فيقول الكاتب « ليعلم فلان أن الأمر كذا » .
 وأما مكاتبة بقصد الجواب على أهل الكفر ، فلها حالتان
 هما أن تفتح بلفظ « من فلان الى فلان » . وإن تفتح
 بالدعاء بطول البقاء .

وقبل الامضاء على المكاتبات جرت العادة أحيانا بذكر
 كلمة « أخوه » أو « محل ولده » أو « الخادم » أو « الفقير
 الى الله » أو « الداعى لدولته » أو « المواظب على خدمته
 بالدعاء » ونحو ذلك . وقد بدأ العمل بهذه الكلمات أو
 « الترجمات » منذ العصر الأيوبي .

هكذا تحدث القلقشندي عن كل ما يتصل بالمكاتبات
 لم يغفل شيئا حتى طريقة طي المكاتبة وطريقة ختمها وتجفيفها
 بالتراب وحملها وتأديتها وفضها وقراءتها ونحو ذلك .

الفصل الحادي عشر

مصطلحات الكتابة العربية

بدأ القلقشندي بالكتابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انها جرت على نوعين : كتبه الى أهل الاسلام . وكتبه الى أهل الكفر . أما الأولى فجرت على ثلاثة أساليب :

الأول — أن يفتح الكتاب بلفظ من محمد رسول الله الى فلان . كما في رسالته الى خالد بن الوليد :

من محمد رسول الله الى خالد بن الوليد :

سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد . فان كتابك جاءني مع رسولك يخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا الى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهدوا ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وانه قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم . وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وقد جاء القلقشندي بعد ذلك بنماذج أخرى من كتبه صلى الله عليه وسلم ومنها كتابه الى المنذر بن ساوي ملك

البحرين . وكتابه الى فروة بن عمرو الجذامي ، وكتابه الى طهقة النهدي وقومه . وكتابه الى اكيدر ، وكتابه الى اهل حضرموت الخ .

الثاني — أن يفتح الكتاب بلفظ « هذا كتاب » ثم يذكر الغرض منه بعد ذلك . وهو قليل الوقوع في مكاتباته صلى الله عليه وسلم .

الثالث — أن يفتح بلفظ « سلم أنت » . من ذلك ما كتبه الى المنذر بن ساوى .

« سلم أنت فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد . فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحنا ، فذلك المسلم . له ذمة الله وذمة الرسول . فمن أحب ذلك من المجوس فانه آمن . ومن أبى فان عليه الجزية » . وأما كتبه صلى الله عليه وسلم الى أهل الكفر جرت كذلك على ثلاثة أساليب :

الأول — أن تفتح بلفظ « من محمد رسول الله الى فلان » . ومن ذلك ما كتبه الى هرقل (أو قيصر ملك الروم) والى كسرى ابزوي ملك الفرس . وما كتبه الى المقوقس صاحب مصر ، والى النجاشي ملك الحبشة والى هودنه بن علي (يفتح الهاء) صاحب اليمامة ، وما كتبه الى نصارى نجران ، والى جعفر وعبد الله ملكي عمان .

الثاني — أن يفتح الكتاب بلفظ « أما بعد » . وهو

أقل وقوعاً مما قبله . ومن ذلك ما كتبه الى أهل نجران وهم
من النصارى .

الثالث — أن تفتتح بلفظ « هذا كتاب » مثل : « هذا
كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد . انى بعثته الى
قومه عامة ومن دخل فيهم بدعوهم الى الله والى رسوله .
فمن أقبل منهم ففى حزب الله وفى حزب رسوله ، ومن أدبر
فله أمان شهرين » .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح
المكاتبات وهكذا كان يصرح فى الغالب باسم المكتوب اليه .
وكان يعبر عن نفسه فى كتبه بتعبير المفرد المتكلم . وكلما كان
يأتى بلفظ الجمع كما فى قوله « جاءنا » و « بلغنا » . وكان
يخاطب المكتوب اليه كذلك بلفظ الأفراد . وكان يأتى فى
صدر كتبه بالسلام فيقول فى خطاب المسلم « سلام عليك »
وفى خطاب الكافر « السلام على من اتبع الهدى » . وكان
يأتى فى صدور كتبه بالتحميد بعد السلام . وكان يتخلص
من صدر الكتاب الى جسده بلفظ « أما بعد » . وكان يختم
الكتاب بالسلام وربما أسقطه فى مرات قليلة .

الكتابة على عهد الخلفاء من الصحابة :

كان أبو بكر رضى الله عنه يفتتح كتبه بلفظ « من
أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فلان » .
ثم يسير على نهج الرسل من البدء بالسلام والائيان بالتحميد
والتخلص (بأما بعد) والاختتام بالسلام مع التحدث عن

نفسه بضمير الأفراد ومخاطبة المكتوب اليه بالكاف وهكذا .
وعلى هذا النحو جرى كتاب أبى بكر رضى الله عنه الى
العامّة والكافة فى بداية خلافته . وهو كتاب معروف فى التاريخ .

أما عمر رضى الله عنه فكان يكتب « من عمر بن الخطاب
خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فلان » . فلما
تلقب بأمر المؤمنين أصبح يكتب « من عبد الله عمر بن
الخطاب أمير المؤمنين الى فلان » . مثال ذلك :

« من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عمرو بن
العاص : سلام عليك . أما بعد ، فقد بلغنى أنه فشت لك
فاشية من خيل وابل وبقر وعبيد . وعهدى بك قبل ذلك
ولا مال ملك ، فكتب الىّ من أين أصل هذا المال . والسلام .
وأتى عثمان بن عفان فكان يكتب على طريقة سلفه .
ولكن اكتفى أحيانا فى صدر كتبه بلفظ « أما بعد » . من
ذلك ما كتبه الى على بن أبى طالب :

أما بعد . فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطيين
وطمع فى كل من كان يضعف عن الذود عن نفسه ، ولم
يغلبك مثل مغلب ، فأقبل الىّ صديقا كنت أو عدوا .
فإن كنت مأكولا فكُن خير آكل

والا فأدركنى ولما أمرت
ثم فى خلافة بنى أمية سارت الكتب على هذه الطريقة
من التصدير والتعبير . وقد أتى القلقشندى بنماذج من هذه
الكتب على عادته .

فى عهد بنى العباس كان الخلفاء يفتحون أكثر كتبهم بلفظ « من فلان الى فلان » ثم يأتون بقولهم « وأما بعد » .
الا أنهم زادوا بعد اسم الخليفة لفظ « الامام الفلانى » .
فلما صارت الخلافة الى الرشيد زاد بعد التحميد قوله « ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » .

وقد اختلفوا فى تقديم الاسم والكنية واللقب . والذى أقره (صاحب صناعة الكتاب) تقديم الاسم على الكنية أو تقديم الكنية على اللقب . مثال ذلك : من عبد الله فلان أبى فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين . سلام عليك . فان أمير المؤمنين يحمّد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » . ثم يأتى بالمعنى . فإذا فرغ منه وأراد أن يأمر بأمر فصل بياض يسير ثم كتب : « وقد أمر أمير المؤمنين بكذا » أو « رأى أن يكتب اليك بكذا » .

ولما تغلب بنو بويه على الخلفاء وعلت كلمتهم وتلقبوا (بفلان الدولة) و (فلان الملة) كان يكتب اليهم بذلك فى الكتب .

ثم لما كانت الدولة السلجوقية وأواخر الدولة العباسية بيغداد أكثروا من استخدام الألقاب . وقد أتى القلقشندى

على عادته بتماذج عديدة من مكاتبات أكابر الكتاب على
السنة الخلفاء من بنى العباس .

مهما يكن من شيء فإن الافتتاح (بأما بعد) على نوعين :

أولهما — أن يأتي بعدها التحميد مطولا أو مختصرا .

حسبما تقتضيه الحال .

وثانيهما — ألا يعقبها تحميد ما . مثال ذلك الرسالة

التي كتبها أبو اسحق الصابي الى الخليفة الطائع لله وبدأها

بقوله : « أما بعد فإن أمير المؤمنين الذي حملته الله من أعباء

الإمامة ، وأهله من شرف الخلافة ، واستودعه من الأمانة في

حياطة المسلمين ، والاجتهاد لهم في مصالح الدنيا والدين

يرى كذا وكذا » الخ .

وعلى النحو المتقدم جرت المكاتبات التي كانت تصدر

من الخلفاء الفاطميين بمصر مع بعض الفروق البسيطة . ومنها

أن تبدأ المكاتبة بقولهم (من عبد الله ووليه) ثم تأتي باللقب

ثم بالصفة . ثم بلفظ أمير المؤمنين . ثم لا بد من الصلاة على

النبي بطريقة أخرى فيقول : « ويسأله أن يصلي على جده

محمد نبيه ورسله صلى الله عليه وسلم وعلى الأئمة من

عترته » الخ .

وعلى هذا النحو تحدث القلقشندي عن الكتب الصادرة

عن الخلفاء الموحدين بتونس وشمال افريقية وغيرهم ، وكان

يشتمع ذلك بالنماذج البليغة والرسائل المشهورة ، ويشرح

ما غمض منها أن كان ثم غموض ونحو ذلك .

الكتب الصادرة من الملوك ومن في معانهم الى الخلفاء :

كان قواد النبي صلى الله عليه وسلم يفتحون المكاتب اليه هكذا « لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد ابن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بنى الحارث بن كعب وأمرتني اذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم الى الاسلام فان أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه . وان لم يسلموا قاتلتهم . واني قدمت اليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثت اليهم كتابا : يا بنى الحارث اسلموا تسلموا . فأسلموا ولم يقاتلوا . وأنا مقيم بين أظهرهم . آمرهم بما أمر الله وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معاني الاسلام وسنة النبي حتى يكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

وكذلك فعل الملوك الذين عرض (رسول الله عليهم الاسلام فكتب النجاشي « الى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة » . وكتب المقوقس « لمحمد رسول الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك » .

وفي خلافة بنى أمية بدئت الرسائل بلفظ (الى فلان من فلان) وتصدر بالسلام والتحميد وسؤال الصلاة على النبي

صلى الله عليه وسلم والتخلص بلفظ (أما بعد) . كما بدئت
المكاتبة بلفظ « كتابي للخليفة والحال على كذا كذا » وفيها
يدعى للخليفة بطول البقاء في أثناء ذلك . ويعبر الملك
المكتوب عنه بلفظ الأفراد مع التصدير بالعبودية ويخاطب
الخليفة بأمر المؤمنين ويختم بالدعاء مثل : كتابي — أطال الله
بقاء أمير المؤمنين — وعبد أمير المؤمنين يستديم يشكر الله ،
الخ . وقد يفتح الكتاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيم
للخليفة . كما كتب القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين
الأيوبي الى ديوان الخليفة ببغداد .

« أسعد الله عظماء الأملاك بالانتساب الى الخدمة
الشريفة النبوية ، وأوزعهم ما أمرهم به من طاعتها ، وخلد
ملك الديوان العزيز النبوى ما دامت الأفلاك قائمة والنجوم
ناجمة .. المملوك — وان كان قد يسر الله له .. الخ .
وقد تفتح المكاتبة كذلك بأية من القرآن الكريم . كما
كتب القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبي الى
الخليفة المستضىء يبشره بفتح بلاد النوبة .

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها
عبادى الصالحون » . « سلام قولاً من رب رحيم » .
« فروح وريحان وجنة نعيم » . وصلاة يتبعها تسليم وكأس
يمزجها تسنيم . وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى ورحمة
الله وبركاته على مولانا الامام المستضىء الخ .
وقد تفتح المكاتبة أيضاً بالصلاة كما كتب القاضي الفاضل :

« صلوات الله التي أعدها لأوليائه وذخرها . وتحياته التي قذف بشهبا شياطين أعدائه ودحرها . وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب . وزكاته التي هي للمؤمنين سكن . وسلامة الذي لا يعترى المؤمنين في ترديده حصر ولا لكن على مولانا عاقد ألوية الايمان ، وساحب ذيل الاحسان ، وغالب حزب الشيطان الخ » .

وقد تفتتح المكاتبه بالسلام على طريقة القاضى الفاضل التي ذكرها في ابتداء المكاتبه بالصلاة . وقد تفتتح كذلك بالتحميد الطويل على النحو الذى تفنن فيه السابقون وهكذا . وعلى هذا النحو تقريبا كانت الرسائل التي ترد الى الخلفاء الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس مع فروق بسيطة تدعو اليها الحالة . كان يعبر عن الخليفة « بالمقام » أو يعبر عنه « بالحضرة الأمامية » أو يعبر عنه « بالحضرة » فقط وذلك عند الموحدين من الخلفاء في شمال أفريقيا .

المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية :

تتبع القلقشندي هذه المكاتبات ابتداء من الدولة الاخشيدية فالطولونية فدولة الفاطميين فالدولة الأيوبية فدولة المماليك . فأما المكاتبات في الدولتين الأخشيديّة والطولونية فقد كانت رسوم لا تخرج في مجموعها عما كانت عليه هذه المكاتبات في الخلافة العباسية . ومعنى ذلك أنها كانت تفتتح بلفظ من فلان الى فلان . كما كتب ابن عبد كان

عن أحمد بن طولون الى ابنه العباس حتى أظهر العصيان :
« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم
لنفسه ، العاصي لربه ، العادى طوره الجاهل بقدره ...
سلام على كل منيب مستجيب ، نائب من قريب الخ » .
وكذلك كتب الاخشيدي محمد بن طغج الى ارمانوس
ملك الروم :

« محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين الى ارمانوس عظيم
الروم ومن يليه . سلام بقدر ما أتم له مستحقون » . كتب
هذا الكتاب عبد الله النجيري (نسبة الى نجيرم محطة
بالنصرة) وكان عالما بوجوه الكتابة .

وأما ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية فقد كان الناس
لا يكتبون « المجلس » الا للسلطان خاصة . ويكتبون
لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم « الحضرة » . ثم أقردوا
السلطان « بالمقام » و « المقر » . وصاروا يكتبون « المجلس »
لمن دونه . واصطلحوا على الاختصار في نعوت الملوك
المكتوب اليهم والدعاء بخلاف من هو دون السلطان وتحت
امرته فانه كلما كثرت النعوت وكثر الدعاء كان أبلغ . وإذا
كتب السلطان الى من هو دونه عتبر « بالمجلس السامي »
ولا يزيد على ذلك . وقد يضاف في نعت الأمير لفظ « عمدة
الملوك والسلاطين عز الاسلام وفارس المسلمين » وما شابه
ذلك .

وقد يكتب للأحرار الأعيان « حسام أمير المؤمنين »

و « سيفه أمير المؤمنين » و « خاصة أمير المؤمنين » و « ثقة أمير المؤمنين » الخ كما اصطلاحوا على أن السلطان لا يتدعى بالدعاء في كتبه الى أحد الا أن يكون مماثلا له في الملك . وان السلطان لا يكتب الى أحد ممن في خدمته « لا زال » أو « لا برج » في الدعاء . وانما يكتب بذلك الى من ماثله من الملوك . وان الدعاء للملوك يكون مثل « أدام الله أيامه » و « خلد سلطانه » و « ثبت دولته » . وان التحميد في صدور الكتب لا يكون الا في الكتب الصادرة عن السلطان . وأن يكتب في الكتب السلطانية « صدرت » أو « أصدرناها » ولا يقال « كتبت » . وان السلطان يخاطب الخلافة بلفظ « المواقف المقدسة الشريفة » و « العتبات العالية » و « مقر الرحمة » و « محل الشرف » . وان السلطان يخاطب الملوك « بالمقر العالي » و « المقر الأشرف » . ولا يقال « المقام السامي » . وان السلطان يخاطب الوزراء « بالجناب العالي » و « المحل السامي » ومن دون ذلك « المجلس السامي » ومن دونه « مجلس الحضرة » ومن دونه « الحضرة » فقط . وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة الطرقة ، وتكون بقلم جليل وليس بدقيق ، وأن يوسع فيها بين السطور حتى يكون بين كل سطرين ثلاث أصابع أو أربع ، وانه لا يكثر النقط والشكل في الكتب الصادرة عن السلطان لا سيما في الألفاظ الطاهرة ، والا حرج على السلطان بأن يخاطب العلماء والقضاة بأخيه وولده .

ثم ان مكاتبات هؤلاء السلاطين جرت على أربعة
أساليب :

أولها — أن تفتح بالدعاء للمجلس أو الجناح .
ثانيها — أن تفتح المكاتبه بلفظ الاصدار فيقال
« أصدرنا هذه المكاتبه » .

ثالثها — أن تفتح بلفظ « هذه المكاتبه للمجلس » .

رابعاً — أن تفتح بلفظ « كتابنا » .

وعلى هذه الطريقة عرض القلقشندى للمكاتبات التى
تصدر عن ملوك المغرب ، وعن وزراء الخلفاء المنفذين أوامر
الخلافه فى بغداد ومصر وبلاد المغرب أيضا .

أما المكاتبات الصادرة عن اتباع الملوك فى الشرق الى
هؤلاء الملوك فأولها بلفظ « كتابى » — ثم يدعى للمكتوب
اليه ، ويخاطب السلطان فى أثناء الكتابة « بمولانا » أو
« مولانا الملك » . ويعبر الكاتب عن نفسه بلفظ الأفراد .
ويختم المكاتبه بقوله « فان رأى أن يفعل كذا فعل ان شاء الله
تعالى » .

وأما كتب الاتباع فى الديار المصرية فتفتح بالدعاء بعز
الانصار وأدامه السلطان ويخاطب السلطان فى هذه الكتب
« بمولانا » . ويعبر الكاتب عن نفسه « بالملوك » .
ولا يخاطب السلطان بلفظ « سيدنا » لأنها لا تقال الا لأكابر
العلماء .

وأما المكاتبات الصادرة من اتباع الملوك فى بلاد المغرب

فتبدأ « المقام » أو « الجنب » أو « بالحضرة » أو بلفظ « سيدى » أو « مولاي » .

وأما الأجوبة الصادرة عن ملوك الشرق فتفتح بلفظ « كتابنا » و « وصل كتابك » .

وعلى نحو ذلك جرت الأجوبة الصادرة عن ملوك المغرب .

المكاتبات المصرية فى الدول التركية :

سبق أن قلنا أن المكاتبات التى ترسل الى خلفاء بنى العباس من سلاطين مصر تفتح بآية من آيات القرآن الكريم ثم السلام . ومنها ما يفتح بالسلام . ومنها ما يفتح بالصلاة على الخليفة . ومنها ما يفتح بالدعاء لديوان الخلافة . فيقال : أدام الله أيام الديوان العزيز المولوى السيدى الأمامى الفلانى ... الخادم ينتهب ثرى العتبات الشريفة بالتقيل « الخ .

رتب المكاتبات ورتب أهلها :

الأولى — الدعاء للمقر « أعز الله أنصار المقر الكريم » الخ ..

الثانية — الدعاء للجنب الكريم .

الثالثة — الدعاء للجنب العالى بمضاعفة النعمة .

الرابعة — الدعاء للجنب العالى بدوام النعمة .

الخامسة — الدعاء للمجلس بدوام النعمة .

السادسة — ما بدايته « صدرت هذه المكاتبة للمجلس

العالى » الخ ..

السابعة — ما بدايته « صدرت للمجلس السامى » الخ .

الثامنة — ما بدايته « يعلم مجلس الأمير الأجل

الكبير » الخ

أما الأدعية التى تتضمنها الكتب فأنواع كثيرة ومنها
أدعية تصلح للنائب الكافل ، وأدعية تصلح لنائب الشام
المحروس ، وأدعية تصلح لهذين معا ، وأدعية تصلح لنائب
حلب المحروسة وأدعية تصلح لنائب السلطنة بطرابلس .
وأدعية تصلح لنائب السلطنة بحماة ، ولنائب صغد ، ولنائب
الكرك وهكذا .

وهناك مراتب المكتوب اليهم من أهل المملكة وهم
أرباب السيوف (كالنائب الكافل) ، ونائب الاسكندرية
والكشاف وولاية الوجهين البحرى والقبلى ومقدمو الألوف
وغيرهم . ولكل درجة من هذه الدرجات مصطلحها فى الكتابة
اليها والكتابة منها . ومصطلحها كذلك فى الأدعية ونحو ذلك
وكذلك الشأن بالقياس الى أرباب الأقلام وقد تقدم القول
فى درجاتهم ورتبهم . وقد كان لكل درجة مصطلحها فى البدء
ومصطلحها فى الدعاء ومصطلحها فى العرض ونحو ذلك .

تحدث القلقشندى عن كل هذه الرتب ومصطلحها فى

كل من مصر والشام وطرابلس وحماة وحلب وصغد وغيرها
من النيابات المعروفة لاذاك . حتى العربان هنا وهناك كان

للكتابه اليهم مصطلح لا بد أن يعرفه كاتب الديوان وقد
شرحه القلقشندي كذلك وضرب عليه الأمثلة .

أوراق الجواز وبطاق الحمام في المكاتب :

ويصبر عنها في زمان المؤلف بأوراق الطريق . وورقة
الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة . يكتب في أعلاها
سطر واحد صورته هكذا « ورقة طريق علي يد فلان بن
فلان » . ثم يخلى بيت العلامة تقدير شبر . ويكتب في بقية
الوصل الأول قبل الثاني بأربع أصبع مطبوعة « رسم بالأمر
الشريف العالي المولوى السلطاني الملكى أعلاه الله تعالى
وشرفه أن يمكن فلان الفلاني » . والمستند في هذه الطريق
هو كاتب السر أو الدوادر أو نائب السلطان .

ولم يكتب القلقشندي بمتابعة هذا النظام في المكاتب
في العراق والشام والحجاز ومصر حتى أخذ يشرح هذا
النظام نفسه في ممالك ايران وكرمان وتوران ثم في اليمن
والهند والسند والسودان وبلاد المغرب والأندلس صدورا
وورودا ، وابتداء وردودا ، وما كان منها مكتوبا الى أهل
الاسلام ، وما كان مكتوبا الى أهل الكفر وهكذا .

ثم عرج المؤلف على الكتب الاخوانية « الديوانية »
وذكر كثيرا من مصطلحها وإن كان مصطلحها لا يقاس مطلقا
بمصطلح الكتب الرسمية . ثم عاد مرة أخرى الى هذه الكتب
الرسمية أو الديوانية فاستأنف الحديث عنها على أساس
الغرض من هذه المكاتب وهذا الغرض أما أن يكون انتقال

خلافة الى خليفة واما أن يكون حثا على لزوم الطاعة ،
أو دعاء الى الجهاد ، أو دعاء الى التمسك بالدين ، أو تهديدا
لمن نكث العهد من المخالفين ، أو توبيخا لمهزوم أو تضييقا
على المجرمين ، أو نهيا عن التنازع في الدين ونحو ذلك .

وأما الغرض من المكاتبات الاخوانية فهو التهنئة بولاية
أو بالعودة من الحج أو القدوم من سفر أو الشفاء من مرض
أو بحلول موسم من المواسم أو بالأولاد أو بالزواج والتسرى
أو بقرب المزار أو بنزول المنازل الجديدة وبالتعازى فى ابن
أو بنت أو أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوجة . وقد يكون
الغرض من المكاتبه الاخوانية توسطًا وشفاعة ، أو تشوقا
واستزارة أو استرضاء واستعطافا واعتذارا أو شكرا أو عقابا
أو عيادة وسؤالا ، أو فكاهة ومداعبة ، أو أخبارا يسوقها
الصديق الى صديقه وهكذا .

تلك هى المقالة الرابعة من مقالات صبح الأعشى ؟ وتلك
أفكارها ومحتوياتها ؟

وستقول ولم طالت فى يد المؤلف حتى بلغت من
الصفحات ألفا وثلاثمائة وخمسا وستين «

والجواب عن ذلك أن القلقشندى اتبع فى كتابة هذه
المقالة الطريقة المصرية التى أشرنا إليها آنفا وهى الطريقة

التي تعتمد على الاكثار من النماذج والأمثلة بدلا من الاكثار
من القواعد والأصول على نحو ما يفعل المشارقة .
والحق أن هذه المقالة الرابعة التي فرغنا منها الآن تعتبر
معرضا جميلا لأبلغ ما عرفه الأدب العربي من المكاتبات في
شتى العصور وشتى البيئات . ومن أجل هذا نقول — ونحن
صادقون فيما نقول — أننا قصرنا في حق هذه المقالة لأن
جمالها في الحقيقة صادر عن هذه الأمثلة البليغة . وقد ضاق
هذا الفصل عن إيراد طائفة منها .

المقالة الخامسة

الفصل الثاني عشر

موضوع هذه المقالة هو بيان الولايات والبيعات
والعهود انصادرة عن الخلفاء أو الملوك لامثالهم من
الخلفاء أو الملوك لاصحاب المناصب سواء كانوا من
أرباب السيف أم القلم (١) .

الولايات

فأما الولايات فهي طبقات : فهناك طبقة الخلافة اما بعهد
من الخليفة السابق واما ببيعة أهل العقد والحل في المملكة .
وهناك طبقة السلطنة اما بعهد من الخليفة أو بعهد من
السلطان السابق . وفي الديار المصرية خاصة صدرت الولايات
والعهود لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وللوظائف الصناعية
كالأطباء والجراحين ، ولزعماء أهل الذمة كبطارقة النصارى
ورؤساء اليهود . والقاعدة في كل ذلك أن تصدر الولايات
الكبيرة عن السلطان والصغيرة عن دونه . فمقدم الألف

(١) استغرق الكلام في هذه المقالة ألفا وستمائة واثنين
وأربعين صفحة موزعة بين المجلدات التاسع والعاشر والحادي
عشر والثاني عشر .

— مثلا — تكون ولايته عن السلطان بمرسوم من ديوان
الانشاء . ومقدم الحلقة ولايته عن نائب السلطان بالملكة
التي هي مضافة اليه . والقضاة الكبار تكون ولايتهم
بمرسوم سلطاني . والقضاة الصغار ولايتهم الى قاضي
القضاة . وقس على هذا في وظائف الافتاء والحسبة
والتدريس والخطابة بالجوامع . وكذلك الشأن في الوظائف
الديوانية التي سبق شرحها .

ولسنا بحاجة الى أن نعيد القول فيما ينبغي للكاتب
مراعاته في كل ذلك من براعة الاستهلال ومراعاة المناسبة
أو مقتضى الحال ، والا يوصف المتولى بما فيه تعريض بمن
سبقه في الولاية . ثم منها ذكر الدعاء المناسب لصاحب الولاية
ونحو ذلك .

ثم لا حاجة بنا أيضا الى اعادة القول في الألقاب الخاصة
بذوى الولايات الصادرة عن السلطان . وقد سبق القول
أنها بالديار المصرية خمسة ألقاب على الترتيب وهي :

المقر ، والجناب ، والمجلس ، ومجلس الأمير أو مجلس
القاضي أو مجلس الشيخ ، ومجلس الصدر . أو الاقتصار
على المضاف اليه من كل ذلك وحذف المضاف . فيقال :
الأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصدر . وأما أهل الذمة
فيخاطبون بالحضرة .

وأما الألفاظ المستخدمة في اسناد الولاية فهي على

الترتيب/ : عهد ، وتقليد ، تفويض ، استقرار أو استمرار ،
ترتيب ، تقدم .

فيقال : يعهد اليه ، ويقلد كذا ، ويفوض اليه كذا ،
ويستقر أو يستمر في كذا ، ويرتب في كذا ، ويقدم على
الطائفة القلانية وهكذا .

وأما الاقتراحات فهي على الترتيب الآتي :
افتتاح بلفظ هذه بيعة أو هذا ما عهد . افتتاح بأما بعد
حمدا لله . افتتاح بلفظ : رسم بالأمر الشريف . افتتاح بلفظ
أما بعد فان كذا .

ومن الأمور التي يجب مراعاتها كذلك في كتابة العهود
أو الولايات طول الكلام أو قصره ، فكلما عظمت الوظيفة
وارتفع قدر صاحبها كان الكلام فيها أطول والعكس
بالعكس — ولندع هذا الى الكلام عن كل من البيعة والعهد
والولاية .

البيعة

البيعة والمبايعة كالبيع الحقيقي معناها المعاهدة والمعاهدة .
وهي نوعان بيعات الخلفاء وبيعات الملوك .
بيعات الخلفاء :

والأصل فيها أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد في السقيفة فقالوا : منا
أمير ومنكم أمير . فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر . ثم
تكلم أبو بكر فكان مما قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .
وهنا قال عمر : يا أبا بكر فأنت سيدنا وأجنبنا إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ عمر يده فبايعه
وبايع الناس .

أما ما ينبغي مراعاته في كتابة البيعة للخليفة الجديد
فأمور كثيرة منها حسن الاقتناع والتثنية على شرف الخلافة
وبيان الحاجة الماسة إلى وجود امام ، والاشارة إلى أن
صاحب البيعة قد استوفى شروط الإمامة . وأنه أفضل من
غيره فيها . ثم التثنية إلى أهل الحل والعقد في المملكة وهم
الذين لهم فضل المبايعة ، والتثنية على سبب خلع الخليفة
السابق ان كانت البيعة مترتبة على خلع ثم التثنية على وجوب
طاعة الخليفة الجديد والانقياد له . ولا ينسى الكاتب التعبير

عن معنى التعزية في الخليفة الميت ومعنى التهنية للخليفة الجديد المستقر ان كانت البيعة مبنية على موت خليفة .

ولكتاب البيعة ذاتها مذاهب شتى وأساليب عدة منها الأسلوب المبني على الايمان المغلفة كالحلف بالله وكالطلاق والعناق والايمان المخرجة يحلف بها على البيعة . واشتهرت بين الفقهاء بايمان البيعة . ولم يعرف هذا الأسلوب الا على يد الحجاج بن يوسف حين كان يأخذ البيعة من أهل العراق للخليفة عبد الملك بن مروان ، ثم جرى الناس بعده هذا المجرى . وفي كتاب صبح الأعشى في الموضع الذي يتحدث فيه عن البيعة والعهد نماذج كثيرة من شتى العصور . وكلها خليك بأن يرجع اليه القاريء المتخصص ^(١) . ثم أورد القلقشندي نماذج وافية من كتاب العهد وللقاريء أن يرجع الى الموسوعة متى أراد .

عهدو الخلفاء للملوك :

الأصل في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم فوض أمر اليمن في حياته الى عمرو بن حزم رضى الله عنه . وقد سبق القول بأن الملك يطلق على الولاية العامة . والسلطنة تطلق على أنواع الولايات حتى ان من الفقهاء ورجال القانون الاسلامي من يعبرون عن القاضي ووالي البلد بالسلطان .

ثم ان تفويض الخليفة الأمور في الأقاليم الى من يدبرها ويقوم عليها ثلاثة أنواع :

(١) راجع صبح الأعشى : الجزء التاسع من ص ٢٨٠ - ٣٣١

الأول — وزارة التفويض . ويلقب الوزير في هذه الحالة بلقب ملك . وهو ما كان عليه الأمر في الديار المصرية .
الثاني — اماره الاستكفاء . ويسمى صاحبها بالأمير الكافي . ويعتبر في هذه الامامة ما يعتبر في وزارة التفويض من الشروط .

ثالثها — اماره الاستيلاء — وهى أن يستولى الرجل بالقوة على بلاد — ثم يقلده الخليفة امارتها ويفوض اليه تدبير شؤونها . وقد يحدث العكس فيقلد الخليفة أحد الأمراء اقليما من الأقاليم فيستولى عليه ويستبد بسياسته . وهذا ما صار اليه الأمر بعد التغلب على الخلفاء .

قال أبو العباس : ومملكة الديار المصرية منذ الفتح الاسلامى سائرة بين هذه الأنواع الثلاثة :

كانت في بداية الأمر اماره استكفاء يولى عليها الخليفة في كل زمن من يقوم عليها . الا ما كان في أيام بنى طولون من الخروج عن طاعة الخلفاء أحيانا . فلما استولى عليها الفاطميون اتخذوا لأنفسهم فيها « وزراء تفويض » واحتجوا هم وتركوا لوزرائهم حرية التصرف في جميع الأمور . وكان أولئك الوزراء يلقبون بالقباب الملوك : كالملك الأفضل رضوان وزير الحافظ ، والملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد .

ولما صار الأمر في مصر الى بنى أيوب وكانوا يلون

الديار المصرية باسم الخلافة العباسية صارت مصر « امارة
استيلاء » لاستيلائهم اذ ذلك عليها بالقوة .

وحين تغلب الملوك بالمشرق على خلفاء بنى العباس
وظهروا عليهم صاروا يلقبون بالسلطين . وشاركهم في ذلك
غيرهم من الملوك في بلاد اخرى . فتلقب الملك الناصر صلاح
الدين الأيوبي بالسلطان الى جانب لقبه الأول وهو الملك .
وأصبح يعرف (بالسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب) .

وفي كتابه الخليفة العهد للملك اما أن يقتصر على ما يلقب
به هذا الملك أو يكنى به ثم يضاف الى ذلك لفظ (مولى
أمير المؤمنين) ولا يزداد على ذلك . وأما يكتب فيها (السلطان
السيد الأجل الملك الفلاني مع بقية ما يناسب من الألقاب
المفردة أو المركبة) .

وهناك مذهب عمل به الوزير ضياء الدين بن الأثير وهو
أن يأتي بالألقاب المقررة دون المركبة . ويضرب ابن الأثير
مثلا على ذلك عهداً تخيل أنه يكتبه لصلاح الدين الأيوبي فقال فيه :
وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير
العالم العادل صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب .

الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب السيوف والأقلام :
والأصل في هذه الولايات ما كتب به أبو بكر الصديق
رضي الله عنه لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة . وعلى
طريقته سار الناس بعد ذلك .

« هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام . عهد اليه أن يتقى الله ما استطاع » الخ .

ثم عهد عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعري بولاية القضاء فقال : أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى اليك . وأنفذ إذا تبين لك . فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نقاذ له ... الى آخر هذه الرسالة المشهورة في التاريخ .

ثم في عهد بنى أمية سار الكتاب على هذا النهج . حتى جاءت خلافة بنى العباس فأصبحت هذه الولايات أنواعاً ثلاثة :
أولها — ما يكتب لوزراء الخلافة .

ثانيها — ما يكتب لأرباب السيوف في ديوان الخلافة .

ثالثها — ما يكتب لأرباب الأقلام في ديوان الخلافة .

وفي أيام الدولة الفاطمية كانت الولايات على نوعين

رئيسيين :

أولهما — ما يكتب به عهد الخليفة .

ثانيهما — ما يكتب به عن الوزير .

وكانوا يسمون جميع ما يصدر عن ديوان الانشاء

« سجلات » . وربما سموه « عهود » . ثم يرتبون هذا

النوع من المكاتبات مراقب :

الأولى — أن يقال بعد التصدير (أما بعد فالحمد لله)

ويطول التحميد بعد ذلك .

الثانية — أن يؤتى بعد التصدير بتحميدة واحدة تشتمل على كثير من صفات الله تعالى ثم ينتقل الكاتب منها الى غرض آخر من أغراض الرسالة .

الثالثة — أن يفتح بالتصدير أيضا ثم يؤتى بلفظ (أما بعد) من غير تحميد . بل يقال (أما بعد فان أولى الناس بكذا) أو (أما بعد فان أحق الناس بكذا) . ثم ينتقل العهد من ذلك الى ذكر الأوصاف الحسنة ثم الوصايا وهكذا .

ومعروف أن الخليفة هو الذى تصدر عنه ولاية الوزير والقاضى ومن فى هذه الدرجة من أرباب السيوف والأقلام . وهذا كله ما يكتب عن الخليفة . أما ما يكتب عن الوزير فكانت عهوده تفتح بلفظ (أما بعد فان أولى) أو (أن أحق) أو (أن أجدر) أو (من كان متصفا بكذا كان خليقا بكذا) أو (لما كان فلان) أو (لما كنت) الخ .. وللوزير الفاطمى أن يكتب باسم الخليفة ، وله أن يكتب باسمه هو مستقلا عنه .

وعلى هذا النحو وصف لنا القلقشندى الطرق المتبعة فى كتابة العهود فى مصطلح كتاب المغرب والأندلس . فقال انهم يسمون العهود باسم « الظهائر » كما كان الفاطميون يسمون هذه العهود باسم « السجلات » . وانهم يفتحون هذه المكاتبات بلفظ « هذا ظهير » وهى كثيرة منها ما يكتب لأرباب السيوف . ومنها ما يكتب لأرباب الأقلام من أصحاب الوظائف الدينية والوظائف الديوانية .

المقالة السادسة

الفصل الثالث عشر

في الوصايا والمساحات والإطلاقات والتذاكر والتحويلات

فرغ القلقشندي من الحديث عن المكاتبات الرسمية التي تكتب في الولايات وتعين الأمراء والحكام ونحو ذلك . وبقي أمام القلقشندي أن يعرض بعد ذلك لضروب أخرى من المكاتبات تلي ذلك في الأهمية . ومنها الوصايا الدينية والمساحات والإطلاقات السلطانية والتذاكرات والتحويلات . وسنعرف المراد بكل هذه الألفاظ جميعاً وذلك بعد أن نعرف المقصود باللفظ الأول منها وهو :

الوصايا الدينية

وقد كان لقدماء الكتاب عناية كبيرة بهذه الوصايا . غير أن ملوك المغرب كانوا أشد عناية بها من ملوك المشرق ، وكانوا يأمرؤن فتقرأ هذه الوصايا من أعلى المنابر ، ليعرفها الناس كما نعرف نحن مواد الدستور الجديد الذي تأتي به حكومة جديدة . ولا شك أن هذه طريقة من أنجح طرق الاعلام إلى وقتنا هذا .

غير أن هذه العادة الحسنة قل العمل بها في زمان المؤلف

اكتفاء بالعمل الذي يقوم به « المحتسب » وهو موظف كبير في الدولة عهد اليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الآداب العامة في الأسواق والأماكن العامة ، كما عهد اليه مراقبة الموازين والمكاييل والأسعار ونحو ذلك .

وكانت الدولة المملوكة لا تظهر الاهتمام بمثل هذه الوصايا الدينية الا في حالات قليلة يظهر فيها الجمهور بمظهر المستهتر بأمر من أمور الدين أو الخروج على أحد من حدوده ، أو الرجوع بالناس الى مذهب الراقضة وهو المذهب الذي كانت عليه الدولة الفاطمية ثم أتت الدولة الأيوبية فمادت بالناس الى مذهب أهل السنة .

ثم أتى القلقشندي بنماذج من هذه الوصايا . ومنها وصية لأحد خلفاء بني أمية في الأندلس . كتبها كاتب معروف بأبي زيد الداراري .

وقد افتتحت الوصية بحمد الله والصلاة على رسوله والدعاء للصحابة والتابعين . ثم اشتملت الوصية على أمور كثيرة منها على سبيل المثال :

أولا — التوصية بتقوى الله والعمل بطاعته . « وقد علم الله اننا لم نتحمل أمانة الاسلام لنستكثر من الدنيا . ولكن لتتعهد الكافة . ورجونا بذلك أن نتخلص من القسم الأول في قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فأرفق به »

ثانياً — إقامة الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال إلى الله الصلاة فمن حافظ عليها حفظ دينه . ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » . وأن يأمر كل إنسان من صفاره بها لقوله تعالى « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » . وأن يدرس الجمهور كتاب الصلاة ويستكملوه وعياً وحفظاً .

ثالثاً — الأمر بالجهاد والأخذ بأسبابه الكثيرة ومن أولها تعلم الرماية . قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وقال صلى الله عليه وسلم (القوة الرمي) قالها ثلاثاً . ●

رابعاً — تعهد الضعفاء والفقراء بالصدقات وإيثار أهل التعفف ممن لا يسألون الناس الحافا . قال صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي يطوف به على الناس فترده التمرة والتمرتان وإنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يثْقن إليه فيتصدق عليه .

خامساً — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي وظيفة واجبة على كل مسلم . قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » إلا

وإن من أشد المنكرات شرب الخمر بل إن الله
لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها والمحمولة إليه .
فمن شربها فليضرب الضرب المبرح ، وليسجن
السجن الطويل أو يتوب عنها .

سادسا — انتهى عن قراءة كتب الفلسفة « لعن الله واضعها
فانهم بنوها على الكفر والتعطيل . واخلوها من
البرهان والدليل » قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : تركت فيكم أمرين لن تقتلوا ما تمسكن
بهما — كتاب الله وسنة نبيه . فيحسب العاقل
كتاب الله وسنة رسوله .

سابعا — العناية بأمر الأسواق فليتول ذلك عن المسلمين
رجال معروفون بالديانة والأمانة ومن لا يصلح
للتجارة في سوق المسلمين ينزع منها على أسوأ
حال . ومن عثر منهم على ربي في معاملته نال
أشد العقاب وأسوأ النكال .

وحول هذه المعاني وأشباهاها دارت توصيات الخلفاء
التي من هذا النوع وهي أمور تضمنتها كتب الحسبة التي
سبق شرحها فيما مضى .

المسامحات

ثم من الموضوعات التي اشتملت عليها المقالة السادسة فيما عدا الوصايا الدينية — كتب المسامحات والاطلاقات السلطانية .

و « المسامحات » جمع مسامحة — وهي ما جرت به عادة الدواوين السلطانية من المقررات واللوازم السلطانية . وقد جرت العادة ان السلطان اذا سمح بترك شيء من ذلك كتب به مرسوم شريف سواء في ذلك المسامحات العظام ويقال فيها « مرسوم شريف أن يسامح بالجهة الفلانية بأبطال المكوس بها ... أو أن يسامح أهل الجهة الفلانية بكذا وكذا ابتغاء وجه الله تعالى ، ورجاء لنواله الجسيم على ما شرح فيه » . ثم تأتي بعد ذلك البسملة . ثم تليها الخطبة بالحمد لله الى نهايتها ثم يأتي لفظ (وبعد) . ثم يؤتى بمقدمة المسامحة من شكر النعمة والوفاء بحقوقها ومقابلتها بالاحسان الى الخلق والأخذ بين الرعية وعمارة البلاد وتوخي مصالح العباد . ثم يقال كذلك « لما كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يسامح بكذا . ثم تكتب هذه العبارة : فرسم بالأمر الشريف أن يكون الأمر على كذا

وكذا . ثم يؤتى بلفظ : وسبيل كل واقف على هذا الرسوم
الشريف العمل بضمونه أو بمقتضاه . ثم تختم بالدعاء
المناسب .

ولقد أتى القلقشندي كعادته بطائفة كبيرة من النماذج
لهذه المسامحات (١) .

ومن المسامحات ما يصدر عن نواب السلطان كما
صدرت من السلطان نفسه . وغالب ما يكون ذلك في
مسامحات التجار في المقررات التي يبيعونها أو يشترونها
ونحو ذلك . وتبدأ المسامحة التي من هذا النوع بلفظ
« رسم بالأمر العالي » .

(١) راجع الجزء ١٣ من صبح الأعشى ص ٢٨ - ٣٩ .

الإطلاقات

وانتقل القلقشندى من الكلام عن (المسامحات) الى الكلام عن (الاطلاقات) سواء ما يصدر منها عن السلطان وما يصدر عن غيره . ويتبع في تحريرها ما أتبع في تحرير المسامحات ذاتها من بسمة وتحميد ومقدمة ودخول في الموضوع . وقد أتى المؤلف بأمثلة كثيرة من هذه المكاتبات ومنها الكتاب الذى تم تحريره فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وذلك باستمرار العمل بالاطلاق الذى كان قد أطلقه السلطان صلاح الدين الأيوبي بالديار المصرية للعمرين من نسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) .

ثم من الأمور التى اشتملت عليها المقالة السادسة حديث المؤلف كذلك عن :

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٤١ .

الطرخانيات

والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم
السلطانية ، يقيم حيث شاء ، ويرتحل متى شاء تارة بمعلوم
يتناوله ، وأخرى بغير معلوم يأخذه . ومن ثم وجدنا
(الطرخانية) تكتب للأمراء حيناً ، وللأجناد حيناً آخر .
وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز
عن الخدمة السلطانية . وجرت العادة أن يسمى ما يكتب
في الطرخانيات مراسيم . والعادة أن يفتح هذا المرسوم
بحمد الله أو يكتفى فيه بلفظ (أما بعد) ثم يقال بعد ذلك
« لما كان فلان كذا وكذا رسم بالأمر الشريف أن يستقر
طرخانا يتصرف على اختياره ، يسير ويقيم في أى مكان
اختاره من بلاد المملكة . ويتبع في تحرير هذه المراسيم كثير
من الأصول المتبعة في مراسيم الاطلاقات والمسامحات التى
سبقت الإشارة إليها .

وهذا النوع من المراسيم كما يكتب لأرباب السيوف
يكتب أيضا لأرباب الأقلام . وكلها قريبة الشبه في وقتنا

هذا بالاحالة الى المعاني — ولكن بطريقة مهذبة جدا . لأنها
تكون بمقتضى كتاب من السلطان أو نائب السلطان يذكر
فيه فضائل المكتوب اليه وسابق بلائه في خدمة السلطان أو
نائبه ، ويدعى له فيها بالخير ، وتلتبس منه البركة ، وتوجه
اليه العبارات اللطيفة التي تنم عن العطف والشفقة من جانب
والتقدير والاحلال من جانب آخر .

التحويلات

ثم ان المقالة السادسة اشتملت كذلك على أمرا من الأمور الهامة هو ما يكتب في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية — أو بعبارة أخرى — تحويل السنين من هذه الى تلك وبالعكس . وقد ظهرت حاجة كاتب الديوان الى ذلك منذ أدركت الدولة ان الخراج وجبايته منوطان بالزراع والزراع منوط بالشهر من شهور السنة الشمسية . وجباية الخراج في الملة الاسلامية منوط بتاريخ الهجرة النبوية وشهور السنة العربية .

قال المؤلف ومعلوم أن السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم تقريبا . والسنة الهجرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم تقريبا . فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوما وسدس يوم . وتنتج زيادة السنين الشمسية على السنين القمرية في كل ثلاث سنوات شهرا واحدا وثلاثة أيام ونصف يوم تقريبا . فاذا تمادى الزمان تفاوت ما بين السنين تفاوتا قبيحا . ف يرى السلطان عند ذلك أن تنقل السنة الشمسية الى السنة القمرية بالاسم دون الحقيقة توفيقا بينهما وإزالة للشبهة في أمرهما . وهنا

تسمى الرعية ظنهما بالسلطان وتأخذ في التشنيع عليه . فيأمر
السلطان بكتابة مراسيم يوجه فيها السلطان كلامه للناس
حتى يفهم منهم الغيبى ويبصر الأعمى .

وعلى هذا الأساس فسّر القلقشندي قوله تعالى في
سورة الكهف (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا
تسعا) بقوله : انما خاطب الله عز وجل نبيه بكلام العرب
وما تعرفه من الحساب . فمعنى هذه التسع ان الثلاثمائة
كانت شمسية بحساب العجم الذين لا يعرفون السنة
القمرية . وزيادة التسع تصبح بها السنين شمسية .

منذ أدرك خلفاء بنى العباس منذ الخليفة المتوكل هذا
الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية اضطر بعضهم الى
تقل السنة التى هو فيها الى سنة أخرى . فنقل المعتضد بالله
سنة ثمان وسبعين ومائتين الى سنة تسع وسبعين ومائتين .
وأمر (المطيع لله) أن تنقل سنة ست وثلاثمائة الى سنة سبع
وثلاثمائة .

اما فى الديار المصرية فقد كان تقل السنين قد أغفل بها
حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة قمرية ، فنقلت سنة
تسع وتسعين الخراجية الى سنة احدى وخمسمائة . وما يرح
الملوك والوزراء يعنون بنقل السنين فى أوقاتها الى اليوم
(أى الى زمن المؤلف) . والقاعدة فى ذلك انه اذا مضى
ثلاث وثلاثون سنة حولت السنة الثالثة والثلاثون الى السنة

التالية لما بعدها أى الى الخامسة والثلاثين وألغيت السنة
الرابعة والثلاثين (١) .

هكذا استحدث نوع من المكاتبات فى ديوان الانشاء
القصد منه نقل السنين القمرية على نحو ما رأينا . وأصبح
لهذا النوع الأخير من المكاتبات مواصفات فنية أو
خصائص كتابية لا بد لكاتب الانشاء من الإلمام بها هى
الأخرى .

(١) صبح الاعشى - الجزء الثالث عشر ص ٦٠ .

التذاكر

ثم كان آخر ما عرضت له المقالة السادسة من الأمور التي يحتاج إلى معرفتها كاتب ديوان الانشاء موضوع التذاكر .

والتذاكر جمع تذكرة . وقد جرت العادة أن تتضمن التذكرة جميع الأقوال التي يسافر بها الرسول ليعود إليها أن أغفل شيئا منها أو نسيه . أو لتكون حجة له فيما يورده ويصدره .

وعنوان التذكرة يكتب هكذا بعد البسملة : « تذكرة منجحه صدرت على يد فلان عند وصوله الى فلان بن فلان . ثم يقال : قد استخرنا الله عز وجل وندبناك أو وجهناك الى فلان لا يصل ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا . ويقضى جميع الأغراض التي ألقيت اليه مجملته » . ثم يكتب « ان شاء الله تعالى » . ثم يكتب التاريخ . ثم الحمد لله والصلاة على نبيه ثم (حسبنا الله ونعم الوكيل) على نحو ما تقدم في المكاتبات السابقة كلها .

وقد أتى القلقشندي بنموذج طويل لتذكرة كتبها القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبي الى دار

الخلافة بمقداد . وكان الرسول الذي يحمل هذه التذكرة هو الأمير شمس الدين الخطيب :

« تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ، ولعوارض الشك دافعة . ضمنت أغراضا يقيد بها الكتاب الى أن يطلقها الخطاب . على ان السائر سيار البيان ، والرسول يمضي على رسل التبيان . والله سبحانه يسدده قائلا وفاعلا . ويحفظه بادئا وعائدا ومقيما وراحلا » الخ .

وطبيعي ان تكون هذه المكاتبات أو التذكرات على أنواع : فمنها ما يصدر عن السلطان : ومنها ما يصدر عن نائب السلطان ، ومنها ما يكتب للولاة . ومنها ما يكتب لنواب القلاع . وهكذا .



المقالة السابعة

الفصل الرابع عشر

في الإقطاع والقطاع

الاقطاعات جمع اقطاع والقطيعة الطائفة من أرض الخراج والجمع قطاع . واما أصلها في الشرع ان تيمنا الداري قال « استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها ففتحها عمر بن الخطاب فأتيته فقلت له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضا من كذا الى كذا . فجعل عمر ثلثها لابن السبييل ، وثلثها لعبارتها وترك ثلثها لنا » .

وقيل ان أبا ثعلبة الحبشي رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم . فقال رسول الله : ألا تسمعون ما يقول ؟ قال الرجل : والذي بعثك بالحق ليفتحن عليك . فكتب النبي له كتابا بذلك .

والمعروف ان أول من وضع (ديوان الجيش) في الاسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقيل في سبب ذلك ان أبا هريرة قدم عليه بمال من البحرين فقال له عمر : ما جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فاستكثره عمر

وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم — مائة ألف خمس مرات . فقال عمر : أطيب " هو ؟ قال : لا أدري ؟ خصعد عمر الى المنبر فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس — قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدا . فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الأعاجم يدنون ديوانا . فدوّن انت لنا ديوانا .

وقيل في سبب وضع الديوان أيضا أن عمر بعث بعثا وعنده « الهرمزان » فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال . فان تحظف منهم رجل وأخل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به ؟ فاثبت لهم ديوانا . فسأله عن الديوان فشرحه له . وتشاور عمر في الأمر مع أصحابه فقال خالد بن الوليد : قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا فاجعل مثلهم . فأخذ بقوله ودعا عقيل بن أبي طالب ومعه شباب من قریش وقال لهم : اكتبوا الناس على منازلهم . فبدأوا يبنی هاشم فكتبوهم ، ثم اتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها — أى رتبوها — على الخلافة . ثم رفعوه الى عمر ، فلما نظر فيه قال : لا — ما وددت انه هكذا ، ولكن ابدأوا بقدرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله ، فشكره العباس على ذلك وقال : وصلتك رحم ! أما المساواة والمفاضلة في العطاء فقد اختلف فيه . فكان

أبو بكر رضى الله عنه يرى التسوية ، وكان عمر يرى
التفضيل بالسابقة في الدين .

جاء مال من البحرين الى أبى بكر رضى الله عنه فساوى
فيه بين الناس فغضب الأنصار وقالوا له : فضلنا على غيرنا .
فقال : ان أردتم أن أفضلكم فقد صار مما عملتموه للدنيا .
ثم رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا معشر الأنصار لو شئتم أن تقولوا أنا آويناكم
وشاركناكم أقواتنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وان لكم من
الفضل ما لا يحصى له عدد وان طال الأمد ، فنحن وأنتم
كما قال العنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلت

بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمثنا

تلاقى الذى لاقوه منا مللت

هو أسكنونا في ظلال بيوتهم

ظلال بيوت أدفأت وأكنت

وأما عمر فقد رأى المفاضلة — كما قلنا — وناظر

أبا بكر في ذلك وقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين
وصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟
أم تسوى بين من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
من قاتل معه ؟ فلما وضع الديوان في خلافته جرى على
التفضيل بالسابقة في الاسلام . ففرض لكل رجل شهد بدرا

من المهاجرين خمسة آلاف درهم في كل سنة ، ولكل من
شهد بدرا من الأنصار أربعة آلاف ، ولكل رجل هاجر قبل
الفتح ثلاثة آلاف ، ولكل رجل هاجر بعد الفتح ألفين .
وفرض لبقية الناس على منازلهم وحفظهم للقرآن وجهادهم
بالشام والعراق . وفرض لأهل اليمن وقيس لكل رجل من
ألفي درهم الى ألف درهم الى خمسمائة درهم ، الى ثلثمائة
فقط . وقال : لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة
آلاف : ألفا لفرسه ، وألفا لسلاحه ، وألفا لسفره ،
وألفا يخلفها في أهله . وكان لا يفرض للمولود شيئا حتى
يتفطم . الى أن سمع ليلة ان امرأة تكره طفلها على الفطام
وهو يبكي . فسألها عنه . فقالت : ان عمر لا يفرض للمولود
حتى يفطم فأنا أكرهه على الفطام حتى يفرض له . فقال :
يا ويح عمر ، كم ركب من وزر وهو لا يدري . ثم أمر
مناديا ينادى : الا — لا تعجلوا أولادكم بالفطام . فانا
نقرض لكل مولود في الاسلام . قال المؤرخون : ثم روى
في التفضيل بعد انقراض أهل السوابق في الاسلام التقدم
في الشجاعة والبلاء في الجهاد .

واما تقدير العطاء فالكفاية فيه مبنية على أسس ثلاثة :
أولها — عدد من يعوله من الأولاد والمماليك . والثاني —
عدد ما يربط من الخيل والدواب . والثالث — الموقع الذي
يحل فيه من حيث الغلاء والرخص بحيث تقدر نفقته
وكسوته لعام كامل حسب الأسعار .

انواع الاقطاع وطرق كتابتها :

الاقطاع نوعان : اقطاع تمليك واقطاع استغلال
واقطاع التملك اما أن يكون مواتا (كأرض عاد وشمود في
الجاهلية) أو عامرا ثم خرب وأريد عمارته من جديد ولكل
حكمه في الفقه الاسلامي .

واما اقطاع الاستغلال فهو اما اخراج واما عشر .
والخراج اما جزية واما أجرة . وله أحكامه المعروفة في
الفقه . واما العشر فلا يجوز اقطاعه .

واما كتابة الاقطاع فالأصل فيها ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كتب على قطعة جلد من آدم كتابا اقطع فيه
الداريين أرضا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين
إذا أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وجبرون وبيت
إبراهيم بمن فيهم لهم أبدا » .

« شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس »

وشرحيل بن حسنة وكعب » .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله وخرج
به مطويا وهو يقول : « ان أولى الناس بإبراهيم للذين
اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » الآية .
وكانت الاقطاعات في الزمن الأول قليلة . انما كانت
تجبي الأموال الى بيت المال . ثم ينفق منها على الجند .

وربما أقطع الخلفاء القرية ونحوها ، وقرروا على صاحبها شيئا يقوم به ليت المال في كل سنة . ويسمون ذلك (المقاطعة) .

وأما طريقة الكتابة في ذلك فهي أن يكتب : هذا كتاب من فلان — بلقب الخليفة — أنك ذكرت من أمر ضيعتك كذا وكذا . وسألت أمير المؤمنين في كذا وكذا . وقد أجابك أمير المؤمنين الى سؤالك . ثم أتى القلقشندي بالنماذج الكثيرة على مثل هذه المكاتبات (١)

وفي أيام بنى أيوب كان يطلق على المكاتبات الخاصة بالاقطاعات اسم (تواقيع) . وكان التوقيع يبدأ عندهم بالتحميد وبالصلاة على الرسول : ثم يؤتى بلفظ (أما بعد) . ثم يوصف صاحب الاقطاع بما يقتضيه الحال من صفات المدح وينى على ذلك استحقاقه للاقطاع . ثم يذكر هذا الاقطاع ويختم التوقيع بتوصية (٢) .

وفي زمان المؤلف كانت تسمى كتب الاقطاعات (مناشير) . منها ما كتب قبل أن ينقل الاقطاع الى ديوان الانشاء . ومنها ما كتب بعد أن نقل الاقطاع الى هذا الديوان . وقد أتى المؤلف بكثير من النماذج على النوعين معا . وبهنا على أن الماليك زادوا في هذه المنشورات شيئا جديدا هو (الطغرى)

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٢٥ - ١٤٣ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٤٤ - ١٥٢ نجد نماذج من التوقيعات الأيوبية التي تكتب لهذا الغرض .

أو (الطغراء) . وهي أشبه ما تكون (بالبطاقة) التي تشتغل على ألقاب صاحبها في الوقت الحاضر وموضعها في المنشور بين الطرة والبسلة .

ويفتح المنشور المملوكي اما بحمد الله أو بلفظ (أما بعد) أو بلفظ (خرج الأمر الشريف) ^(١) مثال ذلك :
« هذه نسخة منشور بقلم المؤلف :

اما بعد حمد الله منور الأهلّة في آفاقها . ومكمل عطاياه باطلاقها ... والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جمع القلوب بعد افتراقها وشفع في الخليقة الى خلاقتها ، وعلى آله وصحبه البحور في اندفاقها ، والبدور في اثلاقها ، فان أبناء الأولياء أشبال الأسود ، وعليهم عاطفتنا تجود ، وقد أنشأت نعمنا آباءهم فأصبحوا للدولة أنصارا ، وألحقناهم بهم في التقديم فأقروا أبصارا . وكان ممن ترعرع ناشئا ، وغدا فرعا زاكيا ، وتدرّب على الصهوات يمتطيها ، وتأهل لحلول النعم يرضى مفضيها ، ودلت حركاته على ان الشجاعة سجية طباعة وأنه تروى بلبان الطاعة من وقت رضاعه ، وان أباه أجتله الله أحسن مرباه ، وهو فلان المنتخب في الدولة الناضرة المشبه به في الاضاءة النجوم السافرة .
فلذلك خرج الأمر الشريف ... الخ . »

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٧ - ١٩٩ وبها نماذج عدة من المناشير المملوكية الخاصة بالاقطاعات .

المقالة الثامنة

الفصل الخامس عشر في الأيمان

تبني اليمين على الحلف بما يعظمه الخائف . وقد حلف
الله تعالى بذاته وصفاته وبيعض مخلوقاته ومصنوعاته
كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والليل والنهار
وكما حلف تعالى بالملائكة الكرام وبعض الحيوان كالخيل .
كما أقسم بالدهر فقال : « والعصر ان الانسان لفي خسر »
اما البشر فانهم يخلقون كذلك بالأشياء التي يعظمونها .
وقد كانت العرب تدعو على نفسها بالمكروه ان هي خشت
في اليمين ، وانظر الى قول الأشر النخعي :

بقيت وفري وانعرفت عن العلى

ولقيت أضيافى بوجه عبوس

ان لم أشن على ابن حرب غارة

لم تخل يوما من نهاب نفوس

أقسم الشاعر أن يشن شعواء على ابن حرب ، ودعا على

نفسه — ان هو لم يبر بهذا القسم — أن يصبح في قومه

رجلا موصوفا بالخل منحرفا عن طريق المجد مقصرا كل

التقصير في اكرام الضيف .

أما صيغة الحلف فمنها الصريحة ومنها الكناية .
فالصريح من الأقسام الشرعية يكون مع الاتيان بلفظ الحلف
— كقوله (احلف بالله لأفعلن كذا) . والكناية تكون بلفظ
(لعمرؤ الله) أو (وايم الله) أو (اشهد الله) . فإذا أتى الرجل
بصيغة من هذه الصيغ ونوى اليمين انعقدت .

والحلف في الاسلام يكون بالله أو بصفة من صفات الله
كالرحيم والحليم والكريم والموجود الحي . ومثل : وعظمة
الله وجلال الله ونحو ذلك . وقد كان من أكثر حلف النبي
صلى الله عليه وسلم بقوله «والذى نفسى بيده» — وكان أكثر
حلف الصحابة : ورب محمد ورب ابراهيم .

واليمين الشرعية التى يطلب الحكام الى المسلم أن يحلف
بها أمامهم هى : احلف بالله الذى لا اله الا هو عالم الغيب
والشهادة الذى أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم .
وأما اليهودى فيحلف أمام الحاكم (بالله الذى أنزل
التوراة على موسى ونجاه من الغرق) . وأما النصرانى فيحلف
(بالله الذى أنزل الانجيل على عيسى بن مريم) .

اليمين الغموس : ١

وهى أن يحلف الحالف على أمر ماض انه كان ولم
يكن . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في الاثم .
وأما (لغو اليمين) فهو ما وقع من غير قصد ماضيا كان
أم مستقبلا . كقوله : (لا والله) . و (بلى والله) . وقيل
هو الحلف على الماضى من غير قصد الكذب في يمينه .

واليمين الغموس من الكبائر . قال تعالى : لا يؤاخذكم الله
باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) .
وقال تعالى (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم
الله عليكم كفيلا) . وفي الحديث الشريف : من حلف على
يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله
عز وجل وهو عليه غضبان .

تحرير الايمان :

قيل أنها أول من رتب الايمان التي تحلف بها على مبايعة
الخليفة هو الحجاج بن يوسف حين أخذ التبعة لعبد الملك
ابن مروان على أهل العراق . ثم زيد فيها بعد ذلك وتنقحت
في الخلافة العباسية . وهذه نسخة يمين أوردتها أبو الحسين
الصابي :

« نبايع عبد الله أمير المؤمنين فلانا بيعة طوع واختيار ،
وتبرع وايثار ، واعلان وأسرار ، واظهار واضمار ... وثبات
من غير تبديل ، ووفاء من غير تأويل ، واعتراف بما فيها من
اجتماع الشمل واتصال الجبل وانتظام الأمور وصلاح
الجمهور ، وحقق الدماء وسكون الدهماء ... على ان
عبد الله فلانا أمير المؤمنين عبد الله الذي اصطفاه ، وأمينه
الذي ارتضاه ، وخليفته الذي جعل طاعته جارية بالحق
وموجبة على الخلق ... وعلى أنك ولي أوليائه وعدو أعدائه
... بيعة لا تنقض ولا تنكث ولا تخلف ولا توارى ولا
تخادع ... علانيتك مثل نيتك . وقولك مثل طويتك . وعلى

ألا فرجع عن شيء من حقوق هذه البيعة وشرائطها على ممر
 الأيام وتطاولها ، وتغير الأحوال وتنقلها ، واختلاف
 الأحوال وتقلبها ، وعلى انك في كل ذلك من
 أهل الملة الإسلامية ودعاتها ، وأعوان المملكة
 العباسية ورعاتها ، لا يتداخل قولك موارد ولا مداينة ،
 ولا تحبس به أمانة ، ولا تقله خيانة حتى تلقى الله تعالى
 مقيما على أمرك وفيا بعهدك ، والا فكل ما حلله الله لك
 محرم عليك ، وكل ما تملكه من مال موجود ومدخور ،
 ومصنوع ومضروب ، وأرض وضیعة ، وعقار وعقدة ،
 ومملوك ، وأمه صدقة على المملوكين محرمة على مر السنين .
 وكل امرأة لك تملك شعرها وبشرها ، وأخرى تتزوجها من
 بعدها طالق ثلاثا بتاتا طلاق الحرج والسنة لا رجعة فيها
 ولا مشنوية ، وعليك الحج الى بيت الله الحرام ثلاثين دفعة
 حاسرا حافيا وراجلا ماشيا ، نذرا لازما ، ووعدا صادقا
 لا يبرئك منها الا القضاء لها والوفاء بها ، ولا قبل منك توبة
 ولا رجعة ، ولا أقال لك عشرة ولا صرعة الخ .

وهناك الايمان المتعلقة بالملوك والأمراء والايسان
 الخاصة بكل فرقة من الفرق الدينية المعروفة والايان المتعلقة
 بكل فرقة من الفرق كالخوارج والشيعة والامامية والزيدية
 والاسماعيلية والدروز وغيرهم من الطوائف الدينية فيما
 خلا أهل السنة . ثم ايمان اليهود والنصارى والفرق الدينية

التي عند هؤلاء وأولئك وإيمان المجوس ، وإيمان الفلاسفة
والحكماء . فذكرها القلقشندي واحدة واحدة ، وضرب
عليها الأمثال وأتى لها بالنماذج .

فأما (الخوارج) فأيمانهم إيمان أهل السنة ولكن يزاد
فيها « والا أجرت التحكيم وصوبت قول الفريقين في صفين
وأطعت بالرضى منى حكم أهل الجور ، وقلت في كتاب الله
بالتأويل . وادخلت في القرآن ما ليس منه ، وقلت أن إمامة
بني أمية عدل وإن قضاءهم حق : وإن عمرو بن العاص
أصاب ، وإن أبا موسى الأشعري ما أخطأ الخ .

وأما (الشيعة) فالزيدية منهم يحلفون كأهل السنة
بزيادة قولهم : والا برئت من معتقد زيد بن علي ، ورأيت
أن قولي في الآذان « حي على خير العمل » بدعة ، وخلعت
طاعة الإمام المعصوم الواجب الطاعة ، وادعيت أن المهدي
المنتظر ليس من ولد الحسين بن علي ، وقلت بتفضيل
الشيخين على أمير المؤمنين علي ، وطعنت في رأي ابنه الحسن
لما اقتضته المصلحة » .

أما الإيمان التي يحلف بها (اليهود) فهي : « اتنى والله
والله والله العظيم القديم الأزلي الفرد الصمد الواحد الأحد
المدرک المهلك باعث موسى بالحق وشاد أزره بأخيه هارون .
وحق التوراة المكرمة وما فيها وما تضمنته وحق العشر

الكلمات^(١) التي أنزلت على موسى في الصحف وما حوته
 قبة الزمان^(٢) والا تعبدت فرعون وهامان ، وبرئت من بني
 اسرائيل ودنت بدين النصرانية. وصدقتمريم في دعواها. وبرأت
 هدم بيت المقدس وقتل بني اسرائيل ... وكنت ممن شرب
 من النهر^(٣) ومال الى جالوت وفارقت شيعة طالوت الخ.
 وواضح من هذه الايمان انها تشتمل على جمل واشارات
 الى حوادث دينية كبيرة لها أهميتها في نظر كل دين أو
 مذهب على حدة . ولها ايحاء قوى في أذهان هؤلاء
 وأولئك .

واما (النصرارى) فيمينهم : والله والله والله العظيم وحق
 المسيح عيسى بن مريم وأمه السيدة مريم وما اعتقده من
 حزين النصرانية والملة المسيحية . والا ابرا من المعمودية .
 وأقول ان الماء نجس ، وان القرايين رجس ، وبرئت من
 ماري حنا الممعدان والأناجيل ، وقلت ان متى كذوب وان
 مريم المجدلانية باطلة الدعوى في اخبارها عن السيد يسوع

(١) وهى الوصايا العشر فى الألواح التى نزلت على موسى
 عليه السلام . وهى تشتمل على بعض أوامر ونواه ومواظ لقلوبه
 تعالى . وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل
 شئ .

(٢) وهى قبة كان ينزل على موسى فيها الوحي .

(٣) من أعظم الكبائر عندهم الشرب من النهر الذى ابتلى به
 قوم طالوت ملك بني اسرائيل والميل الى جالوت ملك الكنعانيين.
 وهو الذى قتله داود .

المسيح ، وقلت في السيدة مريم قول اليهود ، ودنت بدينهم في الجحود ، وأنكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت الخ .
واما (المجوس) فيمينهم : اننى والله الرب العظيم .
القديم ، النور ، الأول ، رب الأرباب ، والاله الآلهة ، ماحى آية الظلم ، والموجد من العدم ، مقدر الأفلاك ومسيرها ، ومنور الشهب ومصورها ، خالق الشمس والقمر ، ومنبت النجوم والشجر ، والنار والنور والظل والحرور . وحق (كيومرت)^(١) وما أولد من كرائم النسل ، وزرادشت وما جاء به من القول الفصل ... والا أنكرت ان زرادشت لم يأت بالدائرة الصحيحة بغير اله^(٢) . وان مملكة افريد كانت ضلالة . وأكون قد شاركت (بيوراسب) فيما سفك طعاما لحيتيه . وقلت ان (كايان) لم يسلط عليه^(٣) . وكذبت

(١) كيومرت عند المجوس هو آدم أول الخليقة .

(٢) قالوا ان من معجزات زرادشت انه أتى بدائرة صحيحة بغير آله . وهو مهتنع عند أهل الهندسة . قال زرادشت بوحدانية الله انه خالق النور والظلمة . وأتى بكتاب اسمه (الافستا) أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر . وعمل له شرحا سماه « الزند » .

(٣) المجوس يسخطون على بيوراسب هذا لظلمه وجورده وسفكه الدماء وفرضه الضرائب والمكوس وذلك فضلا عن لهوه ومجونه . وكان على كتفه سلعتان مستورتان تحت ثيابه يزعم أنهما حيتان . ويزعم أن ما يأخذه من الرعية يطعمه لهما ليكيف أذاهما عن الناس . وأنهما لا يشبعان الا بأدمغة بنى آدم . وقيل ان الذى خلص الرعية منه رجل من العوام اسمه كايان .

ماني وصدقت مزدك واستبحت فضول الفروج والأموال .
 وقلت بانكار الترتيب في طبقات العالم وانه لا مرجع في
 الأبوة الا الى آدم . وفضلت العرب على العجم ، وجعلت
 الفرس كسائر الأمم ، وأطفأت النار ، وأنكرت فعل الفلك
 الدوار ، ومالأت فاعل الليل على فاعل النهار « الخ .
 واما (الفلاسفة أو الحكماء) فيقولون في ايمانهم
 « اننى والله والله والله العظيم الذى لا اله الا هو الواحد
 الأحد الفرد الصمد . الأبدى السرمدى الأزلى . الذى لم يزل
 علة العلل ، ورب الأرباب ، ومدبر الكل . القديم الأول
 بلا بداية والآخر بلا نهاية . المنزه عن أن يكون حادثا أو
 غرضا للحوادث الحى الذى اتصف بصفات البقاء والمتردى
 برداء الكبرياء ، مدبر الأفلاك ومسير الشهب ، مفيض
 القوى على الكواكب ، وباث الأرواح فى الصور ، مكون
 الكائنات ، ومنمى الحيوان والمعدن والنبات .
 والا فلا رقيت روحى الى مكانها . ولا اتصلت نفسى
 بعالمها .

المقالة التاسعة

الفصل السادس عشر

كُتُبُ الْأَمَانِ

الاسلام دين الانسانية ودين القوة . هاتان صفتان لازمتان للاسلام . وتظهر أولاهما من قول الله تعالى في كتابه العزيز : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » . ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمن أعداءه . ومن ذلك كتبه صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد الخزاعي حين قدم عليه في هدنة الحديدية وأسلم زيد وحسن اسلامه . فبعث به الى قومه بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله الى رفاعة بن زيد : اني بعثته الى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم الى الله تعالى والى رسوله . فمن أقبل منهم فقى حزب الله ورسوله . ومن أدبر فله أمان شهرين .

شروط الأمان :

للأمان أركان وشروط وأحكام . فاما أركانه فثلاثة وهي : من صدر عنه العقد ، ومن صدر له العقد ، وصيغة

العقد . واما شروطه فألا يكون على المسلمين ضرر في المستأمن بأن يكون طليعة أو جاسوسا فانه يقتل ولا يلتفت الى أمانه .

ومدة الأمان لا تزيد عن سنة بخلاف الهدنة فتجوز عند ضعف المسلمين أن تمتد الى عشر سنين . واما حكم الأمان في الشرع فانه لو قتل مسلم صاحب الأمان وجبت عليه الدية . وذهب الفقهاء الى أن الكافر يجوز له نبذ الأمان . ولكن المسلم لا يجوز له ذلك الا في حالة واحدة فقط هو أن يتوقع من المستأمن شرا . فاذا توقع منه ذلك جاز له أن يلحق به في مأمنه .

ثم ان الأمان نفسه نوعان :

أمان عام — وهو الذي يعقد للعدو الذي يصعب حصره كأهل بلد أو أهل ناحية أو اقليم .

وأمان خاص — هو الذي يعقد للواحد أو العدو المحصور .

الأول لا يكتبه الا السلطان أو نائب السلطان .

والثاني يصح لكل مسلم أن يكتبه وان لم تكن له أهلية للقتال باستثناء المجنون والصبي .

تحرير الأمان :

للكتاب في تحرير الأمان مذهبان : فاما أن يفتح بلفظ

(هذا كتاب أمان) أو (هذا أمان) . واما أن يفتح

بالتحميد ثم يقال : (ولما كان كذا وكذا وكذا اقتضى حسن

الرأى الشريف كذا وكذا) . ثم يقال (فلذلك رسم بالأمر

الشریف أن یكونوا كذا وكذا على نحو ما یكتب فی الولايات ه
وعلى المذهب الأول كتب عمرو بن العاص كتاب الأمان
لأهل مصر عند فتحها . وكان مما جاء فيه بعد البسلة :
« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على
أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم
وبجرهم . لا یخل علیهم شیء من ذلك ولا ینقص ، ولا
تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن یعطوا الجزية اذا
اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زیادة نهرهم خمسين ألف
الف ، فان أبی أحد منهم أن یجیب رفع عنهم من الجزی
بقدرهم ، وذمتنا من أبی بریئة . وان نقص نهرهم عن
غایته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فی صلحهم
من الروم والنوبة : فله ما لهم وعليه ما علیهم ، ومن أبی
واختار الذهاب فهو آمن حتی یبلغ مأمنه أو یخرج من
سلطاننا على ما فی هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله
وذمة الخلیفة امیر المؤمنین وذم المؤمنین . شهد الزبیر
وعبد الله ومحمد ابناه . وكتب (وردان) وحضر .

ویفرق القلقشنندی بین الأمان الذی یكتب لأهل
الاسلام والأمان الذی یكتب لأهل الکفر فیقول عن الأول
وهو یلزمه بما لا یختاره :

الأمان لأهل الاسلام :

ومعروف أن الأمان ضربان : ضرب یصدر عن الخلفاء ،
وضرب یصدر عن الملوك . وكتب الأدب العربی حاقلة بأمثلة

لا حصر لها من الضريين معا ، وهى ميدان فسيح لأقلام
البلغاء يتسابقون فيه ويتنافسون فى بلوغ غايته .
ومن طرق الأمان عند العرب طريقة الدفن :

ومعناها دفن ذنوب من يكتب له هذا النوع من الأمان .
والأصل فى ذلك ان العرب اذا جنى أحد منهم جناية وأراد
المجنى عليه العفو عما وقع من الجانى جمع ذلك أكابر
القبيلة بحضور رجال يثق بهم الجانى . وقام منهم رجل وقال
للمجنى عليه : نريد منك الدفن لفلان — وهو مقر بما
أهأجك عليه — ويعدد ذنوبه التى أخذت عليه ولا يبقى منها
شيئا . ويقر المجنى عليه بأنه لم يدع من ذنوب الجانى شيئا
ثم يحفر بيده حفرة فى الأرض ويقول : قد ألقيت فى هذه
الحفرة ذنوب فلان التى تهمتها عليه . ودفنتها له دفنى
لهذه الحفرة . ثم يرد تراب الحفرة اليها حتى يدفنها بيده .
قالوا : وهو كثير متداول بين العرب ، ولا تطمئن خاطر
المذنب منهم الا به ، الا أن العرب لم تجر عاداتهم بكتابة
ذلك ، بل يكتفى بهذا الفعل بحضور كبار الفريقين . ثم اذا
كانت دماء أو قتلى عفيت وعفا بها الثأر والمطالب به .
وفى عهد الاسلام أخذ بهذه الطريقة وأثرت عن الملوك
طائفة من كتب الأمان على هذه الصورة ومنها على سبيل
المثال :

« هذا دفن لذنوب فلان ، من الآن لا تذكر ولا يطالب
بها ، ولا يؤخذ بسببها ، اقتضته المراحل الشريفة السلطانية

الملكية الفلانية — ضاعف الله تعالى حسناتها واحسانها .
وهي ما بدر من الذنوب لفلان ومن الجرائم التي ارتكبها
والعظائم التي احتقبتها ، وجعل العفو الشريف عن زللها .
وهي كذا (وتذكر) ، دفنا لم نبق معه مؤاخذه بسبب من
الأسباب ، ومات به الحقد وهيل عليه التراب ... تصدق
بها سيدنا ومولانا السلطان الأعظم (ويذكر اسمه ولقبه)
تقبل الله صدقته ... وخلاها نسيا منسيا لا تذكر في خفارة
ذمه ، وجعله بها مقيما في أمن الله تعالى . الى أن يبعث الله
تعالى خلقه ، ويتقاضى كما يشاء حقه ... لا يعيش هذا
الدفين ، ولا يوقف له على أثر في اليوم ولا بعد حين ...
ورسم بالأمر الشريف العالي المولوى السلطانى الملكى
الفلانى . أعلاه الله تعالى وشرفه ، وغفر به لكل مذنّب
ما أسلفه » . ثم يختم بقوله :

« وسبيل كل واقف على هذا الكتاب — وهو الحجة
على من وقف عليه أو بلغه خبره أو سمعه أو وضع له أثره
— أن يتناسى هذه الوقائع ويتخذها فيما تضمنته الأرض
من الودائع » .

الفصل السابع عشر

عقود أهل الذمة

أفرد القلقشندي فصلا للعقود التي تكتب لأهل الذمة وقال انها تأتي بعد عقود الأمان من حيث الرتبة . ثم قال : والأصل فيها قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »

وفي السنة ان النبي صلى الله عليه وسلم حين وجه معاذ ابن جبل الى بلاد اليمن قال له :

« انك سترد على قوم معظمهم أهل كتاب . فاعرض عليهم الاسلام فان امتنعوا فاعرض عليهم الجزية ، وخذ من كل حالمة دينارا ، فان امتنعوا فاقتلهم » .
ويحتاج الكاتب في كتابة هذه العقود الى معرفة أمور منها :

الأول — انه لا يجوز أن تصدر هذه العقود الا من الامام

أو نائبه . لأن ذلك من الأمور الكلية التي تحتاج الى نظر واجتهاد .

الثاني — ويحتاج الى معرفة الشروط التي يجب توفرها شرعا ، وذلك فيمن يكتب له هذا من أهل الذمة . ومن هذه الشروط الذكورة والحرية والأهلية . ويدخل مع أهل الذمة في ذلك المجوس لقوله صلى الله عليه وسلم « سنوا لهم سنة أهل الكتاب » ، والسامرة اذا وافقت أصولهم بأصول اليهود ، والا فلا ، والصائبة اذا وافقت أصولهم أصول النصارى . والا فلا . ولا يعقد هذا العقد لزندق ولا عابد وثن ولا عابد الملائكة والكواكب .

الثالث — معرفة صيغة العقد والأصول المتبعة في ذلك .

الرابع — المدة التي يعقد عليها . والمعتبر فيها أن تكون مطلقة ولا تهيد بانتهاء . ولا يجوز اضافة ذلك الى الامام . لأن المقصود من عقدها هو الدوام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب في مثل هذه الأحوال : « أقركم ما أقركم الله » — أي على الدوام .

الخامس — معرفة المكان الذي يستقرون فيه باستثناء الحجاز فلا حق لهم في أن يستقروا في شيء من

بلادهم . لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام
بعد عامهم هذا) .

السادس — معرفة ما يلزم أن يفعله الامام لهم بعد عقد
الذمة . اذ ينبغي للامام أن يكتب أسماءهم
ودينهم ، ويجعل على كل جمع منهم عريفا للمعرفة
من أسلم منهم ، ومن مات ، ومن بلغ من
صبيانهم ، ومن قدم عليهم أو سافر منهم ،
ويحصرهم لاداء الجزية ، أو يقدمهم للشكوى
من تعدى عليهم من المسلمين . وهذا العريف
هو المسمى في الديار المصرية في زمان المؤلف
(بالحاشر) .

السابع — معرفة ما يطلب منهم كالجزية ومقدارها
في الشرع ، والضيافة ومعناها ضيافة من يمر بهم
من المسلمين علاوة على الجزية . ومنها عدم
ركوب الخيل . ولهم أن يركبوا الحمير والبغال
وذلك لأن الخيل من أدوات القتال . ومنها أن
يتميز أهل الذمة بلباس خاص . فيلبس اليهودي
الملابس الصفواء ، والنصراني الملابس الزرقاء ،
والمجوسي الملابس السوداء أو الحمراء . ويشد
الرجال منهم الزنابير على أوساطهم . ولهم أن
يلبسوا الحرير والعمامة والطيلسان ونحو ذلك .

ثم منها ألا يرتفعوا بمبانيهم على مباني المسلمين
ونحو ذلك .

فاذا خالف الذميون هذه الشروط كان من حق الامام
أن يردهم اليها ويأخذهم بها .

نعم — كانت هذه الشروط مما تكتب في العقود التي
تعقد بين المسلمين وأهل الذمة . ولكن من الحق أن يقال انه
كان من أئمة المسلمين في بعض الأحيان أن اشتطوا في معاملة
أهل الذمة ، وتجاوزوا حدود العقل والمنطق في هذه
المعاملة . ومنهم أى من أولئك الأئمة من كانوا في الوقت
نفسه أدنى الى روح الاسلام — وهو دين التسامح والحرية
واحترام الحقوق الانسانية والنظر الى الانسان على انه
انسان . وهؤلاء الأئمة هم الأكثرون عددا والأقلون ضررا
والفاهيون للدين الاسلامي على الوجه الصحيح .

الفصل الثامن عشر

كتب الهدنة

المهادنة في اللغة المصالحة أو المودعة أو المسالمة
أو المقاضاة أو المواصفة . لأن الكاتب يصف شروط الصلح التي
اتفق عليها الطرفان وتقع بين ملكين متساويين أو متفاوتين في
السلطان أو العقيدة أو الرتبة . يقول الفقهاء : والأصل في
مهادة أهل الكفر قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح
لها » . وربما كان أول كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه
وسلم من هذا النوع هو الكتاب الذي كتبه لسهيل بن عمرو
مندوب قريش ورسولها اليه وهو (بالحديفة) بعد أن صدته
قريش عن البيت . وفي الكتاب :

« هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو
على وضع الحرب عن الناس عشر سنين . وانه من أحب أن
يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل
في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » وأشهد في الكتاب على
الصلح رجالا كثيرين من المسلمين والمشركون .

أهم تلزم معرفتها في كتابة الهدنة :

لهذا الفن من المكاتبات شأن كبير في الدولة . ومن ثم
وجب على كاتب الانشاء أن يراعى في كتابته أموراً منها :
أولاً — لا يصح عقد الهدنة بين المسلمين وغيرهم الا
بشروط منها أن يصدر العقد عن الامام أو نائبه
إذا كان العقد على إقليم من الأقاليم أو كان
موضوعه مهادة ملك من ملوك الكفار (على حد
تعبير المؤلف) .

ثانياً — لا يصح عقد الهدنة الا إذا كانت لمصلحة المسلمين
حين يكون في المسلمين شيء من الضعف المؤقت
أو تكون بهم حاجة الى المال اللازم للقتال أو حين
يبدو من المسلمين أنهم يتوقعون اسلام الكافرين
بسبب اختلاطهم بهم ونحو ذلك .

ثالثاً — ألا يكون في العقد شرط يأباه الاسلام . كما لو
شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرد أسير
مسلم أفلت منهم ونحو ذلك . وقد جرت العادة أن
يكتب في العقد : « على أن من جاءكم من المسلمين
رددتموه ، ومن جاءنا مسلماً رددناه » فإن كان في
المسلمين ضعف وخيف عليهم جاز لهم أن يلتزموا
بدفع شيء من المال دفعا للشر .

رابعاً — ألا تزيد الهدنة على أربعة أشهر في حالة قوة
المسلمين وأمنهم . ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال .

أما إذا كان في المسلمين ضعف وكان هناك خوف
فانه يجوز المهادنة الى عشر سنين . ولا تجوز الزيادة
على ذلك .

تحرير كتب الهدنة :

وثم أصول تجب مراعاتها كذلك في تحرير هذه الكتب
ومنها :

أولا — براعة الاستهلال بتحسين الصلح وتعظيم الملكين
اللذين تحدث بينهما الهدنة . وذكر السبب الذي
أوجب هذه الهدنة . فان كان الصلح بين المسلمين
والكافرين احتج الكاتب في قبول الصلح بآيات من
القرآن الكريم أو شيء مما ورد في السنة . وان
كان الصلح بين المسلمين بعضهم وبعض احتج
الكاتب بقوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين
أقتلوا فأصلحوا بينهما) . أو بالحديث الشريف
« اذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه
فالقاتل والمقتول في النار » .

ثانيا — تبجيل المتهادنين ووصف كل منهما بما يليق به من
التعظيم أو التوسط حسبما في الكتاب نفسه من لين
أو شدة .

ثالثا — أن يتجنب الكاتب كل ما من شأنه التأويل بذكر
لفظ مشترك أو معنى ملتبس أو عبارة تفتح الطريق
الى التأويل .

رابعا — أن يوضح الكاتب مدة الهدنة فانه ان أهمل في ذلك فسد عقد المهادنة . وقد جرت العادة أن تحسب بالسنة الشمسية اذا كانت الهدنة بين المسلمين والكفار ، وبالسنة القمرية اذا كانت بين المسلمين بعضهم وبعض ، وعليه أن يوضح في الكتاب ان الهدنة وقعت بين الملكين أو بين النائين لهما أو بين ملك ونائب الملك الآخر وهكذا .

خامسا — أن يضمن العقد نوعا من التحليف على الوفاء بالشروط وعدم الاخلال بها أو محاولة التأويل في شيء منها ، ثم يكتب تاريخ صدور الهدنة بالتاريخ العربي وبتاريخ المملكة التي تقع منها المهادنة . وأن يتضمن الكتاب شهادة الشهود من الطرفين على نحو ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية .

هذا — وللهدنة أو للكتاب الذي يكتب بشأنها (طرئة) تبدأ بلفظ (هذا عقد صلح) ، أو (هذا كتاب هدنة) ، أو (هذه موادة) ، أو (هذه مواصفة) ، ثم تلى ذلك أوصاف لهذه الهدنة بأنها ناجحة ومؤدية الى الخير العام ونحو ذلك .

واما متن الهدنة فيبدأ بلفظ (وهذا ما هادن عليه) أو (هذه هدنة أو موادة أو مواصفة أو صلح) . وقد يفتح المتن بلفظ (أما بعد . فهذا كتاب مهادة) ، أو (مواصفة) .

وهذا كله بين الملك المسلم وأخيه الملك المسلم ، فإذا كانت
المكاتبة بين ملك مسلم وآخر غير مسلم ، فإن المكاتبة تفتح
بلفظ (هذه هدية) أو بلفظ (استقرت الهدنة بين فلان
وفلان) . وقد تفتح المهادنة بخطبة تبدأ بحمد الله على
ما يكون في المكاتبات الخاصة بالولايات .

فسخ العقد :

جرت العادة انه اذا كان الفسخ من جانب واحد أن
يذكر الكاتب موجب الفسخ أو موجب نقض العهد وأن
يقيم الحجة في ذلك على المفسوخ عليه من كل وجه . وتكون
صورته على هذا النحو : تكتب البسملة ثم يكتب :

هذا ما استخار الله تعالى فلان استخارة بيّن له فيها
غدر الغادر ، وأظهر له بها سر الباطن من حقه الظاهر ،
فسخ فيها (فلان) ما كان بينه وبينه من المهادنة التي كان
الوقت الفلاني آخر مدتها . وطهر السيوف الذكور فيها
من الدماء الى انقضاء عدتها ، وذلك حين بدا منه من
موجبات النقض ، وحلّ المعاقدة التي كان يشد بعضها
ببعض (وهي كذا وكذا وتذكر وتعد) . ويوجب كل ذلك
اخفاء الذمة ونقض العهود المرعية الحرمه ، وهدم قواعد
الهدنة . كتب انذارا ، وقدم حذارا ... وكتب هذا الفسخ
عن فلان الفلاني ، وقد نبذ اليه عهده وأنجزه وعده ، وأنفذ
اليه سهمه ، بعد أن صبر مليا على ممالأته ، وأقام مدة
يداوى مرض وفائه ولا ينجح في مداراته ، ولينصرن الله من

بصره ، ويخدر من يأمن مكره من يحذره . وأمر فلان بأن
يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد لينقل مضمونه الى
البلاد ، أنه من أمر لا ينادى به الاعلان ، وينصب لهذا
الغادر لواء — يقال اذا يقال : هذا اللواء لغدرة فلان بن
فلان !! »

المقالة العاشرة

الفصل التاسع عشر

كتب غير ديوانية

فرغ المؤلف من فنون المكاتبات الديوانية على كثرتها وتنوعها ثم لم يشأ أن تخلو موسوعته من الاشارة الى الكتب التى تصدر عن كتاب الديوان فى غير الشؤون الرسمية البحتة فأخذ يخوض بنا فى المقامات ، ورسائل الغزو ، ورسائل الصيد ، ورسائل المفاخرات ، والرسائل التى على شكل أسئلة وأجوبة ، والرسائل التى تصف الأحداث الجارية — وقد أطلق على هذه الأخيرة اسما معروفا فى الصحافة فى أيامنا هذه ، وهو اسم « ماجريات » وألم القلقشندى كذلك بالرسائل التى تصدر عن العلماء الفضلاء كإجازات الافتاء والتدريس والرواية . وكالتقريظات التى تكتب للمؤلفات الحديثة . ثم الكتب التى تصدر كذلك عن أكابر القضاة فى التقاليد الحكيمة وفى سجلات العدالة ، وفى الكتب الى النواب ، وفى الكتب التى تكتب بمناسبة الحج . وأخيرا ختم المؤلف كلامه عن فن الترسل بكتب الهزل والتندر والهجاء والسخرية ، ووصف هذه الكتب وتقديم نماذج منها .

اما المقامة :

فاسم في الأصل للمجلس أو الجماعة وسميت به
الأحدوثة التي تكون في هذا المجلس أو الجماعة . وأول
من اشتهر بالمقامة في الأدب العربي (بديع الزمان الهمداني) .
ثم تلاه (الحريري) وقيل عن هذا الأخير انه لما اشتهر أمره
في الكتابة انتدب لديوان الخلافة ببغداد وكلف بتحرير
شئ من رسائله فلم يستطع واعتذر له النقاد عن ذلك بأن
فن المقامات شئ وفن الرسائل الديوانية شئ آخر .
لا شك أن هذا الحكم صحيح ، وان كان من الناس من
يستطيعون أن يجمعوا بين فنين من فنون القول أو أكثر .
قليل ما هم .

وانتهز القلقشندي كعادته فرصة الحديث عن المقامات
وقدم للقارئ بعض النماذج من انشائه في هذا الفن أيضا .
ثم اتبع ذلك بنماذج أخرى من المقامات أنشأها كتاب آخرون
منهم الخوارزمي .

الرسائل :

يميز القلقشندي بين المكاتبات الديوانية والمكاتبات غير
الديوانية من حيث التسمية . فيطلق على الأخيرة اسم
(الرسائل) . وقال عن هذه الأخيرة (ان المراد بها أمور
يرتبها الكاتب عن حكاية حال عدو أو حكاية صيد ، أو مدح ،
وتقريظ ، أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجري هذا
المجرى) .

فرسائل الغزو — وهى أعظمها شأنًا وأجلها منزلة —
يكتبها الملوك لوزرائهم أو أصدقائهم يصفون فيها بعض
المواقف الحربية ، والمواقف البطولية . ويتبارى الكتاب فى
تحرير هذه الرسائل كما يتبارون فى الرسائل الديوانية
سواء فسواء ، ويحاول كل منهم أن يبلغ فى ميدان البلاغة
مبلغا يشق على سواه . ويبنى رسالته على السجع والبديع
ويزينها بالأبيات الشعرية الكثيرة كلما أمكن ذلك سواء كانت
هذه الابيات من نظم الكاتب أم كانت من نظم غيره .

وقد كان من عادة أهل الأدب أنهم يكتبون الى الأفاضل
من العلماء والأدباء يسألونهم فى مسائل — اما على سبيل
الاستفهام واما على سبيل الامتحان . وكثرة يجاب عن هذه
الأسئلة ، وأخرى لا يجاب عنها بحسب ما تقتضيه الحال .
كما كان من عاداتهم كذلك أن يتعرضوا لوصف الحوادث
الجسام ويكتبوا بهذه الأوصاف الى أصدقائهم وأصفيائهم
ويفرغوا فى هذه الرسائل كل ما يملكونه من جهد فنى
وعقلى فى وقت معا .
رسائل البنق :

وكلنوا يسمون الرسالة الواحدة منها (قدمة) بكسر
التفاح وسكون الدال . وتصف الرمى بالبنق وتصف
كذلك أحوال الرماة واصطلاحاتهم فى ذلك ، وأسماء المظير .
وهكذا يسير الكاتب فى وصف الصيد ووصف حركة
الطير ووصف المطاردة التى تكون بين اللاعبين ، ووصف

النجاح الذى يحرزونه من حين الى حين ، ووصف الطيور
التي تقع في شباكهم وهى أنواع شتى ، ووصف الطبيعة
التي تحيط بهم في هذا اليوم ، ووصف اللهو الذى يصاحبهم
في تلك الأوقات السعيدة ، وهكذا مما يطول شرحه
ولا يمكن الامام به .

كتب الصدقات :

الصدقات بضم الدال . وقد جرت العادة انه اذا تزوج
السلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر في
دولته أن يكتب له خطبة صداق تطول وتقصر بحسب
صاحب العقد . فتكون طويلة للملوك وتقصر لمن دونهم
درجة درجة .

تبدأ بحمد الله وتعداد نعمه ، والتغنى بنعمة الزواج
خاصة . ثم يستأنف الكاتب رسالته بعد ذلك بكلام مناسب .
تحرير الأجازات :

ومنها الاجازة بالفتيا والاجازة بالتدريس والاجازة
بالرواية وهكذا .

وهذه نسخة اجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الامام
الشافعى رضى الله عنه — كتبت للقلقشندي حين اجازته
الشيخ سراج الدين أبو حفص عمرو المشهور بابن الملقن
سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهو بالاسكندرية ، وعمره
يومئذ احدى وعشرون سنة : « الحمد لله الذى رفع للعلم

مقدارا ، وأجرى نعمه على العلماء وأعلى لهم ممررا ...
أحمدته حمد من هدى الى الحق فجعله شعارا ، واستضاء
بنور الهدى فلجأ الى مولاه في حالتي سره وجهه افتقارا .
وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له تصديقا واقارارا ،
وان محمدا عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عبدت جهارا ،
والكفار قد أعرضوا عن الحق استكبارا . فقام بأمر الله
اتنصارا ، وقهر من أعرض عن الله اغترارا الخ .

(اما بعد) فقد وضح لذوى الأبصار والبصائر ،
واتضح عند ذوى الأسرار والسرائر أن منزلة علم الشريعة
عند الله تعالى أعلى المنازل وفضله أفضل المآثر وآثر الفضائل
... فقد أعظم الله تعالى من حفظها من عبادة المنة ، اذ جعله
وقاية لهم من مهالك الجهل وجنة . قال تعالى (وقل ربى
زدنى علما) . فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة اذ
خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة ... وقال تعالى
« انما يخشى الله من عباده العلماء » . فأوضح بذلك أن
الأولياء من خلقه العلماء ، اذ وصفهم وخصهم بأنهم
الخائفون منه الاتقياء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر الى
الخيرات طريقه — ممن شب وشبا فى طلب العلم والفضيلة ،
وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة
من المشايخ والتهادى من الأكابر الفضلاء واشتغا

عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضى ، وإلى نيل السعادة
— إن شاء الله تعالى — يفضى . استخار الله تعالى سيدنا
وشيخنا وبركتنا — العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام
العلامة الحبر الفهامة ، فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال
العلماء ، أوجد الفضلاء عمدة الفقهاء والصلحاء سراج الدين ،
مفتى الاسلام والمسلمين أبو حفص عمر بن سيدنا العبد
الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل الأوحد
الكامل القدوة المرحوم نور الدين أبي الحسن على ، بن
سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ... أدام الله تعالى النفع
ببركته ، وأشركنا والمسلمين في صالح أدعيته .

واذن وأجاز لفلان المسمى فيه أدام الله تعالى معاليه أن
يدرس مذهب الامام المجتهد المطلق العالم الرباني أبي
عبد الله محمد بن ادريس المطلبى الشافعى رضى الله عنه
وأرضاه . وجعل الجنة منقلبه ومثواه ، وأن يقرأ ما شاء من
الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبه حيث حل وأقام .
كيفما شاء ومتى شاء وأين شاء ، وأن يفتى من قصد استفتاءه
خطا ولفظا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه ، لعلمه
بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته .

فليتق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة وليترق بفضل
الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة ، وليعلم قدر ما أنعم الله
عليه ، وأسدى من الاحسان الوافر إليه ، وليراقبه مراقبة
من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولا

يستنكف أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم . فذلك قول سعد
قائله . وقد جاء « جنة العالم لا أدري . فإن أخطأها أصيبت
مقاتله » . فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق .
ويسلك بنا وبه أقرب طريق ويهدينا الى سواء السبيل . فهو
حسبنا ونعم الوكيل » .

ثم كتب له الشيخ تكملة لهذه الإجازة سمح له فيها بأن
يروى عنه جميع الكتب التي ألفها ، وأذن له أن يشرحها
لطالبيها ويفتح الطريق لجميع الراغبين فيها . ومن هذه
الكتب (جامع الجوامع) و (شرح صحيح الامام)
و (الهدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح
الكبير) للامام أبي القاسم الرافعي . وأجاز له كذلك رواية
الكتب الستة المعروفة في الحديث وهي : البخاري ومسلم
وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

خاتمة صَبَحِ الْأَعَشَى

الخاتمة

أراد القلقشندی فی خاتمة الموسوعة أن يذكر أموراً تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة . فتكلم فی هذه الخاتمة عن البريد ومطارات الحمام وأبراجه ومراكب الثلج والمحرقات والمناور .

البريد :

البريد فی اللغة هو المسافة التي تقدر باثني عشر ميلاً . لأن البريد أربعة فراسخ . وكل فرسخ ثلاثة أميال . ومن معاني البريد فی العربية الرسول وأبرده أرسلته . وذهب آخرون الى انه فارسي معرب أخذ من اللفظ الفارسي (بريده دم) ومعناه (المقصوص الذنب) . وذلك أن ملوك الفرس كانوا اذا أقاموا بغلاً فی البريد قصوا ذنبه ليكون علامة لكونه من بغال البريد .

وقيل ان أول من وضع البريد فی الاسلام معاوية بن أبي سفيان . وقد أشار عليه بالبريد دهاقين الفرس ووصفوه له . وفي زمن عبد الملك بن مروان أحكم أمر البريد ثم قلت العناية بهذا الأمر منذ قدر لبناء الدولة المروانية أن ينتقض ، ولحبلها أن ينتكث . فانقطع ما بين خراسان والعراق

لأنصراف الناس الى الدعوة التي انتهت بقيام الدولة
العباسية . وبقي الأمر على ذلك حتى أيام الخليفة هارون
الرشيد فأشار عليه وزيره يحيى بن خالد البرمكى بالعودة
الى الاهتمام بأمر البريد فان فيه صلاح ملكه . فرتبه يحيى
على ما كان أيام بنى أميه . ثم قطع بنو بويه البريد حين
غلبوا على الخلافة ليخفى على الخليفة ما يكون من أخبارهم
وحركاتهم . ثم جاءت ملوك السلاجقة فلم يكن بينهم الا
الرسل على الخيل . فلما جاءت دولة زنكى اهتم بأمر البريد
وأقام اذ ذاك ما يسمى (بالنجابة) . وأعد لها النجب
المنتخب . واستمر الحال على ذلك زمان بنى أيوب حتى
انقراض دولتهم . وتبعته في ذلك دولة المماليك حتى كان
عهد الظاهر بيبرس واجتمع له ملك مصر والشام وحب
والفرات وأراد ترتيب دولته في دمشق ، فعيّن لها فائلاً
ووزيراً وقاضياً وكاتباً للانشاء . ومثل كاتب الانشاء بين
يديه . وكان الظاهر بيبرس يزعم العودة الى القاهرة .
فأوصاه وصايا كثيرة أهمها وصيته بمواصلة الأخبار وخاصة
أخبار الفرنج والتتار . وقال له : ان استطعت الا تبتنى الا
على خبر ولا تصبحنى الا على خبر فافعل . فعرض عليه
كاتب الانشاء أمر البريد ووصف ما كان من أمره أيام
الخلفاء فحسن وقع ذلك في نفسه وأمر به . ولم يزل البريد
مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية الى زمان المؤلف .
غير ان البريد تعرض لكارثة عظيمة بسبب تيمور لنك

وتخريبه دمشق سنة أربع وثمناثة للهجرة . وصار اذا عرض
أمر من الأمور السلطانية ركب البريد على فرس له تسير
به الهويضا سير المسافر الى المكان الذي يريد ثم يعود على
هذه الصورة التي لا تسعف أحدا ولا تؤدي الى قضاء
مصلحة .

وقد سبق القول في بعض الفصول المقدمة ان صاحب
ديوان الانشاء هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أوامره .
وكان للبريد ألواح من فضة موضوعة بديوان الانشاء تحت
أمر كاتب السر ومنقوش على أحد وجهي اللوح ما صورته
(لا اله الا الله . محمد رسول الله . أرسله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب
بالقاهرة المحروسة) . وعلى الوجه الآخر ما صورته : (عز
مولانا السلطان الملك الفلاني فلان الدنيا والدين ، سلطان
الاسلام والمسلمين — فلان بن مولانا السلطان الشهيد
للك فلان . خلد الله ملكه) . وفي اللوح ثقب معلق به شراية
من حرير أصفر ذات بندين يعني شريطين) يجعلها البريدى في
عنقه . فيصير اللوح أمامه وتحت ثيابه . والشراية خلفه من
فوق ثيابه . فاذا خرج بريدى الى جهة من الجهات أعطي
لوحة من تلك الألواح . فكل من رأى تلك الشراية خلف
ظهره علم انه بريدى . وبذلك تدعى له أبواب المراكز بتسليم
خيل البريد . ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود .
والبريد أماكن أو مراكز (محطات) لتغيير الخيل ومنها

(مركز قلعة الجبل) بالديار المصرية وهى العاصمة . وتتفرع
منها أربع جهات هى : قوص ، وعيذاب ، والاسكندرية ،
ودمياط . وفى كل جهة من تلك الجهات مراكز أصغر أو
مراحل أو (محطات) . وقد أتى القلقشندى بأوصافها
وأسمائها وطريقة المسير إليها . ثم انتقل من ذلك الى مراكز
البريد فى الشام فذكر منها (غزة) وما يتفرع منها وهى :
الكرك ودمشق وصفد . ثم (حلب) وما يتفرع منها وهى :
البيرة وبهنا وقلعة الروم وإياس وجعبر .
ثم انتقل من ذلك الى مراحل الحجاز الموصلة الى كل
من مكة والمدينة .

واذ قد فرغ من كل ذلك انتقل منه الى موضوع آخر
يتصل بالبريد ويهم ديوان الانشاء وهو :
مطارات الحمام الرسائل :

١ والحمام الرسائل هو أعلى أنواع الحمام قيمة وأعلامه
قدرا . يتخذ الملوك وسيلة لحمل مكاتباتهم ويعبر عنه
(بالهدى) بسكون الدال . وقد سبق للقلقشندى أن عنى
بأوصاف هذا الضرب من الحمام عناية تامة ولم يترك فى ذلك
شيئا الا شرحه ثم قال : وأول من عنى بهذا الحمام هم خلفاء
بنى العباس وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق حتى بلغ
ثمن الطائر منها سبعمائة دينار . وقيل ان طائرا منها جاء
من القسطنطينية ويبيع بألف دينار وكانت للمسلمين فى ذلك
الحين دفاتر خاصة بأنساب الحمام كأنساب العرب سواء

يسوء . وتفوق أهل البصرة على غيرهم في كل ذلك . وكان يرجع اليهم في مثل ذلك .

وأما في الشام ومصر فإن أول من عنى به من الملوك نور الدين زنكي المعروف بالشهيد . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا في ذلك حتى أفردوا له ديوانا . وعملوا جرائد بانساب الحمام . وصنف فيه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر كتابا سماه (تائم الحمام) . حكى ان العزيز بالله الفاطمي ذكر لوزيره يعقوب ابن كلس انه ما رأى (القراصيا البعلبكية) وانه يحب لو رآها . فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هم تحت امرته بدمشق أن يجمعوا ما بها من حمام مصر ويعلقوا في كل طائر حبات من القراصيا ويرسلوها الى مصر ففعلوا ذلك ولم يمض النهار حتى حضرت الحمام بما علق فيها من القراصيا . فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به الى العزيز في يومه فأكله . وكان ذلك من أغرب الغرائب عنده !

أبراج الحمام :

المعروف ان مطارات الحمام ربما زادت على مراكز البريد . وأما أبراج الحمام فانها تبدأ من قلعة الجبل بالقاهرة . وهناك الأبراج الآخذة من قلعة الجبل الى غزة ، والبروج الآخذة من غزة الى دمشق وبلد الخليل واللد وهكذا . وهناك البروج الآخذة من دمشق الى حلب

وخص وحماه وهكذا . ثم هناك الأبراج الآخذة من حلب
الى البيرة وقلعة المسلمين وبهنسا وهكذا .

مراكب الثلج :

ولما كان الصيف في مصر حارا والهواء ساخنا وكان
الثلج غير موجود بها ، اعتاد ملوكها أن يأتوا بهذا الثلج من
بلاد الشام لتبريد الماء في زمن الحر .

وقيل أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان أول من حمل
اليه الثلج بالعراق .

ولاعتناء ملوك مصر بالثلج واهتمامهم به قرروا له أبلا
تحمله الى البحر وسفنا تحمله في هذا البحر وتصل به الى
دمياط فقلعة الجبل .

وفي أيام الملك الظاهر بيبرس كانت مراكب الثلج لا تزيد
على ثلاث . ثم أخذت تزيد شيئا فشيئا الى أن صارت أحد
عشر مركبا أو أكثر . والمراكب تأتي دمياط ثم يخرج بالثلج
في النيل الى ساحل بولاق . ثم ينتقل على البغال السلطانية
ويحمل الى (الشراب خانة) . وقد جرت العادة أن يصحب
المراكب رجال (ثلاجون) لمدارة الثلج حتى يصل الى مكان
السلطان .

أما الابل أو (الهجن) بضم الهاء جمع هجين فالمتقرر
منها في كل مركز ست على الأقل . خمس منها تحمل الثلج ،
وواحدة يركبها الهجان .

الحرفات :

كان من عادة التتار أنهم لا يقومون بعلوفة خيلهم . بل يكلونها الى نبات الأرض التي تنزل فيها . فاذا كانت هذه الأرض مخصبة سلكوها واذا كانت مجدبة تركوها . او كانت جميع الأراضي المؤدية الى الشام ومصر بلاد شديدة الخصوبة . وكانت لذلك تكفى هذه الخيل اذا قصد أصحابها بلادا . فاذا حرقنا زرع هذه البلاد ونبتها ضعف التتار عن قصد بلادا ، وأمتنا على أنفسنا من مباغثة القوم . ولما طريقة احراقها فانه كان يؤتى لذلك بالثعالب الوحشية وكلاب الصيد فتكن في كهوف الجبال وبطون الأودية ويرقب لها يوم تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزا ، وتطلق النار وتوثق في أذنان الكلاب والثعالب ، ثم تطلق من مكمنها وقد جوعت لتجد في العدو أو الجري ، فتحرق ما مرت به من نبت وزرع . وقد كان ينفق من خزائن دمشق في سبيل هذا الاحراق جملة كبيرة من المال .

المناور :

المناور هي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار . وتكون تارة على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ومواضعها معروفة . وهي من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة الى حضرة السلطان بقلعة الجبل . وفي كل واحد من هذه المناور نظارة لرؤية ما وراءهم أو أمامهم . ولمن يقومون بهذا العمل روايت معلومة .

قال المؤلف : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند كان
في بلادهم مناور على جبال مرتفعة ترى النار فيها على بعد
وقد ترقى المناور في سرعة وصول الأخبار الى الدرجة
القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت
به غيره . والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع من البريد .
والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك
بوصول خبر في الفرات الى مصر في مسافة يوم وليلة على
الأكثر .

عبد اللطيف حمزة

فرغنا من هذا الكتاب في ليلة التاسع من شهر أبريل سنة ١٩٦١

الموافق ليلة العاشر من شهر شوال سنة ١٣٨٠

فالحمد لله على ما وفق

وله المنة على ما هدى

فهرس الكتاب

صفحة

المقالة الثانية

الفصل الثامن :

ثقافة الكاتب

١٢٠ الجغرافية والتاريخية

في مصر الأيوبية

١٤٢ والملوكية

١٤٧ الديار الشامية

١٥٤ المملكة الحجازية

المقالة الثالثة

الفصل التاسع :

١٦٦ الثقافة الديوانية

الملخصات وكيفية

١٨٣ كتابتها

١٨٥ الفواتح والخواتيم

المقالة الرابعة

الفصل العاشر :

١٩٤ تحرير المكاتبات

الأصول العامة

١٩٦ للكتابة

صفحة

٣ تقديم الكتاب

الفصل الأول :

١٢ القلقشندي في عصره

الفصل الثاني :

سيرة أبي العباس

٣٢ القلقشندي

الفصل الثالث :

٥٦ من وحي المقدمة

الفصل الرابع :

٦٤ آداب مهنة الكتابة

الفصل الخامس :

التعريف بـديوان

٧٤ الانشاء

المقالة الأولى

الفصل السادس :

٨٢ ثقافة كاتب الانشاء

الفصل السابع :

٨٩ ثقافة الكاتب

المقالة السابعة

الفصل الحادي عشر :

الفصل الرابع عشر :

مصطلحات الكتابة

٢٤٨ في الإقطاع والقطائع

٢٠٣ . . . العربية

المقالة الثامنة

المقالة الخامسة

الفصل الخامس عشر :

الفصل الثاني عشر :

٢٥٦ في الإيمان

٢٢٢ الولايات

المقالة التاسعة

المقالة السادسة

الفصل السادس عشر :

الفصل الثالث عشر :

٢٦٦ كتب الأمان

في الوصايا

الفصل السابع عشر :

والمساحات

٢٧١ عقود أهل الذمة

والإطلاقات والتذاكر

الفصل الثامن عشر :

٢٣٢ والتحويلات

٢٧٥ كتب الهدنة

٢٣٦ المساحات

المقالة العاشرة

٢٢٨ الإطلاقات

الفصل التاسع عشر :

٢٣٩ الطرخانيات

٢٨٢ كتب غير ديوانية

٢٤١ التحويلات

٢٨٩ حاتمة صبح الأعشى

٢٤٤ التذاكر

• • • هذه السلسلة

توخت الوزارة في إصدار هذه السلسلة ما توخته في إصدار سلاسلها من تحقيق لاشتراكية الثقافة ، وتشجيع كل بيت على تكوين مكتبة له بضمن زاهد .

وهي إذ تفخر بتقديم هذه السلسلة الحافلة ، من عرض لسير هؤلاء الأعلام ، والترجمة لكل علم في كتاب على حدة ، مع التزام الجودة والانصاف ، والبعد عن الهوى والتجيز ، نود أن تلفت نظر القراء الى إصدار طبعة ممتازة بعشرة قروش ، ابتداء من العدد العاشر .

وقد صدر منها حتى الآن :

- محمد عبده : للأستاذ عباس محمود العقاد
- المعتمد بن عباد : للأستاذ علي أدهم
- جابر بن حيان : للدكتور زكي نجيب محمود
- عبد الرحمن بن خلدون : للدكتور عبد الواحد واقى
- ابن تيمية : للدكتور محمد يوسف موسى
- معاوية : للأستاذ ابراهيم الابيارى
- سيد درويش : للدكتور محمود احمد الحفنى
- عبد القاهر الجرجاني : للدكتور أحمد أحمد بدوى
- عبد الله النديم : للدكتور علي الحديدى
- عبد الملك بن مروان : للدكتور ضياء الدين الرئيس
- مالك : للأستاذ أمين الخولى
- القلقشندى : للدكتور عبد اللطيف حمزه

